جامعة بيروت العربية
كلية الآداب
قسم التاريخ ـ السنة الاولى

# محاضرات
# في
# تاريخ الشرق الادنى القديم

دكتور
عبد اللطيف احمد على
استاذ التاريخ القديم بجامعة القاهرة
وجامعة بيروت العربية

١٩٧١

طبعت
بمكتب كريديه اخوان
بيروت

جامعة بيروت العربية
كلية الآداب
قسم التاريخ ـ السنة الاولى

# محاضرات
# في
# تاريخ الشرق الادنى القديم

دكتور
عبد اللطيف أحمد علي
استاذ التاريخ القديم بجامعة القاهرة
وجامعة بيروت العربية

طبعت
بمكتب كريديه اخوان
بيروت

# الفصـــــــــــل الأول

"ظهور الانسان : أنواعـه وسلالاته الرئيســـية"

## ظهور الانسان وأنواعه :

نشأ الانسان أثناء "الزمن الجيولوجى الرابع" (١) في أواخر "عصـــــــــر البليستوسين (٢) منذ نصف مليون سنة أو أكثر . وانتهت البحوث الانثروبولوجيـــة (٣) الى اكتشاف ثلاثة أنواع رئيسية ( species ) للانسان ظهرت - فيما يرجح - علـى التعاقب . وأن لم يستبعد أنها تعاصرت لفترة اثناء ذلك العصر. وهذه الأنواع هى :

### ١ - الانسان القرد منتصب القامة : (٤) Pithecanthropus Erectus

وقد ظهر منذ ٥٠٠,٠٠٠ سنة أو أكثر . ويتمثل في "انسان جاوه" ( Homo Javanensis ) ، و "انسان الصين" ( Sinanthropus ) (٥) الذى يعرف احيانا باسم "انسان بكين" ( Homo Pekinensis ) .

### ٢ - انسان نياندرتال : Homo Neandertalensis

ظهر منذ ٣٠٠,٠٠٠ سنة أو أكثر . ولعل الانسان المسمى بانسان هيـــدلبرج ( Homo Heidlbergensis ) هو صورة قديمة له ( ظهر منذ ٥٠٠,٠٠٠ سنـــــــة

---

(١) Quaternary Age

(٢) كلمة بليستوسين مركبة من كلمتين يونانيتين ، الأولى ( Pleistos ) بمعنى الأكثر أو "جدا" والثانية ( kainos ) بمعنى جديد أو حديث. لكن حرف ( K ) اليونانى صار في اللغات الحديثة ينطق ( C ) .

(٣) أنثروبولوجيا هى "علم الانسان" و الكلمة يونانية الاصل تتركب من جزأين الأول anthropus ( بمعنى انسان ) والثاني logos ( بمعنى علم )

(٤) الكلمة الأولى (Pithecanthropus) تتألف من لفظين يونانيين الأول ( Pithekos ) بمعنى "القرد والثانى - كما ذكرنا - وهو Anthropus - بمعنى الانسان.

(٥) يستعمل العلماء كلمة Homo - وهى كلمة لاتينية - للدلالة على "الانسان وهـى ترادف تماما كلمة Anthropos اليونانية بنفس المعنى وقد ظهر هذا الانســـان في دور الجليد المسمى مندل Mindel ويقسم علماء الجغرافيا ادوار الجليد الـى أربعة على التوالى وهى : جونز ومندل وريس وفيرم : Gunz - Mindel - Riss - Würm

أو أكثر (١).

٣ ــ الانسان العاقل : Homo Sapiens

ظهر منذ ٢٠٠٫٠٠٠ أو أكثر

وقد باد النوعان الأول والثانى ولم يبق الا النوع الثالث نوع " الانسان العاقل " الذى ظهرت طلائعه الاولى على وجه الارض منذ حوالى ٢٠٠٫٠٠٠ سنة ولكنه لم يبدأ في الانتشار ويسود الارض الا منذ ١٠٠٫٠٠٠ على وجه التقريب . ولعله لم يستأثر بالسيطرة على هذا الكوكب الا منذ ٥٠٫٠٠٠ سنة . ولا يختلف هذا الانسان عن انسان الوقت الحاضر اى اختلاف جوهرى (٢).

ولنتناول كل نوع على حدة بشيء من الايجاز :

١ ــ الانسان القرد منتصب القامة :

سمى هذا النوع الأول كذلك لأن فيه صفات قردية كثيرة . ولكنه كان معتدل القامة أو شبه معتدل حين الوقوف وحين المشي . ويتمثل هذا النوع في " انسان جاوه" الذى اكتشف د كتور د يبوا ( E. Dubais ) الهولندى بقايا هيكله العظمى ( جمجمة وعظمة فخذ وسنتين ) في بلدة ترينيل ( Trinil ) بوسط جزيرة جاوه في عام ١٨٩١ ــ ١٨٩٢ ، ( وما تزال محفوظة . بمتحف تيلر Teyler بمدينة هارلم Haarlem في هولندا ) .

وينتمى الى نفس النوع البشرى مع اختلاف في السلالة " انسان الصين " أو " انسان بكين " الذى اكتشفت أجزاء من هيكله بين سنتى ١٩٠٣ ــ ١٩٣٠ . وهو أرقى قليلا من سابقه . وجمجمة الانسان القرد منتصب القامة ( والمتمثل في " انسان جاوه"

---

(١) ظهر في دور جليد " فيرم " وهو الدور الرابع والأخير .

(٢) ان قصة بداية الانسان لا تزال موضع بحث وجدل . وقد أجريت في افريقيا (في جنوب افريقيا ووسطها حفريات في الفترة ما بين ١٩٢٥ ــ ١٩٦٤ تشير الى ان هذه المناطق كانت اهم مراكز التطور في عصر البليستوسين . وعن هذا الموضوع أنظر ص ٤٤ . حاشية ١ فيما يلي .

و " انسان الصين " ) أقرب الى جماجم القردة في شكلها العام فهي مفرطحة ( مفلطحة ) وتتميز ببروز شديد في عظام الحاجبين . وجبهته متقهقرة بالتدريج الى الخلف ، وفكه قوي ، وعنقه غليظ ، وأسنانه كبيرة ، وأنفه عريض مفرطح . وليس له ذقن بالمعنى المعروف وكان اقرب الى القصر اذا قيس بالانسان الحالي .

وأهم من ذلك أن حجم مخه يبلغ في المتوسط ١٠٠٠ سم مكعب بينما يبلغ حجم المخ عند الانسان الحديث في المتوسط ١٣٥٠ سم مكعب وهذا يدل على مستوى عقلي منحط . لكن قامته معتدلة وأطرافه ليست قردية بل هي سوية كأطراف الانسان العاقل . هو يجمع اذا بين صفات بشرية وصفات قردية . ولهذا اعتبره بعض العلماء الحلقة المفقودة التي كانوا ينشدونها بين القرد والانسان . لكنه " انسان صانع " ( Homo faber ) بمعنى انه عرف كيف يستخدم الصوّان في صناعة بعض الالات الحجرية اللازمة له . ولعله اهتدى الى معرفة النار اذ وجدنا آثار حريق في بعض كهوف الصين ترجع الى عصره المسمى بالعصر الحجري القديم الاسفل ( أى الاقدم ) وارتبطت به حضارة أو حضارتان . ولا بد انه كان لديه وسيلة للتفاهم . فهل كان على معرفة بسيطة باللغة ؟ وكان سريع الحركة بارعا في تسليق الأشجار . وكان صيادا ماهرا يصيد الغزال . هو انسان وان كان بدائيا . ولم يكن وجوده مقصورا على قارة معينة . ومن المرجح أن وسط آسيا هو وطن الانسان الاول ، وان كان هناك من يقول بأن افريقيا هي أول مكان ظهر فيه الانسان . وأيا كان الأمر فقد باد الانسان القرد وانقرض . فهو انسان قديم أو انسان حفري ( fossil man ) أو انسان بائد .

٢ ـ انسان نياندرتال :

واما النوع الثاني المسمى بانسان نياندرتال فقد ظهر منذ ٣٠٠٠٠٠ أو أكثر . ولعل اقدم نموذج لهذا النوع هو انسان هيدلبرج الذى اكتشف له فك سفلي غليظ مطمور في رواسب نهرية مع عظام حيوانات بائدة كالخرتيت والماموث في بلدة ماور ( Mauer ) بالقرب من هيدلبرج . وما تزال معلوماتنا عنه ناقصة . لكن يبدو برغم قدمه انه ينتمي الى نوع انسان نياندرتال الذى هو أكثر اهمية من ناحية التطور والحضارى .

لقد سمى انسان نياندرتال كذلك نسبة الى وادى ( Tal ) نياندر ( Neander ) الذى يقع بالقرب من مدينة دسلدورف حيث عثر بأحد الكهوف على بقاياه عام ١٨٥٧ .

ويوجد هيكله العظمى الان في المتحف الاقليمى بمدينة بون . في الحق أن جمجمة مشابهة لجمجمة هذا الانسان كانت قد كشفت قبل ذلك في كهف بجبل طارق عام ١٨٤٨ لكن حقيقتها لم تكن قد تبينت بعد . وتوالت الكشوف بعد ذلك لبقايا هذا النوع البشرى أو لسلالاته في جهات مختلفة من اوروبا وافريقيا وآسيا . ولعظام هذا الانسان صفات تكسبه مظهرا وحشيا ،فرأسه مائلة قليلا الى الامام ،ولم يكن كامل انتصاب القامة لتقوس بسيط في عموده الفقرى وانحناءة أخرى في فخذيه ولذلك كان يبدو منكفئا الى الامام حين الوقوف وحين المشي . كل ذلك يدل على أن انسان نياندرتال لم يكن خطوة جديدة في التطور نحو الانسان العاقل الذى كان قد بدأ في الظهور فعلا ،بل انه كان تطورا جانبيا نهائيا . وقد باد وانقرض بعد ذلك لسبب نجهله ( قسوة الجليد الذى دهمه أو عدم قدرته على تطوير لغته أو لاندحاره أمام نوع انسانى آخر اذكى منه واقوى وابطش سلاحا ؟ ) لكن من الغريب أن مخ هذا الانسان كان كبير الحجم اذ يبلغ ١٤٥٠ سم مكعب أى أكبر من متوسط حجم مخ الانسان العاقل الذى يبلغ ١٣٥٠ سم$^{٣}$. ونحن لا نعرف الشيء الكثير عن مخ انسان نياندرتال وقيمته . لكن هذا الحجم الكبير نفسه لا يدل على أنه يتسق ومرحلة تطور مخ الانسان العاقل ، بل يدل على أنه تطور جانبى أو متواز تفرع من اصل مشترك مع نوع الانسان العاقل ، ثم انقرض . في الحق أن بعض العلماء يرون أن انسان جاوه كان اصلا مشتركا تطور منه انسان نياندرتال من ناحية ،والانسان العاقل من ناحية أخرى.

وقد بلغ انسان نياندرتال اقصى انتشارا له بين سنتى ٣٠٠,٠٠٠ ، ١٠٠,٠٠٠ ق.م. على وجه التقريب . ونظرا لأنه كان أوسع الانواع البشرية القديمة (الحفرية ) انتشارا وأكثرها تفرعا الى سلالات ،ونظرا لوفرة ما يقترن به من بقايا حيوانية ونباتية ،وآلات حجرية من نوع خاص ، فقد أصبح لدينا فكرة واضحة عن هذا الانسان وحضارته التى ازدهرت في العصر الحجرى القديم الاوسط .

وجدير بالذكر في هذا المقام أن اكتشاف انسان نياندرتال هو الذى اتاح الفرصة لبعض العلماء وفي مقدمتهم العالم الانجليزى تشارلز داروين ( Charles Darwin ) لاعلان نظريتهم في اصل الانواع البشرية . وكان ذلك في الاجتماع الذى انعقد في جمعية لينابوس ( Linnaean Society ) في لندن عام ١٨٥٨. وقد نشر داروين

كتابه الشهير بعنوان " أصل الأنواع Origin of Species " في العالم التالـــى ١٨٥٩ ، ثم كتابه الآخر بعنوان " تطور الانسان " Evolution of Man " في عـــام ١٨٧١ . وأحدث بهما دويا في الاوساط العلمية . وتتلخص نظريته في أن الاحيـــاء جميعا تنتمي الى اصل واحد نشأ في زمن موغل في القدم . ثم حدث تغير في الاصـل استلزمته ظروف البيئة المتغيرة . فانتقل بالوراثة من السلف الى الخلف أى حدث تغير بالوراثة خلال أجيال عديدة . وبعبارة أخرى أن الفرع لا يلبث بعد مرور عدة أجيـــال أن يختلف عن أصله ، ويكّون اصلا آخر لفروع اخرى تتفرع منه وهكذا دواليك . وفي أثناء ذلك تبدأ عملية " الأختبار الطبيعى " أى ان البيئة تختار الافراد الذين يتصفـــون بصفات معينة تلائم ظروفها المتغيرة . والمقصود بذلك هو التغير الناشىء من اختلاف العلاقة بين اليابس والماء كطغيان البحر على مساحات كبيرة من اليابس أحيانا ، وانحساره احيانا اخرى ، أو تغير درجات الحرارة أو تغير حالات الجفاف والمطر ، وما يستتبــع ذلك من تغير الحياة النباتية . وحيث انه توجد تنوعات ( variations ) داخل افراد النوع الواحد ، فان البيئة تعمل على الابقاء على هوءلاء الافراد الذين هم أصلح من يكونون لها . وهذا ما سماه داروين ببقاء الاصلح " ( Survival of the Fittest ) لأن الافراد الذين لا يتميزون بصفات ملائمة لها ، لا يستطيعون أن يقاوموا ويظلوا أحياء ، اذ ان صفاتهم غير ملائمة للبيئة الجديدة . وفي الوقت نفسه تعمل البيئة على تنميـــة الصفات الملائمة لها وتقويتها ، بينما تعمل على تنحية الصفات غير الملائمة واضعــافها ، فتقوى الاولى بالاستعمال ، وتضعف الثانية بالاهمال . ولما كانت الصفات الملائمة ذات فائدة للكائن الحى لأنها تعطيه المقدرة على البقاء ، فانها تنتقل الى الخلف بالوراثة أى تصبح صفات مورثة . وهكذا تتأكد الصفات التى تختارها البيئة الطبيعية وتـــورث ، ويتغير الكائن الحى من حال الى حال .

وقد بنى داروين نظريته في التطور على اساس فكرة " وحدة الاحياء " ، وانتظام الافراد المتشابهة الصفات في أنواع " Species " ثم وضع المتشابه من الأنواع فـــي اجناس ( Genera ) ثم وضع الاجناس المتشابهة في عائلات ( Families ) والعائلات المتشابهة في فصائل ( Orders ) ، ثم وضع المتشابه من الفصائل في مجموعـــات أكبر تسمى بالقبائل ( Tribes ) ، ووضع القبائل في احدى تحت مملكتين "حيوانية أو نباتية ) ، وأخيرا انتظام تحت المملكتين في مملكة واحدة (أى من أصل واحد ). والفضل في التقسيم يرجع اولا الى عالم النبات الشهير لينايوس ( Linnaeus ) الذى عـــاش في القرن الثامن عشر .

٣ - الانسان العاقل :

النوع الثالث والاخير هو نوع الانسان العاقل أو الحديث الذى ظهر منـــذ ٢٠٠,٠٠٠ سنة كما يتضح من بقايا هياكله العظمية التى اكتشفت في اوروبـــــا (سوانسكومب بمقاطعة Kent بانجلترا ) وشرقى افريقيا ( كانام على بحيرة فكتوريـــا ). وتوجد الآن بعض قرائن تشير الى انه ربما كان أقدم عمرا مما كان يظن من قبل . ويلوح انه قد ظهر في اوروبا وشرقى افريقيا بالذات منذ زمن بعيد ( منذ العصر الحجـــرى القديم الاسفل ، والدورة الجليدية الثانية ؟ ) لكنه لم ينتشر ويصبح سيدا على الارض الا منذ ١٠٠,٠٠٠ سنة بل لعله لم يستأثر بالسيطرة على مسرح هذا الكوكب الا منذ ٥٠,٠٠٠ . ولا نعرف شيئا عن الفترة التى انقضت منذ بدء ظهوره وبين عصر سيادته على الارض الا ان نوعا آخر وهو نوع انسان نياندرتال الذى كانت له الغلبة في مستهل هذه الفترة لم يلبث أن انقرض وباد تاركا المجال لنوع ارقى هو نوع الانسان العاقـل الذى لا يختلف أى اختلاف جوهرى عن نوع الانسان في الوقت الحاضر . وقد ورث هذا النوع العاقل ما تركه له النوع السابق من تراث حضارى واضاف اليه وارتقى به وابتـدع الوانا من الحضارة نشأت في اوروبا وكذلك في افريقيا في وقت واحد وهذا محتمـل أو نشأت - على الارجح - في افريقيا ثم حملها هذا الانسان الى اوروبا بالهجرة علـى دفعات عن طريق فلسطين وآسيا الصغرى من ناحية ، وعن طريق شمال افريقيا ومضيـق جبل طارق من ناحية اخرى . وكان واسع الانتشار منذ تقهقر الجليد نهائيا واستطاع ان يعبر مضيق بهرنج ( الذى كان يابسا منذ ٢٥,٠٠٠ الى ١٠,٠٠٠ سنة ) الـــى امريكا منذ ٧٠٠٠ سنة مضت على الأقل كما اثبتت ابحاث تحليل كربون ١٤ المشـــع، وقد عثرنا على عدة جماجم وهياكل عظمية للانسان العاقل في جهات متعددة من جميع القارات . وكلها تدل على أن هذا الانسان العاقل ممثلا في سلالات عديدة قد سـاد هذا الكوكب منذ العصر الحجرى القديم الأعلى . ومن اشهر جماجمه في اوروبا :

(أ) جمجمة ( Cro-Magnon ) وهو كهف باحدى قرى حوض نهر دوردونـــى ( Dordogne ) بجنوب فرنسا حيث اكتشفت أول بقايا لهيكل عظمى من نوع الانسان العاقل من اوروبا . وماتزال هذه البقايا تشاهد في متحف التاريخ الطبيعى في باريس (قوقازى - ابيض) .

(ب) جمجمة كومب كابل ( Combe Capelle ) وهو كهف صخرى في حوض نهر الدوردونى ( قوقازى - ابيض ) .

(جـ) جمجمة شانسليد ( Chancelade ) نسبة الى مكان بهذا الاسم في حوض الدوردونى أيضا ( مغولى - اصفر - اسكيمو ) .

(د) جمجمة جريمالدى ( Grimaldi ) نسبة الى بلدة بالقرب من مونت كارلو على ساحل الرفييرا ( زنجى - اسود ) .

(هـ) جمجمة بودسترانسكا ( Podstranska ) في مورافيا في تشكوسلوفاكيا

وأما خارج اوروبا فاشهر جماجمه من افريقيا هى جمجمة فلوريسباد في جنوب افريقيا .

وان الفحص الدقيق لجماجم العصر الحجرى القديم الاعلى لا يدل الا على طراز واحد من الانسان العاقل يتصف بصفات لا تزال جميعها توجد في كثير من البشر الآن . ولا يختلف هذا الانسان - كما ذكرنا - عن انسان الوقت الحاضر .

وجدير بالذكر ان الانسان الحالى هو في رأى أغلب الباحثين وحيد النشأة وليس متعدد النشأة بمعنى أن الرأى يتجه الى اعتبار انسان جاوه جدا للجنس البشرى كله تطوّر منه انسان نياندرتال ثم الانسان العاقل ( وهو اتجاه العلماء السوفييت ) أو تطور منه كل من انسان نياندرتال البائد على حده والانسان العاقل الباقى على حده ( وهو اتجاه معظم علماء الغرب ) . وكل من هذين الرأيين معناه ان الانسان وحيد النشأة .

المجموعات البشرية الكبرى ( السلالات الرئيسية ) :

وفي أول الامر كان الانسان العاقل متحد الصفات ، ثم لما تفرّق في جهات العالم المختلفة حيث تسود في كل منها بيئة طبيعية خاصة ذات ظروف معيّنة من تضاريس ومناخ أخذت كل جماعة تتشكل بحسب ظروف هذه البيئة . وقد ساعد على ذلك ان الانسان كان في بدء نشأته عجينة ليّنة في يد الطبيعة تشكله وفقا لظروفها التضاريسية

والمناخيةفلما تقادم العهد ثبتت له الصفات التي اكتسبها واصبحت جزءا من تكوينه الجسماني لا تتغير أو تتبدل مهما غيّر الانسان بيئته الطبيعية بعد ذلك. وبذلك انقسم نوع الانسان العاقل الى مجموعات بشرية كبرى (١). ولكل مجموعة صفاتها الجسمانية المميزة لها . ولم يظل التقسيم بهذه البساطة لأن المجموعات البشرية الكبرى أو السلالات المتفرعة منها اخذت تهاجر من مكان الى مكان وتختلط بالزواج مع السلالات الاخرى ،فأخذ عامل الوراثة يحدث اثره في الصفات الجسمانية لكل سلالة واختلط بعضهما بالبعض الآخر حتى ليتعذر ان نجد سلالة نقية في الوقت الحاضر . وفي رأى بعض علماء الانثروبولوجيا ان نوع الانسان العاقل بدأ يتفرع الى مجموعات بشرية كبرى منذ العصر الحجرى القديم الأعلى . لكن الاقرب الى الصواب ان ذلك التفرع لم يحدث الا في اواخر العصر ،وان المجموعات البشرية الكبرى لم يكتمل تطورها الا منذ حوالى ٢٠٠٠٠ سنة . وأيّا كان الرأى فان هذه المجموعات قد انقسمت بدورها الى سلالات races ، وربما انقسمت السلالة الواحدة الى عدة سلالات فرعية . والسلالة هي جماعة بشرية ( ethnos ) يتصف افرادها بصفات جسمانية وراثية متجانسة تميزهم عن غيرهم من الجماعات . ومن المتفق عليه أن انقسام البشر الى مجموعات كبرى انما يرجع الى عدة عوامل أهمها عامل العزلة الجغرافية "كجبال التاى والهملايا والقوقاز) فهى المسئول الأول عن هذا الانقسام .

وهذه المجموعات البشرية الكبرى هي :

| | |
|---|---|
| ١ - المجموعة القوقازية | Homo Caucasicus |
| ٢ - المجموعة المغولية | Homo Mongolicus |
| ٣ - المجموعة الزنجية | Homo Aethiopicus |

---

(١) أو سلالات رئيسية . ويسميها البعض مجموعات جنسية كبرى .

وهذه تتفق الى حد كبير مع تقسيم بعض العلماء للبشر الى ما يسمى :

أ — بالمجموعة الغربيـــة

ب — المجموعة الشـــرقية

جـ — المجموعة الجنوبيـــة

وينضوى تحت هذه المجموعات البشرية الكبرى الثلاث حوالى ٩٩٪ من سكـان العالم ،وأما ١ ٪ فيحوم الشك حول نسبتهم الى أى من هذه المجموعات ،ولذلـك يوضعون أحيانا في مجموعة خاصة تسمى " مجموعة المذبذبين " ،ومن أمثلة ذلك :

أ ) الاستراليون الاصليون الذين يجمعون من الصفات ما يمكنهم من الانتساب الى أحدى المجموعات الثلاث ، ولكنهم يتميزون بصفات أخرى تخرجهم من كل هـذه المجموعات .

ب) البولينيزيون Polynesians ( وهم سكان بولينيزيا وهى مجموعة مـن الجزر في المحيط الهادى تمتد من جزر هاواى شمالا الى نيوزيلنده جنوبا (١) ويبـدو انهم نتيجة اختلاط بين سلالات متفرعة من المجموعات البشرية الكبرى .

وتنقسم المجموعة القوقازية أو الغربية ( والتى تسمى خطأ بالبيضاء أو الأوروبية في بعض الاحيان ) الى سلالات أهمها :

أ — سلالة البحر الابيض المتوسط وهى اقدمها

ب — السلالة الالبيـة

جـ — السلالة النردية .

د — السلالة الهندوسية . وهذه الاخيرة تمثل الطرف الشرقى الاقصى للمجموعة القوقازية . ويقال انها دخلت الهند من شمالها الغربى ،وهناك اختلطت بسكانهـا الاصليين الذين كانوا سلالة من الزنوج أو الاستراليين الاصليين . وتشمل المجموعـة القوقازية سكان اوروبا ( ففي فرنسا مثلا نجد السلالة النرديـة في الشمال ،والالبيـة في الوسط ، وسلالة البحر المتوسط في الجنوب ) ،وشمال افريقيا ،وجنوب غرب آسيـا ،

---

(١) بولينيزيا هى قسم من القارة المسماة بالاوقيانوسية ( Oceania ) وتشمل هـذه القارة : استراليا وغينيا الجديدة وتازمانيا Tasmania ، وميكرونيزيا وميلانزيـا وبولينيزيا .

ومنطقة الشرق الاوسط حتى السند ،وحوض بحر قزوين ،وبحر آرال . وليس من قبيـل الصدفة ان تتفق هذه المنطقة تقريبا ومنطقة نشأة حضارات البحر الابيض المتوسـط ومدنياته الكبرى وانتشارها. فشعوب هذه المنطقة كلها تتفق في أصول حضاراتهـا وثقافاتها التى ترتكز على الديانات السماوية التوحيدية الكبرى التى نشأت فـي فلسطين وشبه جزيرة العرب ، وعلى فلسفة الاغريق . وهذه هى القيم الروحية لحضـارات المنطقة ،كما ترتكز على تلك المدنيات التى نشأت أولا في منطقة الهلال الخصيـب ( Fertile Crescent ) وحوض النيل الأدنى ،ثم شملت حوض البحر المتوسـط الشرقى ،وبعدئذ حوضه الغربى ،وأخيرا انتقلت مراكز ثقلها الى شواطئ المحيـط الاطلسى فيما يسمى الآن بالمدنية الغربية .

وأما المجموعة المغولية (أو الشرقية) فتشمل :

أ ـ المغول الاصليين في شرق آسيا .
ب ـ مغول الملايو بجزر الهند الشرقية .
جـ ـ الهنود الحمر في امريكا . وقد هاجر هؤلاء من سيبريا الى امريكا عن طريق مضيق بهرنج .

ويعتبر الاسكيمو شعبة من المغول وهم احدث من الهنود الحمر عهدا بالهجرة من آسيا .

وأما المجموعة الزنجية ( أو الجنوبية ) فتشمل شعبتين رئيسيتين همـا :

أ ـ زنوج افريقيا وغينيا الجديدة وميلانيزيا Melanesia (هى مجموعـة من الجزر في جنوب المحيط الهادى الى الشمال الشرقى من استراليا ،وتقع غربى بولينيزيا وميكرونيزيا ) .

ب ـ الاقـــزام .

نعود مرة أخرة لنقول انه لا يوجد شعب يستطيع أن يزعم انه تكوّن من سـلالة واحدة . مثل هذه الشعب يجب بمقتضى التزاوج الداخلى ( endogamy ) وقوانيـن الوراثة ان يكون اقرب ما يكون الى التجانس التام في الصفات الجسمانية . واين هـذا

التجانس في أي شعب من الشعوب ؟ فما بالنا الأمم الكبيرة . ان لفظة سلالـــــة ( أو جنس ) ليست الا مصطلحا نظريا أو فرضا تاريخيا لا وجود له في الواقـــع، والحقيقة أن أي شعب انما يتكون من اختلاط عدة سلالات وامتزاجها وتداخل صفات بعضها في صفات البعض الآخر . ولا وجود الآن للسلالات النقية الا فيما ندر وذلك بين أشد الشعوب بدائية وفي أكثر الجهات عزلة كجماعة الاندامان من جزر الاندامـان Andaman في شرق خليج البنغال ، والفدا ( h ) Vedda في جزيرة سيلان ، والبوشمن Bushman في جنوب غرب افريقيا . ومثل هذه للسلالات الاقرب الى النقاء يكـــون مصيرها الى الانقراض في الغالب . وقد انقرض بعضها بالفعل كالتازمانيين ، سـكان تازمانيا Tasmania ، وهي جزيرة في جنوب استراليا .

وقد سبق أن عرضنا رأى غالبية الباحثين القائل بأن الانسان وحيد النشأة، وبقى أن نشير الى رأى القلة الذين يقولون بأن الانسان متعدد النشأة أي أن لـه اصولا متعددة . وتتلخص نظريتهم في أن كل مجموعة بشرية كبرى حالية قد اختطـت لنفسها طريقا مستقلا في التطور عبر الدهور ، وكل منها تشكلت بشكل مختلف يلائـم احتياجات بيئات مختلفة ، وكل منها وصل الى مستواها الخاص في سلم التطـــور ، فالاستراليون الاصليون قد تطورا تطورا من انسان جاوه والمغول من انســان الصين والقوقازيون من انسان هيدلبرج . أما الزنوج فهم - على ما يبدو - تطور غير ناضـج ربما من انسان هيدلبرج ايضا . وهذه كلها أنواع فرعية من نوع الانسان منتصـــب القامة الذى تطور الى الانسان العاقل ليس مرة واحدة في كل منطقة ، بل اربع أو خمس مرات في اربع أو خمس مناطق مختلفة . ومعنى هذا أن هناك سلالات عليا وســلالات دنيا ، وان سلالات البشر ليست متساوية من الناحية البيولوجية ، وبالتالى ليست هناك مساواة في الذكاء . وهذا ينطوى على تأييد شبه علمى لانصار التفرقة العنصريـــة (racial discrimination ) . لكن هذه النظرية لا يؤيدها الا قلة من العلمـاء ، وهى نظرية خاطئة غير مقبولة .

* * *

# الفصـــــل الثانـــــــي

=============

## علـــم ما قبـــل التاريـــــخ

تعريـــف :

يبدأ عصر ما قبل التاريخ بظهور أول نوع للانسان في عصر البليستوسين أى منذ نصف مليون سنة وظهور أول مخلفات اثرية له من ادوات وآلات صنعها من مواد لم تبل كالحجر ولا سيما الظران أو الصوان ( flint ) . ولذلك تسمى هذه الحقبة الطويلة من حياة الانسان الصانع ( Homo faber ) بالزمن الحجرى (Stone Age )وحوالى عام ٤٠٠٠ق.م. عرف الانسان النحاس ( copper ) وبدأ يستعمله الى جانـب الحجر ولذلك تسمى الفترة من ٤٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ بعصر النحاس أو عصر بداية المعدن أو بالعصر الحجرى النحاسى ( Chalkcolithic ) (١) وهى فترة انتقال ،ثم توصـل في نهايتها الى مزج القصدير ( tin ) بالنحاس بنسبة معينة (١ : ١٠ ) ( أو ١ : ٢٠ ٪ ) ليزيد المعدن الأخير صلابة ويتحول الى ما نسميه بالبرونز ومن ثـم بدأ حوالى ٣٠٠٠ ق.م. زمن البرونز ( Bronze Age ). وأخيرا تمكن من استخـلاص الحديد من الخام وعرف كيف يستخدمه فبدأ زمن الحديد ( Iron Age ) في القرن الحادى عشر ق.م. غير أن بداية الازمنة الحضارية الكبرى ونهايتها وهى :

أ ـ الزمن الحجـرى ب ـ زمن البرونـز جـ ـ زمن الحديـــــــد

تختلف من منطقة الى منطقة اختلافا كبيرا فهى ليست موّحدة .

ثم توصل الانسان الى كشف هام الا وهو التعبير عما يدور في ذهنه من افكـار بواسطة رموز يخطها وهو ما نسميه بالكتابة . وقد عرفت الكتابة في بلاد الشرق الادنى كمصر والعراق قبيل عام ٣٠٠٠ ق.م. ولم تعرف في كريت وبلاد الاغريق الا اثناء الالف الثانى ق.م. ولن تعرفها ايطاليا الا حوالى القرن السادس ق.م. وأما فرنســـا

---

(١) أو الاينوليثي Eneolithic وهي كلمة مركبة من الصفة اللاتينية aeneus بمعنى نحاس أو برونزى ،والكلمة اليونانية lithos بمعنى حجر .

وبريطانيا فلم تعرفا الكتابة الا مع الفتح الروماني في القرن الأول قبل الميلاد . بل لا تزال بعض الشعوب تعيش في عصر ما قبل التاريخ حتى الوقت الحاضر كالشعوب الاسترالية الاصلية وبعض البوشمن في جنوب افريقيا .

وقد اصطلح العلماء على وضع حضارات الانسان السابقة لمعرفة الكتابة في مرحلة حضارية خاصة يطلقون عليها اسم "عصر ما قبل التاريخ" ( Prehistory ) سواء استخدم في هذه المرحلة الحجر أو النحاس أو البرونز أو الحديد ، وأما مرحلة ما بعد الكتابة فيطلقون عليها اسم "العصر التاريخي" ، ويتضح من هذا امران : الامر الأول ان نهاية عصر ما قبل التاريخ وبداية العصر التاريخي لا ترتبطان بتغير معين من معالم حضارة الانسان فيما عدا معرفة الكتابة ، والأمر الثاني انه بينما يتناول علم التاريخ دراسة حضارات الانسان في مرحلة طولها خمسة الاف سنة على أكثر تقدير ( منذ ٣٠٠٠ ق.م. حتى الآن ) نجد ان علم ما قبل التاريخ يتناول حضارات الانسان في مرحلة طولها نصف مليون سنة أو أكثر .

على أن بعض الباحثين لا يرضون عن تعبير "ما قبل التاريخ" ويقولون أن دراسة حضارات الانسان في الزمن الحجري ما هي الا تاريخ أيضا ، وأن تاريخ الانسان وحدة "متصلة" لا فرق في ذلك بين المرحلة السابقة لمعرفة الكتابة وبين المرحلة اللاحقة لها ، وان الاختلاف بين المرحلتين مقصور على وسيلة جمع المادة التاريخية ؛ ففي المرحلة الأولى يستمد المؤرخون معلوماتهم عن طريق استقراء ( أي استخلاص المعلومات من ) آثار الانسان وحدها ، وأما في المرحلة الثانية فيستمدون معلوماتهم عن طريق استقراء آثار الانسان بالاضافة الى قراءة وثائقه المدونة على ألواح من الطين ( clay tablets ) أو المنقوشة على الحجر أو المكتوبة على أوراق البردي أو سعف النخل أو الجلد أو الرق . وهذا فرق طفيف لا ينفي ان تاريخ الانسان وحدة لا يتجزأ وان الكتابة لا تعدو أن تكون أحد المظاهر التي جدّت في تاريخ الانسان فلا ينبغي أن تتخذ هي نفسها بداية لهذا التاريخ. ثم أليست الآثار من مختلف الادوات والآلات والاواني الفخارية أو اطلال المنازل والمعابد والمقابر والتماثيل والصور والرسوم وما اليها - حتى ولو كانت خالية من الكتابة - اليست وحدها بقادرة أو كافية لأن تعطينا فكرة عامة عن حياة الانسان الاقتصادية والاجتماعية والدينية والفنية ؟ إن الآثار هي التاريخ بالنسبة لما يسمى بعصر "ما قبل التاريخ" .

لهذا كله اراد العلماء الالمان تلافى هذا العيب في تسمية المرحلة الأولى من حضارة الانسان باسم عصر ما قبل التاريخ ( Prehistory ) كما يفعل الانجليز والفرنسيون وغيرهم ،واطلقوا هم عليه تعبيرا آخر هو " فجر التاريخ " ( Urgeschichte ).

نشأة علم ما قبل التاريخ :

لفت النظر الى آثار ما قبل التاريخ وجود قطع من حجر الظرّان أو الصوّان ( flint ) مشكّلة بطرق خاصة يستحيل أن تكون من عمل الطبيعة لأن اثر العقل والارادة واضح في أشكالها . فأخذ هواة الاثار في جمع هذه القطع،وعكف العلماء على التفكير في العصر الذى يحتمل أن تكون قد صنعت فيه .وكانت هذه القطع عبارة عن ادوات وآلات مختلفة مصنوعة من الصّوان . وقد اتضح ان الانسان كان يصنع ادواته وآلاته من الاحجار قبل ان يعرف استخدام المعادن .

وقد تم مولد "علم ما قبل التاريخ " في فرنسا في منتصف القرن التاسع عشر، واعترف الناس جميعا . وبوشيه دى برت(Boucher de Perthes ١٨٤٠ — ١٨٦٠ )وادوار لارتيه Lartet .E/مؤسسين "لعلم ما قبل التاريخ" ( ١٨٦١ — ١٨٧١ ) . وقد أصبح ميدانا خصبا يستهوى عددا كبيرا من الباحثين . وصاحب ذلك اعتراف الهيئات العلمية بوجود الانسان منذ عصر البليستوسين أى منذ نصف مليون ( سنة أو أكثر . وظل علم ما قبل التاريخ " مولده يعيش في حضانة الفرنسيين حتى بلغ مرحلة الشباب . ومن أجل هذا نجد اسماء حضارات ذلك العصر التى اصطلح على استخدامها كل العلماء هى اسماء فرنسية بحتة . وكان العالم الفرنسى جابرييل دى مورتييه ( Gabriel de Mortillet ( ١٨٧١م ) هو أول من صنف المراحل الحضارية للعصر الحجرى القديم ( أسفل واوسط وأعلى ) ،وما يزال هذا التصنيف متبعا مع بعض التعديلات . والى عالم فرنسى آخر هو جوزيف دشيليت ( Joseph Dechelette ) يرجع الفضل في اخراج أول دراسة علمية منظمة لازمنة الحجر والبرونز والحديد . وبعد هذا ادخلت دراسة "علم ما قبل التاريخ " في الجامعات ،وعقدت له المؤتمرات الدولية ،وظهرت له دوريات ( مجلات علمية ) .

ولم تبدأ العناية بعلم ما قبل التاريخ في مصر الا في اواخر القرن الماضى ( التاسع عشر ) . ويرجع الفضل في ذلك الى علماء انجليز وفرنسيين وألمان ونمساويين

ومصريين ،وفي مقدمتهم فلندرز بيترى ( Flinders Petrie ) الانجليزى ،وجاك دى مورجان ( Jacques de Morgan ) الفرنسى ، وقد قاما بالكشف عن حضارة عصر ما قبل الاسرات والمسماة بحضارة نقادة ( محافظة قنا ) في ١٨٩٥، ١٨٩٧ . وسنعود الى موضوع عصر "ما قبل التاريخ" في مصر مرة أخرى .

منهج البحث في علم ما قبل التاريخ :

يجمع الباحث في هذا العصر معلوماته من مصدرين :

١ - بقايا هياكل الانسان فمنها يستطيع تحديد سلالته ويعرف هل هو أصيل في هذه الجهة أو وافد اليها من مكان آخر .

٢ - صناعات هذا الانسان ( ادواته وآلاته ) ومخلفات طعامه وبقايا مساكنه ومواقده الخ ....

وبعد أن يجمع الباحث معلوماته من هذين المصدرين يعتمد على أربعة أسس في ابراز الصورة النهائية للحضارة من حيث عصرها ودرجة رقيها وصلتها بغيرها من الحضارات المحلية أو الاجنبية . أما هذه الاسس الاربعة فهى :

١ - موضع الاثر في الطبقات ( strata ) .
٢ - شكل الاثر وطريقة صناعته ووظيفته .
٣ - علاقة هذا الاثر بالاشياء الاخرى التى توجد معه .
٤ - درجة احتفاظ الاثر بجدّته .

* أما الاساس الاول وهو موضع الاثر في الطبقات فينبغى على القانون الجيولوجى المعروف باسم قانون الارساب ( superposition ) فاذا تكونت طبقات بفعل الارساب أو التراكم ولم تتعرض لاضطرابات تالية فان الطبقات السفلى تكون اقدم من التى تعلوها . فاذا وجدت مخلفات اثرية في الطبقات يمكن ترتيبها ترتيبا طباقيا من اسفل الى أعلى واتخاذ هذا الترتيب الطباقى مقياسا زمنيا ، فان الاسفل يكون هو الأقدم ويكون الأعلى هو الأحدث . ولذلك ينبغى للاثرى في عصر ما قبل التاريخ أن يزيل الطبقات الاثرية طبقة طبقة بمقياس منتظم يتخذه لنفسه فيتبع في حفائره على سبيل مقياسا وليكن ٣٠ سم

فتزال هذه السنتميترات العليا وتسجل محتوياتها الاثرية ،ثم تزال الـ ٣ سم التالية وتسجل محتوياتها كذلك ،حتى يصل الحفّار الى التربة الاصلية التى سكنها الانسان لأول مرة . وبذلك يحصل على ترتيب طباقى لمخلفات الانسان . ثم يقارن محتويات الطبقات بعضها بالبعض الآخر . هذا مع ملاحظة ان ترتيب الطبقات في المنطقة الواحدة قد لا يدلنا وحده على تتابع الحضارات بل قد يستلزم ذلك دراسة حفائر عدة مناطق وعقد مقارنة بين ترتيب الطبقات في كل منها .

وبعد ئذ يلجأ عالم ما قبل التاريخ الى الاساس الثانى من منهجه وهو دراسة شكل الاثار المكتشفة وطريقة صناعتها ووظيفتها . ويصنفها الى عائلات حسب الشكل العام وطريقة الصناعة وحسب الفرض الذى يعتقد انها صنعت من أجله . فاذا كان يتناول بالتصنيف الالات الحجرية مثلا ،يضع الالات المصنوعة من النواة ( أى من نواة الصوان ) في ناحية والمصنوعة من الشظايا في ناحية أخرى ، ثم يضع الالات المثلثة الشكل في مجموعة والالات المستطيلة في مجموعة ثانية ،والالات المصقولة في ناحية وغير المصقولة في ناحية أخرى ، وبعد ئذ يضع الفؤوس في مجموعة والمثاقب في مجموعة ثانية والمناحت في مجموعة ثالثة ... وهكذا،وبذلك يحصل في النهاية على عدد من المجموعات أو العائلات متشابهة في شكلها وطريقة صناعتها ووظيفتها . ويجد بطول المران أن الأمر اصبح سهلا آليا وبمجرد أن يلتقط الاداة أو الآلة الحجرية يستطيع ان يضعها في عائلتها على الفور وقد تبين بالتجربة أن ادوات الانسان القديم كانت محدودة .

أما الاساس الثالث وهو دراسة علاقة الاثر بالاشياء المرافقة له فالقصد منه مراجعة النتائج التى توصل اليها عالم الاثار بمقتضى الاساسين الاولين للتأكد من صحة النتائج . فهو لا يعطى لعالم ما قبل التاريخ نتائج جديدة وانما يجعله يطمئن الى صحة النتائج التى توصل اليها . ويصبح هذا الاساس أو العامل عظيم الفائدة في حالة الشك ، ثم هو عديم الفائدة في حالة الاثار التى توجد على السطح لأن معظم آثار هذا العصر قابلة للنقل من مكان الى آخر اما بفعل الطبيعة أو بفعل الانسان ، ولهذا قد نجد اشياء قديمة جدا بجوار اشياء حديثة جدا . واما في الاثار غير السطحية كالتى توجد في الكهوف والرواسب النهرية والطبقات الاثرية التى لم تعبث بها يد الانسان ،

فاننا نستطيع أن نطمئن الى قيمة الاشياء المرافقة في تحديد عمر الاثر ونوع المناخ في عهده وغير ذلك . ولعل من اوضح الامثلة على ذلك انه وجدت في كهوف أوروبا هياكل انسان نياندرتال ومعها آلات موستيرية . وقد تكررت هذه الظاهرة في عدة كهوف مما أكد ارتباط هذه الهياكل البشرية بهذا النوع المعين من الآلات . فاذا وجدنا بعد ذلك عظاما بشرية لم نستطع تحديد شكلها لأنها مهشمة ووجدنا معها آلات من النوع السابق فاننا من شكل هذه الآلات نستطيع أن نحدد نوع الانسان المرافق لها ونحن مطمئنون تماما الى صحة النتائج التى توصلنا اليها . وتزداد قيمة هذا الاساس في دراسة العصر الحجرى الحديث والعصور التالية عندما بدأ التبادل الثقافى بين الجماعات المتباعدة . ونضرب مثلا على ذلك بأننا عثرنا في حفائر هليوبوليس على الجبانة ولم نعثر على محل السكنى . فكيف نحدد عصر هذه الجبانة ؟ وكيف نحدد المرتبة الحضارية لاصحابها ؟ لقد عثرنا بين الاوانى الفخارية المدفونة مع الهياكل البشرية في جبانة هليوبوليس على اناءين من النوع السائد في حفائر المعادى والذى لا يوجد في أى مكان آخر . فاستطعنا ان نقرر بكل اطمئنان أن سكان هليوبوليس الذين كشفنا عن هياكلهم كانوا معاصرين لسكان المعادى ، وانهم عاشوا في مرتبة حضارية قريبة من مرتبة اهل المعادى الذين عرفنا حضارتهم من مدينة الاحياء ومدينة الموتى على حد سواء . وذلك هو ما يعرف احيانا باسم دراسة الطرز ومقارنتها ( Typology ) أى مقارنة الاثار التى يعثر عليها في مناطق مختلفة بعد دراستها دراسة فاحصة شاملة بحيث يصبح في الامكان استنتاج تاريخ تلك الاثار وصلة بعضها بالآخر . ويمكن القول اجمالا بأن تشابه اثار جهة من الجهات لاثار منطقة اخرى يوحى بان الحضارات المنتجة لها كانت متعاصرة . وبديهى أن طريقة دراسة الطرز ومقارنتها يمكن اجراؤها بالنسبة لاثار ما قبل التاريخ ولاثار العصر التاريخى أيضا . ولنفرض مثلا اننا عثرنا في احدى طبقات طروادة على أوان مشابهة أو مناظرة تماما لأوان مصرية من عصر اخناتون . هذا يوحى بأن هذه الاوانى كانت مصدرة في الغالب من مصر الى طروادة . ولما كان تاريخ عهد اخناتون معروفا فان اثار هذه الطبقة من طروادة لابد وأنها ترجع الى نفس الزمن .

ومن الجائز — على اساس ما نلحظه من تطور في آثار احدى المناطق — أن نحدد أيها كانت الاسبق وبناء على هذه القاعدة أيضا يمكن ترتيب الآثار التى يعثر عليها

في منطقة من المناطق حسب التطور الذى يحدث في طراز وصناعة نوع معين من الآثار. وقد استعمل هذه الطريقة في مصر الاثرى الانجليزى فلندرز بيترى ( F. Petrie ) حيث اتخذ من الفخار الذى عثر عليه بين آثار منطقة نقاده اساسا لتاريخ حضارة العصر النحاسى السابقة للتاريخ المصرى ، وهى حضارة عصر ما قبل الاسرات (٤٠٠٠ - ٣٢٠٠ ق.م.) والمسماة باسم نقادة الأولى ( العمره ) ونقادة الثانية ( جرزة ) .

والأساس الرابع والاخير في منهج علم ما قبل التاريخ وهو درجة احتفاظ الاثر بجدته . فنجد أن اثار هذا العصر نظرا لقدمها قد تعرضت لعوامل التعرية من رياح ومياه جاريه . وتدل درجة تآكل الالة أو الاداة على مدى تعرضها لهذه العوامل ولكنها لا تدل على مدى قدم الالة بصفة قاطعة . ومن أجل هذا ينبغى الا ينخدع الاثرى بمظاهرها . فكثيرا ما يحدث في آثار ما قبل التاريخ ان الالات التى تبدو جديدة في مظهرها تكون هى القديمة فعلا وان الآلات التى تبدو بالية في مظهرها تكون هى الحديثة فعلا . والسبب في هذا أن الآلات الأولى رغم قدمها لم تتعرض لعوامل التعرية فتبدو جديدة ، وان الالات الثانية رغم حداثتها تعرضت لعوامل التعرية فتبدو قديمة . ويتخذ الأثرى من تآكل الالات بفعل المياه الجارية دليلا على أن هذه الآلات لا تتبع المكان الذى وجدت فيه انما هى مجروفة مع المياه من مكان آخر . وبناء على درجة تآكل هذه الآلات يستطيع الاثرى أن يقدر موضع المكان الاصلى لها وهل هو قريب أو بعيد عن المكان الذى وجدت فيه .

دراسة عصر ما قبل التاريخ ووسائل تأريخ آثاره :

قبل الكلام عن العلوم التى يستعان بها في دراسة علم ما قبل التاريخ ينبغى ان نقدم له بنبذة سريعة عن الجغرافيا المسماة بالجغرافيا التاريخية . ان الجغرافيا التاريخية ( Historical Geography ) تشمل فرعين من علم الجغرافيا طبيعى وبشرى مطبقين في الماضى . وليس للجغرافيا التاريخية صلة بعلم التاريخ الا بالقدر الذى تتصل به الجغرافيا الحديثة بهذا العلم . وكلمة " تاريخية " في اسم "الجغرافيا التاريخية " . مستعملة بمعنى " قديمة " حتى ليمكن القول بأن الجغرافيا التاريخية هى جغرافية الماضى . وبينما يدرس علم الجغرافيا ظاهرات سطح الارض الطبيعية

والبشرية القائمة في الوقت الحالى نجد علم الجغرافيا التاريخية يدرس ظاهرات الارض الطبيعية والبشرية التى اندثرت ثم الصور القديمة للظاهرات القائمة في الوقت الحاضر. ومعنى هذا ان المجال الزمنى لعلم الجغرافيا التاريخية واسع جدا . ان ظاهرات سطح الارض الطبيعية من سطح ومناخ ونبات في تغير مستمر . وبينما يدخل وصف الصورة لهذه الظاهرات في نطاق الجغرافيا الحديثة ، نجد أن تتبع ما يطرأ عليها من تطور أو تغيير يدخل في نطاق الجغرافيا التاريخية . والظاهرات البشرية هى أيضا في تغير مستمر، بل ان التغير هو القانون العام الذى يحكمها . وتدخل هذه الظاهرات الاخيرة في نطاق الجغرافيا البشرية ( Human Geography ). لكن تسعة اعشار الجغرافيا البشرية عبارة عن جغرافيا تاريخية .

وعلم ما قبل التاريخ هو الذى يقدم للباحث في الجغرافيا التاريخية المعلومات عن البيئة في عصر البلستوسين ، وهو عصر نشأة الانسان . وتسمى الفترة الأخيرة من هذا العصر باسم عصر الهولوسين ( Holocene ) أى الذى "كله حديث" . وفي هذه الحقبة — كما نعلم — لم يعرف الانسان الكتابة ، ولذلك فان الادلة التى نعتمد عليها في دراسة هذا العصر تختلف عن الادلة التى يعتمد عليها المؤرخون ، اذ نعتمد على البقايا العضوية المتحجرة والآثار الطبيعية والبشرية المطمورة في رواسب عصر البليستوسين والممثلة في الحصى الدقيق أو الرمل والطين أو الطمى والركامات الجليدية .

ولنستعرض الان العلوم المساعدة في دراسة وتأريخ عصر ما قبل التاريخ :

١ — الجيولوجيا ( Geology )

علم الارض وبخاصة دراسة طبقات الارض بقصد تأريخها وبالتالى تقدير عمر البقايا والآثار التى توجد بها . وحتى وقت قريب كان عصر ما قبل التاريخ يعتبر احد فروع الجيولوجيا التاريخية وبخاصة جيولوجية الزمن الرابع أو عصر البليستوسين . ومن الممكن أيضا عن طريق علم المناخ القديم ( Palae - climatology ) الذى يستعين بعلم الجيولوجيا ، وعلم المناخ الحديث وغيرهما من العلوم الطبيعية ( كالنبات والحيوان والتشريح ) بل والعلوم الفيزيائية ( كتغير الاشعاع الشمسى والبقع الشمسية ، وتغير ميل محور الارض ) من الممكن ان نرسم صورة للظروف المناخية في فترة محددة من تاريخ

الارض ، وهى ظروف مناخية ليس لها وجود في الوقت الحاضر . ولذلك لا يمكن في دراستها استخدام الادوات التى تستخدم في دراسة مناخ الوقت الحاضر ، وانما يستعان فيها بأدلة علمية أخرى كالأدلة البيولوجية وتشمل الحفريات القديمة ( أى البقايا النباتية والحيوانية المتحجرة ) والادلة الصخرية كعمليات التحات والتعرية وتكوينات التربة والارساب المختلفة .

٢ — علم تتابع الطبقات ( Stratigraphy )

وهو فرع خاص من علم الجيولوجيا ويقوم على قانون الارساب ( superposition ) الذى يقول بأن الأعلى هو الأحدث ما لم يحدث في الطبقات تغيير في الوضع .

٣ — علم الحفريات القديمة ( Paleontology )

وهو دراسة البقايا العضوية ( النباتية والحيوانية ) القديمة (أى المتحجرة fossils ) وقد امكن اتخاذ الحفريات القديمة اساسا لتأريخ طبقات الارض — وبذلك قام عليها علم تتابع الطبقات . ويساعد علم الحفريات القديمة على تفهم المسرح الجغرافى الذى نشأ عليه الانسان في عصر البليستوسين .

٤ — علم الانسان ( Anthropology )

وهو العلم الذى يدرس تطور الانسان من القردة العليا والاجناس البشرية البائدة التى عاشت في عصر ما قبل التاريخ ذلك بالاضافة الى أنه يساعد الباحث على مقارنة اساليب الحياة عند بعض الجماعات التى تعيش في الوقت الحاضر بالجماعات التى عاشت في الزمن الحجرى لكى يخرج بصورة واضحة عن حياة الجماعات الأولى الحضارية والفكرية . وبعبارة أخرى أن دراسة المجتمعات البدائية المعاصرة ( في استراليا وجنوب افريقيا وأمريكا الشمالية وغينيا الجديدة ) تلقى اضواء على انسان ما قبل التاريخ واسلوب حياته .

٥ — علم تأريخ أو تقويم الارض ( Geochronology )

اصطلح معظم العلماء — كما سبق أن بيّنا — على أن عصر ما قبل التاريخ هو

العصر السابق لمعرفة الانسان الكتابة وظهور الوثائق المدونة . وعلى ذلك فــان تقديره يختلف عن طرق تقدير الفترات التاريخية . وكان لابد من الرجوع الـــى الظاهرات الطبيعية للوصول الى هذا التقدير. ومن ثم فقد نشأ حديثا فرع خاص من العلم يبحث في وسائل تأريخ الأرض اسمه " جيوكرونولوجيا" ،وهو يستمد أصوله مـــن علوم الجيولوجيا والنبات والحيوان والطبيعة بقصد تأريخ ظاهرات سطح الارض وعمل مقياس زمني بالسنوات لتأريخ هذه الظاهرات التي وجدت قبل أن يعرف الانســان التقويم . فعلماء الجيولوجيا — كما ذكرنا — يؤرخون لطبقات الارض ،وعلماء النبات ( Botany ) يؤرخون لنشأة النبات وتطوره وعلماء الحيوان ( Zoology ) كذلك يؤرخون لنشأة الحيوان وتطوره . وعلماء الطبيعـــة ( Physiography ) يتتبعـــون تطـور الظواهر الطبيعية وعلمـــاء الجيومورفولوجيـــا ( geomorphology ) يدرسون قشرة الأرض وما يطرأ على بنيتها من تغيير . وأخيرا يأتي دور علماء الانسان( Anthropology ) الذين يحاولون ربط نشأة الانســان وتطوره بكثير من الظاهرات التي تدخل في اختصاص علماء الجيولوجيا والنبـــات والحيوان والطبيعة .

لذلك وجد من المفيد أن يقوم فرع خاص من العلم يعنى بعملية التأريـخ هذه ،ويربط بين النتائج التي وصل اليها هؤلاء العلماء كل في تخصصه ، ويقيـــم مقياسا زمنيا لظاهرات سطح الارض هو أشبه ما يكون بالتقويم في تاريخ الانســـان الحديث . على أن أهم ميدان لتطبيق علم الجيوكرونولوجيا يقع في آثار ما قبل التاريخ وبقايا الحيوان القديم . فأما عن آثار ما قبل التاريخ فان تطور الانسان ســواء من الناحية الجسمانية أو الحضارية لا يمكن أن يفهم على حقيقته الا في ضوء المقيــاس الزمني . واما عن بقايا الحيوان القديم فانها تتصل اتصالا وثيقا بنشأة الانســـان وتطوره اذ تفسر هذه البقايا التطور البيولوجي للانسان . ومن هنا يأتي اعتماد علم الجيوكرونولوجيا على المادة التي يقدمها له علم ما قبل التاريخ وعلم الحفريـــات ( النباتية والحيوانية ) . ويستخدم هذا العلم بعض وسائل وطرق في تقدير عمـــر فترات ما قبل التاريخ أو بالاحرى تقدير الزمن الذى استغرقته حضارة عن حضـــارات ذلك العصر مع ملاحظة أن هذا العلم يختلف عن علم تتابع الطبقات في انه يحـــاول أن يقدر الزمن الذى مرّ منذ حدوث الحدث في العصر السابق للكتابة ويحصيـــه .

بالسنين ،أى الوصول الى تاريخ مطلق — بالتقريب — وليس الى مجرد تاريخ نسبي .
واليك بعض اسس التأريخ التى يعتمد عليها علم الجيوكرونولوجيا :

أ — طريقة تحليل حلقات الاشجار : Tree- Ring Analysis

وتعرف هذه الطريقة ايضا باسم التقويم النباتى ( Dendrochronology )وهى تعتمد على حساب عدد الحلقات التى تتكون منها جذوع الاشجار ولا سيما الاشجار المعمرة الضخمة . ومن المعروف ان الشجرة تضيف حلقة جديدة الى لحائها كل سنة. والحلقة السنوية تتكون حول الجذع من نسيج يقع بين الخشب القديم واللحاء. ومن عدد الحلقات يمكن تقدير عمر الشجرة . على أن نمو هذه الحلقات يختلف في الشجرة الواحدة من عام لآخر تبعا لعاملين ،الأول أن سمك حلقات النمو يختلف باختلاف عمر الشجرة . فهو يضيق مع تقدم عمر الشجرة في السن ،والثانى ان النمو الطبيعى للشجرة ليس منتظما بسبب اختلاف الظروف المناخية من فصل الى فصل ومن عام لآخر ،فالفصل المطير يضيف حلقة سميكة بينما الجاف يضيف حلقة رقيقة . وقد أمكن تطبيق نفس الطريقة على الخشب المقطوع من أشجار المنطقة الواحدة حيث استعمل في بناء المساكن في عصر ما قبل التاريخ وفي العصر التاريخى . واستخدمت هذه الطريقة بنجاح في تقدير عمر قرى الهنود الحمر في عصر ما قبل التاريخ في امريكا الشمالية ( اريزونا وكاليفورنيا ) وذلك في حدود ثلاثة آلاف سنة ،وهى فترة تدخل في العصر التاريخى في بعض الاقطار لكنها تقع في صميم عصر ما قبل التاريخ في اقطار أخرى. ومن ثم كانت هذه الطريقة عظيمة القيمة في التأريخ في الاقطار الاخيرة بسبب عدم وجود وثائق مدونة .

ب — طريقة تحليل رقائق الطمى الجليدى : Varve- Clay Analysis

يمكن بهذه الطريقة التأريخ لفترة الخمسة عشر الف عام الماضية ،وهى فترة تبدأ من العصر الحجرى المتوسط ( الميزوليثى ) فتشمل العصر الحجرى الحديث (النيوليثى )والعصر التاريخى كله . وكلمة " فارف" كلمة سويدية تطلق على طبقات الارساب التى تحملها مياه الجليد الذائب الى البحيرات فتأخذ شكل رقائق متعاقبة عاما بعد آخر . وتحليل رقائق الطمى الجليدى هى اقدم طريقة اتبعها الجيولوجيون لتأريخ ظاهرات دورة الجليد الاخيرة وما بعدها . وعلى اساسها نشأ علم الجيوكرونولوجيا . وتتلخص فكرتها في أن الثلاجات ( glaciers ) ترسب ما تحمله من طين وحصى

دقيق عندما تذوب . وقد استغرقت الثلاجات وقتا طويلا وهى تنحسر عن شمال أوروبا بعد أن بدأت درجة الحرارة في الارتفاع . والجليد – كما نعرف – جسم ضخم يحمل في ثناياه كميات من الطين والحصى الدقيق . وعندما يذوب تترسب هذه الشوائب أو الذرات على شكل رقائق من الطمى الجليدى . على ان سرعة ذوبان الجليد تختلف من عام الى آخر حسب معدل الحرارة ،كما تختلف في الصيف عنها في الشتاء . ففي الصيف ترسّب طبقة سميكة من الطمى الجليدى ،وفي الشتاء طبقة رقيقة. والعالم دى جير ( De Geer ) السويدى هو الذى ابتدع طريقة احصاء عدد طبقات الرواسب السنوية التى تلقيها مياه الجليد الذائب في بحيرات السويد بعد أن لاحظ انتظام الارساب في هذه البحيرات الى درجة امكان التعرف على ارساب كل سنة على حدة. وقد لجأ الى أخذ قطاع كامل من رقائق الطمى الجليدى ابتداء من الصخر الاصلى الذى رسبت فوقه حتى السطح ،ثم حسب بدقة عدد هذه الرقائق . وبهذا تمكن من تأريخ الفترة التى تلت الدور الجليدى الاخير أو ما بعد الجليد منذ ١٨٫٠٠٠ سنة مضت . لكن تطبيق هذه الطريقة مقصور على الجهات التى كان يغطيها الجليد . ومع هذا فمن الممكن تطبيقها في جهات أخرى من العالم حيث يكون الارساب منتظما مثل وادى النيل . ويمكن تأريخ الخمسة عشر الف عام الاخيرة في مصر بقياس سمك طمى النيل من مستوى السهل الفيضى الحالى الى القاع الرملى لهذا السهل .

جـ – طريقة قياس النشاط الراديومى ( Radioactivity )

كان كشف عنصر الراديوم ( radium ) نقطة تحول هامة فيما يتصل بتأريخ الارض بالطرق الطبيعية . فقد عرف ان عنصر الراديوم الموجود في بعض صخور القشرة يعوض حرارتها المفقودة بالبرودة التدريجية .

– ففي عام ١٨٨٥ لاحظ العالم رنتجن ( Röntgen ) ان الكهرباء العالية الضغط في انبوبة مفرغة تنتج تحت ظروف خاصة نوعا من الاشعة من فصيلة الاشعة الضوئية ولكنها تستطيع أن تنفذ خلال الاجسام المعتمة . وقد اطلق على هذا النوع من الاشعة اسم "اشعة اكس" ( X – Rays ) أو اشعة رنتجن . وأصبح لها شأن كبير في الصناعة وتحليل المعادن وعلاج الامراض .

— وقد لوحظ فيما بعد أن معدن الاورانيوم ( uranium ) له تأثير مشابه لتأثير اشعة اكس .

— وفي عام ١٨٩٨ استطاعت مدام كورى ( Cutie ) ان تستخرج من معـــدن الاورانيوم عنصرا معينا له خاصية ارسال الاشعة في صورة مركزة . وقد اطلق على هـذا العنصر اسم راديوم ، واطلق على عملية صدور الاشعة اسم " النشاط الراديومـــــــى" ( radio- activity ) .

— وفي عام ١٩٠٢ تمكن اللورد رزرفورد (Rutherford ) من أن يثبت أن الاشعاع الراديومى يتكون من ثلاثة أنواع من الاشعة رمز اليها بالحروف أ ، ب، ج. وتبين له أن الاشعة (جـ) هى وحدها التى لا تتأثر بالمغناطيس ، وبذلك تعتبــــر مقابلة لاشعة أكس . وعن الاشعة (أ ) ينتج الهليوم بحمولةكهربيــة موجبة . وأمـــا الاشعة (ب) فهى اقل الانواع الثلاثة قدرة على اختراق الاجسام ، فهى — على الرغم من انها تنطلق بسرعة كبيرة بشحنتها الكهربية الموجبة — الا انها باصطدامهـــــا بذرات المواد المحيطة بها سرعان ما تتعادل مع الكتروناتها السالبة . وينتج عــــن هذا ذرة عادية من الغاز يطلق عليها اسم " هليوم" ( helium ) . ومن هنا نشأ الكشف العجيب للذرة ، وعرف ان ذرات العنصر الكيمائي الواحد يمكن تكوينها بتغليب عنصر على آخر .

وأما الاشعة (ب) فهى تتكون — كما ذكرنا — من اليكترونات أى جزئيـــات دقيقة سالبة تدور داخل الذرة ( atom ) حول نواة ( nucleus ) موجبة ثقيلة نسبيا مثلما تدور الكواكب حول الشمس . وهى اكثر من الاشعة (أ ) قدرة على اختراق الاشياء كما أن مدى حركتها اكبر .

وقد عرف أن ذرة الراديوم أو ذرة اى عنصر راديومى آخر — فيما عدا ذرة الهليوم — لا تحتفظ بصورتها بل تتحول الى شيء آخر . فحينما يتحلل الراديوم يلفظ غازا راديوميا ، وهذا الغاز نفسه يلفظ ذرة الهليوم التى تتحول بدورها ، الى مادة صلبة تسمى "راديوم أ" وتستمر عملية لفظ الجزئيات هذه ، وفي كل مرة تخرج مادة ذات نشاط راديومى جديـــدة الى ان ينتهى الامر الى مادة خامدة ، وهذه المادة هى " الرصاص " .

كذلك تبين ان الراديوم نفسه ينتج من الاورانيوم . وبذلك امكن القول بوجود مراحل متدرجة من الاورانيوم الى الراديوم الى الرصاص ( وسميت هذه المشتقات " بعائلة الاورانيوم " ) .

وبناء على هذا كله امكن اتخاذ مراحل التحول الراديومى مقياسا زمنيا لقياس عمر الارض بصفة عامة ثم عمر الصخور (النارية ) (١) وأى جسم آخر مشع لعنصر الراديوم.

هكذا نجد ان ظاهرة الاشعاع الراديومى للمعادن قد أمدت العلماء بطرق لقياس العصور الجيولوجية المختلفة منذ القدم حتى العصر التاريخى . وقد حلت هذه الطرق الفزيوكيمائية محل الطرق التقليدية لقياس الزمن الجيولوجى مثل معدل الارساب ،ومعدل النحت ، وملوحة البحر ، ومراحل تطور الحياة ... الخ ويعتبر مقياس " الرصاص " أهم الطرق الفزيوكيمائية .

هذه الطرق السالفة الذكر قد تعنى الباحث في الجغرافيا التاريخية أكثر مما تعنى دارس عصر ما قبل التاريخ ،وان كانت تفيد الاخير وتساعده في بحثه .

ولنتكلم الآن بصورة اكثر تحديدا عن وسائل تأريخ الادلة الاثرية أى تقويمها الزمنى حيث ان التقويم الزمنى عامل اساسى في تأريخ الحضارات المحلية وتتبع اطوارها وكذلك في اثبات أو نفى وجود صلات بينها وبين المراكز الحضارية الاخرى ولا سيما بين اقطار الشرق الادنى القديم في عصور ما قبل الاسرات وأثناء العصر التاريخى .

وللتقويم الزمنى طرق بعضها مباشر ،وبعضها الآخر غير مباشر :

أ ) الطرق التقويمية المباشرة :

١ - طريقة التقويم الفلكى
٢ - طريقة الكربون المشع

---

(١) الصخور اما نارية او رسوبية . والرسوبية لا تحتوى على معادن مشعة للراديوم ،ولا يمكن تأريخ الطبقات الرسوبية الا بما قد يتداخل فيها من صخور نارية .

٣ ـ طريقة التأريخ بحلقات الأشجار
٤ ـ طريقة تحليل رقائق الجليـــــد

ب ـ الطرق التقويمية غير المباشرة (النسبية ) :

١ ـ طريقة الطبقات
٢ ـ طريقة التأريخ التتابعي
٣ ـ طريقة الدراسة المقارنة

واليك نبذة عن كل طريقة من هذه الطرق بادئين بالطرق المباشرة :

١ ـ طريقة التقويم الفلكي :

تعتمد هذه الطريقة على ملاحظة الكواكب وحساب الزمن الذى تستغرقه فـــي دورانها .

فقد ثبت فلكيا ان الارض تكمل دورتها حول الشمس في فترة سنة تعرف " الشمسية" وتقدر مدتها ب ٣٦٥ يوما ، ٥ ساعات ، ٤٨ دقيقة ، ٤٦ ثانية أى مايقرب مـن ٣٦٥ ¼ يوما . وبجانب هذه السنة الشمسية ( solar year ) توجد ايضا السنة القمرية ( Lunar year ) .

وقد بذل الانسان في مصر وبلاد الرافدين مجهودا كبيرا في سبيل التوصل الى نظام توقيت سليم يساعده على تنظيم حياته الاقتصادية والسياسية . وقد توصل المصريون ـ على ما يبدو ـ الى ابتكار التقويم الزمنى السنوى قبل بداية العصر التاريخـــي . ويعتقد بعض الباحثين ان المصريين قد ربطوا بين ظاهرة مجيء الفيضان في صيف كـل عام بانتظام وبزوغ نجم الشعرى اليمانية المسمى عندهم " سبدت" ( SPDT ) (١) فـي الشرق قبل طلوع الشمس . وبتكرار ملاحظاتهم تمكنوا من حساب السنة المدنية على اساس ٣٦٥ يوما . ولما كان الزمن الفعلى للسنة الشمسية يقدر ب ٣٦٥ ¼ يوم فقد كان هنـاك فارق ربع يوم بين التقدير الحقيقى والتقدير المصرى القديم . وهذا الفارق يصير يومــا

---

(١) ويسمى في اللغات الاوروبية Sirius أو Sothis ،وهى أولى مجموعة النجـوم المعروفة " بالكلب الاكبر".

كاملا كل اربع سنوات ،وشهرا كل ١٢٠ سنة ، الى ان يوافق طلوع هذا النجم بداية السنة ،وذلك يحدث مرة كل ١٤٦٠ سنة ،وقد استطاع المؤرخ الرومانى كنسورينـوس Censorinus ( الذى عاش في القرن الثالث الميلادى ) ان يحدد توافق بداية السنة المدنية مع ظهور هذا النجم بسنة ١٣٩م.

وبعملية حسابية أمكن التوصل الى ان هذا التوافق قد حدث سنة ١٣١٧ق.م وسنة ١٧٧٢ق.م. وبناء على ذلك امكن حساب تواريخ بعض ملوك مصر الفراعنـة الذين سجلوا ظهور نجم الشعراء اليمانية مثل تحتمس الثالث ،وامنحتب الأول وسنوسرت الثالث ،فقد سجل الاول ظهور هذا النجم في الشهر ١١ واليوم ٢٨ دون ذكر سنة معينة من حكمه . وسجله الثانى في السنة ٩ والشهر ١١ واليوم ٩ من حكمه. وسجله الثالث في السنة ٧ والشهر ٧ واليوم ٢٥ من حكمه . وقد ساعد ذلك على التوصل الى السنوات التقريبية التالية في عصور هؤلاء الملوك : سنة ١٤٦٩ق.م. بالنسبة لتحتمس الثالث ،ثم سنة ١٥٤٥ق.م. بالنسبة لامنحتب الاول ،وأخيرا سنة ١٨٧٧ ق.م. بالنسبة لسنوسرت الثالث .

غير أن بعض الباحثين من أمثال نويجباور ( O. Neuegelauer ) وباركـر ( R.A. Parker ) يتجهون اتجاها آخر في تفسير توصل المصريين القدماء الى ابتكار التقويم الزمنى السنوى . ففي رأيهم ان المصريين لم يتوصلوا الى ذلك بالربط بيـن مجيء الفيضان كل عام في وقت محدد وظهور نجم الشعرى اليمانية ،وبالتالية تقدير السنة المدنية على اساس ٣٦٥يوما ، وانما توصلوا الى ذلك عن طريق آخر. ويعتقد هؤلاء الباحثون أن المصريين كانوا يتبعون التقويم القمرى ( Lunar calendar ) وأن هذا التقويم ،وليس التقويم الشمسى ،كان هو الاساس الأول في توصل المصريين الى تقويمهم الزمنى . ويرجحون احتمال أن يكون المصريون قد أخذوا متوسط السنة القمرية في عدة سنوات وتوصلوا بذلك الى تقدير طول السنة المدنية بـ ٣٦٥ يوما .

وأيا كانت وجهات النظر في تفسير أصل السنة المدنية المصرية ،فان هـذه المعلومات تساعد المؤرخ بعد دراستها ومقارنتها بالحقائق الفلكية الحديثة على التوصل الى تقدير الزمن الذى حكم فيه الملوك الفراعنة أثناء العصر التاريخى . ولا تخلو هذه الطريقة بداهة من بعض القصور لانها لاتوصلنا احيانا الى تقاويم محددة وأنما الى تقاويم

محددة وانما الى تقاويم تقريبية فقط . ومع ذلك فهى ذات فائدة كبيرة في محاولة التوصل الى التواريخ الحقيقية .

وبفضل الطرق التقويمية الزمنية يستطيع الباحث التوصل الى تقدير عمر الادلة الأثرية ، وتحديد عصورها ، وأزمنة الحضارات التى تنتمى اليها هذه الآثار .

٢ — طريقة (قياس كربون ١٤ المشع) Radiocarbon Dating

هذه الطريقة هى أحدث الطرق العلمية لتقدير أعمار بعض الأدلة الأثرية وبالتالى أزمنة الحضارات التى تنتمى اليها هذه الادلة . ونقول بعض الأدلة لأن هذه الطريقة لا يمكن اجراؤها الا على المواد العضوية فقط . وتقوم على نظرية شبيهة بتلك التى اشرنا اليها عند الكلام عن أسس التأريخ في علم الجيوكرونولوجيا . وتتلخص في أن النباتات تكتسب من اصطدام الاشعة الكونية (الصادرة من الشمس) بالغلاف الجوى (المحيط بتلك النباتات) وما يحدث من تفاعل بينهما ، تكتسب ذرات "كربون ١٤" المشع (أى وزنه الذرى ١٤) الذى يوجد في كل مادة عضوية بنسبة ثابتة " مع كربون ١٢ غير المشع .(١) ويمتص البشر بدورهم هذا الكربون عند ما يتغذون بالنبات أو الحيوان وعلى ذلك فكل مادة عضوية وكل شىء حي لابد أن يمتص كربون ١٤ المشع . وعند موت الكائن الحى (من النبات أو الحيوان) يتوقف دخول كربون ١٤ الى جسمه . ويبدأ كربون ١٤ الموجود في جسمه يتفكك مصدرا اشعاعاته الى الخارج . ويستطيع العلماء

---

(١) تتألف الأشعة الكونية من ذرات . وكل ذرة من هذه الاشعة تتكون من نواة (nucleus) والكترونات (electrons) محيطة بها سالبة الشحنة) وتتكون النواة من : أ) شحنات كهربية موجبة تسمى بروتونات (protons) . ب) شحنات متعادلة تسمى نيوترونات (neutrons) . وقد ثبت أن نيوترونات الكونية سرعان ما تتفاعل مع ثانى أوكسيد الكربون العادى الموجود بكثرة في الغلاف الجوى . وينتج عن هذا التفاعل كربون ١٤ أى وزنه الذرى ١٤ (مضافا اليه هيدروجين وزنه الذرى ١) . "كربون ١٤" الناتج عن هذا التفاعل ويحمل الصفة الاشعاعية (radioactivity) ويمتزج هذا الغاز بثانى اكسيد الكربون العادى (١٢) الموجود في الجو . وتنتقل الذرات الكربونية المشعة بدورها الى النبات =

قياس الكمية التى تفككت منه والكمية التى بقيت دون تفكك في الجسم العضوى. وذلك بأن ذرات كربون ١٤ هى نظائر مشعة . وللنظائر المشعة ما يسمى بفترة "نصف القيمة" أو "نصف الحياة" أى ان النظير المشع يطلق خلال فترة زمنية معينة اشعاعات تنقص معها قوته الاشعاعية الى النصف ،أى يصبح نصف المادة مشعا والنصف الآخر غير مشع . وبعبارة أخرى يتحول كربون ١٤ المشع بنسبة ٥٠ ٪ كل فترة معينة الى كربون ١٢ العادى غير المشع .

وقد ثبت ان فترة "النصف الحياة" بالنسبة لكربون ١٤ هى ٥٥٦٨ سنة ( بزيادة أو نقص ٣٠ سنة ) . فاذا كان لدينا أوقية كربون ١٤ داخل قطعة خشب فان هذه الاوقية تطلق اشعاعات ثابتة ،وبعد حوالى ٥٥٦٨ سنة تصبح نصف أوقية كربون ١٤ ، وبعد حوالى ٥٥٦٨ سنة أخرى تصبح ¼ اوقية ، وبعد حوالى ٥٥٨٦ سنة ثالثة تصبح ⅛ اوقية ... وهكذا دواليك . وتعتبر هذه الطريقة التى ابتكرها دكتور ليبى ( W. F. Libby ) — وهو من شيكاغو — عام ١٩٤٧ كشفا ثوريا في تحديد عمر المواد العضوية . وقد أستطاع هذا الباحث ان يصمم جهازا أو عدادا ،لقياس اشعاعات كربون ١٤ المتبقية في الاجسام العضوية كقطع الخشب والجلد والحبال وما اليها . وبذلك تمكن من تقدير الزمن الذى انقضى منذ أن توقف امتصاص هذه الاجسام العضوية لكربون ١٤ أى منذ موتها . وعلى ذلك فالنسبة بين كربون ١٤ المشع الى كربون ١٢ غير المشع تدل على مدى قدم أى مادة عضوية في الاثر المكتشف . وهذه الطريقة ، "طريقة قياس كربون ١٤" تسمح بتقدير عمر المواد العضوية في حدود الـ ٣٠،٠٠٠ سنة الماضية ،مع احتمال وقوع خطأ مداه حوالى ٢٠٠ سنة . وقد ادخل دكتور ارنولد ( من شيكاغو ) بعض تحسينات على هذه الطريقة فأصبح في الامكان التأريخ في حدود الـ ٤٤،٠٠٠ سنة الماضية مع احتمال خطأ لا يتجاوز ٣٧ سنة .

---

= الذى يعتمد في حياته على ثانى اوكسيد الكربون وبالتالى تنتقل الى الحيوان الذى يعيش على النبات . وعندما تنتهى حياة النبات يبدأ "كربون ١٤" في التحول التدريجى وبمعدل ثابت الى "كربون وزنه الذرى ١٢" فاقدا صفة الاشعاع .

٣ — طريقة التأريخ بحلقات الاشجار : ( Dendrochronology )
Tree – Ring Analysis

سبق الكلام عن هذه الطريقة . وعيبها انها لا تصلح الا في بعض مناطق محدودة .

٤ — طريقة تحليل رقائق الجليد : ( Varve-Clay Analysis )

كذلك اشرنا الى هذه الطريقة من قبل ،وهى كالسابقة محدودة الفائدة ولا تصلح الا في بعض مناطق بعينها .

وأما عن طرق التقويم الزمنى غير المباشرة أو النسبية فتشمل :

١ — طريقة دراسة الطبقات الاثرية : ( Archaeological Stratification )

تمتلىء المناطق الأثرية وعلى الأخص في الشرق الأدنى بنتوءات بارزة عن سطح الأرض تعرف أحيانا بالتلال وأحيانا أخرى بالاكوام أو التّبات . (١) وقد توجد احيانا مغطاة بقطع صغيرة أو كسر من الفخار ( الشقف ) . (٢) وقد لفتت هذه الأكوام نظر العلماء فاتجهوا الى التنقيب فيها عن الآثار قبل أى امكنة أخرى . (٣) وقد تكونت هذه كنتيجة طبيعية لسكنى جماعة بشرية في منطقة ما لمدة طويلة أو قصيرة ، وربما تعاقبت على سكناها عدة جماعات بشرية في أوقات مختلفة . وكان الانسان قديما كشأنه حديثا في بعض قرى الشرق يبنى بيته من الطوب النىء ( اللبن ) على اساس من الحجر . وبمرور الزمن كان الطوب النىء يتفتت ويتحول الى تراب ،أو قد يضطر الى هدمه لسبب أو لآخر . فكان الانسان القديم يقذف بالقمامة والنفايات

---

(١) تل أو كوم او تبة معروفة في العربية . وتستخدم حتى في اللغات الأوروبية كما هى أى كمرادف لكلمة ( mound ) في الانجليزية على سبيل المثال . وفي آسيا الصغرى(الأناضول)يسمى الاتراك مثل هذه التلال أو الاكوام : ( Hüyük )

(٢) ترجع كثرة الفخار Pottery الى كثرة استعمال الأوانى الفخارية في العالم القديم . وتسمى هذه القطع أو الكسر بالشقف . وتستخدم كلمة ostraca ( وهى كلمة يونانية قديمة ) للدلالة عليها . وعثرنا في مصر على الأخص على الآلاف من هذه الكسر ،وكثير منها مدون عليه كتابة بالهيراطيقية أو الديموطيقية من عصر الفراعنة أو باليونانية من عصر البطالمة والرومان والبيزنطيين ،وقد امدتنا بمعلومات وفيرة عن الضرائب بوجه خاص .

(٣) تسمى عملية التنقيب أو الحفر ( التنقيبات أو الحفائر ) في الانجليزية excavations وفي الفرنسية fouilles وفي الالمانية Ausgrabungen وفي الايطالية scavi .

والأوني الفخارية المكسورة أو المستغنى عنها قرب بيته . وكانت تتكدس كلها مع الاتربة في اكوام الى حد أن مستوى سطح الأزقة كان يرتفع احيانا عن مستوى الأرض فينسد باب البيت . وعندئذ كان صاحبه يضطر الى هدمه وبنائه من جديد فوق موضعه الأصلي حتى يتيسر له دخوله . كان الانسان القديم اذن - في كثير من قرى مصر والشرق الأدنى بوجه عام - لا يكلف نفسه عناء ازالة التراب أو الانقاض المتخلفة عن الهدم أو التهديم ، وانما كان يسويّها ويبني بيته الجديد فوقها مباشرة . وقد يهجر المكان لسبب أو لآخر . ويأتي انسان غيره فيهدم البيت القديم ويبني جديدا مكانه . وبتكرار ذلك خلال عدة أجيال يتكون تل أوكوم تحتوي طبقاته المختلفة ( strata ) (١) على انقاض البيوت وكسر الفخار والحلي والخرز وقطع من الأسلحة وبقايا الطعام وغيرها ذلك من الادوات .

ويقوم العلماء بدراسة هذه الآثار المختلفة الموجودة في الطبقات المتتابعة وقياس سمك هذه الطبقات ( المحتوية كل منها على آثار متقاربة الشكل والصنع ) أي قياس مدى بقاء الانسان فيها واستقراره بالمنطقة آخذين في الاعتبار مختلف العوامل البيئية والاقتصادية والسياسية التي يحتمل أن تكون قد اثرت على بقاء الجماعة البشرية فيها اورحيلهم عنها . وقد لوحظ أن اغلب الادوات المنزلية قديما كانت مصنوعة من الفخار أي كان اغلبها عبارة عن أوان واوعية وقدور واقداح فخارية . وبدراستها يمكن تأريخ الآثار الأخرى الموجودة معها . وبفحص نوع الفخار وطريقة صناعته ودرجة اتقانه واسلوب زخرفته يمكن التمييز بين طبقة اثرية وأخرى لأن كل عصر كان له طريقته في صناعة الأشياء وله اسلوبه الفني وذوقه وثقافته .

هذه الدراسة " الطباقية " اذن تساعد المؤرخ على التعرف بصورة نسبية على مدى عمر هذه الحضارة أو تلك من محتوى طبقات هذه الاكوام أو التلال . ومن ثم يستطيع بالاستعانة بطرق التقويم الزمني الأخرى ، الوصول الى تأريخ هذه الطبقات وبالتالي الحضارات التي تمثلها .

---

(١) ينبغي التمييز بين طبقات الأرض الجيولوجية ( strata ) ( راجع ما تقدم ص ٢ ) وطبقاتها الأثرية التي تتحد بنوع الآثار ( وبطراز أسلوب صنعها وزخرفتها ) التي توجد فيها ( راجع ص ٦ فيما تقدم ) وتسمى الأخيرة ايضا في الانجليزية layers وكلمة ولفظ strata لاتيني ومفرده stratum .

وقد درج علماء الآثار على ترقيم الطبقات الاثرية من اسفل أى ابتداء من الطبقة السفلى التى تعلو مباشرة الأرض البكر ( التى تلى ظهور الماء ) . ففي تل باحدى قرى سوريا الشمالية اكتشفت عدة طبقات متوالية بلغ عددها ١٤ وتمثل عصورا أى حضارات مختلفة بادئة من طبقة يتبين منها تكوين القرى السورية الأولى صاعدة الى طبقة تبين بداية استخدام المعادن ،الى أخرى أعلى منها يتبين منها أوان فخارية تشبه فخار مصر في عصر الهكسوس . وفوقها طبقة يتبين منها التأثير الحيثى وأخيرا ( قرب القمة ) توجد طبقة تظهر فيها آثار كنيسة مسيحية (١) . وعثر علماء الآثار في تل حصارلك Hissarlik (شمال غرب تركيا ) — حيث كانت تقع طروادة قرب مدخل الدردنيل — على تسع مدن أى على تسع طروادات أغلبها اقدم من طروادة الحرب التى تتحدث عنها الياذة هوميروس،اذ يرجع تاريخها الى ما قبل ١٢٠٠ ق.م ،وهو العام الذى حدثت عنده الحرب الطروادية على وجه التقريب، بينما عثروا فوق طروادة هوميروس ( وهى المسماة الآن بطروادة رقم ٧ "أ") على طروادتين فوقها احدث منها ( طروادة ٨ وطروادة ٩ ) .

٢ — طريقة التأريخ التتابعي : Sequence Dating

ابتدع هذه الطريقة الأثرى الانجليزى فلندرز بيترى (Flinders Petrie) لتأريخ حضارات عصر ما قبل الاسرات في مصر ( أى ما يسمى بحضارة "نقادة " الأولى أو " العمرة "،وحضارة نقادة الثانية أو " جرزة " اى من ٤٠٠٠ — ٣٢٠٠ ق.م. ) .فقد كشف هذا العالم عن ٩٠٠ مقبرة في بلدة نقادة ( وكذلك في بلدتي هو والابحديــة بالصيد ( محافظة قنا ) . ولما كانت الأوانى الفخارية هى اكثر القطع الأثرية شيوعا في المقابر بجانب كثرة تنوع أشكالها وزخارفها وصناعتها الفنية ،فقد وجد بيترى في هذه الأوانى افضل مقياس لتأريخه التتابعى . وأخذ في تصنيفها الى مجموعات أو بالأحرى الى تسع " عائلات " ورمز الى كل عائلة بحرف هجائى يرمز الى وصفها في اللغة الانجليزية . فوضع — علي سبيل المثال — الحرف D رامزا به عائلة الأوانى المزخرفة برسوم Decorated ، ووضع الحرف R رامزا به الى عائلة

---

(١) يجد القارىء شكلا توضيحيا لتوالى هذه الحضارية بأحدى قرى شمال سوريا في كتاب : رشيد الناضورى " جنوب غربى آسيا وشمال افريقيا " ( بيروت ١٩٦٨ ) ص ٩٦ — ٩٧ .

الأوانى الخشنة ( Rough ) أى المصنوعة من طينة رديئة واحتراق ردئ ، وأما الحرف W فيدل على عائلة الأوانى ذات المقابض المموجة Wavy handles الخ ... وتضم كل مجموعة عددا كبيرا من الأشكال . ووضع بيترى الحرف الذى يمثل العائلة على كل اناء وبجانبه رقما لكل شكل لكى يعرف به داخل عائلته . وبذلك حصل على سجل واف بأوانى عصر ما قبل الاسرات في مصر .

وشرع بيترى بعد ذلك في محاولة ترتيب الأوانى زمنيا حسب الطراز ( Typology ) (١) ، فقسم أوانى المقابر التسعمائة الى خمسين مجموعة تبدأ برقم ٣٠ وتنتهى برقم ٧٩ . وهذه الارقام هى ما سماها بيترى بالتأريخ التتابعى . وأما الأرقام من ١ الى ٢٩ فقد تركها لما عساه ان يكتشف من مقابر اقدم من المقابر التسعمائة المشار اليها .

وقد ثبتت فائدة هذا الاحتياط من جانب بيترى ، اذ كشف برنتون ( G. Brunton ) وكيتون طومسون ( G. Caton- Thompson ) بعد ذلك عن " حضارة البدارى " التى دلت مقابرها على أنها أقدم من أى مقبرة وجدها بيترى أى اسبق من الرقم ٣٠ (١) وقد جعل بيترى الرقم ٧٩ معاصرا لحكم الملك " مينا " أى لحوالى سنة ٣٢٠٠ ق . م . وهذه هى الصلة الوحيدة بين تأريخ بيترى التتابعى وبين التأريخ العام . وأما الارقام ٧٩ — ٩٦ فقد ادخلها بيترى ضمن العصر التاريخى أى جعل الاسرتين الأولى والثانية تبدأ بالمرحلة ٧٩ وتنتهى بالمرحلة ٩٦ .

وقد لاحظ بيترى بحق انه من الصعب ربط ارقامه — فيما عدا الرقم ٧٩ — بالسنوات ، فالزمن ليس واحدا بين كل رقم وآخر . ولا يخرج تأريخه التتابعى عن كونه مجرد ترتيب مسلسل ، بمعنى أن هذه الأوانى تسبق تلك ، وهذه تأتى بعد تلك . ولا تعطى هذه الطريقة تاريخا ثابتا بل هى احدى الطرق التقويمية النسبية التى تساعد على ترتيب التطور الحضارى للأدلة الاثرية وعلى الأخص الأوانى الفخارية . وبذلك يتمكن الباحث من وضع كل حضارة في موضعها الصحيح بناء على ترتيبها المرتهن بدرجة تطور صناعتها الفنية وشكلها وحجمها ووظيفتها ... الخ .

---

(١) وعلى ذلك فقد وضعت "حضارة البدارى" ( حيث بدأ المصرى يستخدم النحاس وهى سابقة على عصر ما قبل الاسرات ) وضعت في التأريخ التتابعى بين ٢١ — ٢٩ .

ان النظرية التى يقوم عليها تأريخ بيترى التتابعى مقبولة في جملتها لأنهـا تتبنى على مبدأ مسلم بهوهو أن تقليد الشىء يكون أقل كمالا من الأصل ،ثم أن تقليد التقليد اكثر بعدا عن الاصل . وهكذا كلما تدرجنا في الحداثة ابتعدنا عن الاصل .

وبدى ان هذه النظرية لاتخلو من العيوب . فقد اتضح أنها لاتنطبق على الآثار الاخرى . وفضلا عن ذلك فان العمليات التى قام بها بيترى للوصول الى هذا التأريخ التتابعى معقدة وكثيرة العدد . كما أن الفحص الموضوعى والفنى مسألة تقديرية تختلف نتيجته باختلاف اذواق علماء الاثار ووجهات نظرهم . واتضح كذلك أن جدول الحضارات كما رتبه بيترى لا ينطبق الا على صعيد مصر الجنوبى . ولعل اخطر نقد وجه الى طريقة التأريخ التتابعى هو احتمال أن تكون بعض الاوانى في أى "عائلة" مجهولة الاصل أو مشتراه ولا تعرف المقبرة التى اخرجت منها . وهذا الشك يزعزع التأريخ التتابعى بل يقوض أساس التأريخ كله .

ومع هذا فلا احد ينكر عبقرية "بيترى" في ابتداع هذه الطريقة التى ساعدت - برغم عيوبها - على ترتيب الحضارات المصرية السابقة للعصر التاريخى ( عصر ما قبل الأسرات) وقسمتها الى مرحلتين رئيسيتين ،وان كان الشك قد ثار ( من جانب الآنسة باومجارتل)(١) حول التواريخ النسبية المعطاة للآثار في داخل كل مرحلة . ولقد حدث بالفعل تعديل في الترقيم بناء على الدراسات المقارنة واكتشاف بعض الأدلة الاثرية الجديدة (٢).

٣ - طريقة الدراسة المقارنة : Comparative Archaeology

تقوم هذه الطريقة على مقارنة الأدلة الاثرية المختلفة في المراكز الحضارية المختلفة . ويتطلب ذلك الماما واسعا بالتراث الاثرى في كل مركز على حدة ، وفي مراكز متفرقة حتى يمكن مقارنتها على أساس سليم والوصول منها الى تقدير معاصرة أو اسبقية

---

(١) E. Baumgartel, The Cultures of Prehistoric Egypt. Oxford, 1947

(٢) ابراهيم رزقانه "الجغرافية التاريخية" ( القاهرة ١٩٦٦ ) ص٣١٧ - ٣٥ ص٤٣٨ حيث يشرح نظرية "بيترى" شرحا مفصلا مشفوعا برسوم توضيحية كثيرة .

بعض الحضارات على الاخرى . وقد سبقت الاشارة الى وفرة الاوانى الفخارية فـــي المناطق الاثرية القديمة . وبمقارنة فخار منطقة بفخار منطقة أخرى يمكن تحديد الزمن الذى ينتسب اليه الفخار أى يمكن تأريخا تقريبيا اذا كان هناك تشابه بينهما أو كان هناك اثر للتقليد وما الى ذلك ، وبالتالى يمكن تأريخ الاثار الاخرى المكتشفة معــة في نفس الطبقة ( الاثرية ) وان وجود آثار مصرية في كريت وآثار كريتية في مصر - على سبيل المثال - لينهض دليلا على قيام علاقات أو تبادل بين البلدين في فترة أو فترات معينة . ويساعد - مع الاستعانة بالتقويم المصرى المعروف - على أن ننسب أثــرا أو حادثا الى سنة أو فترة معينة على وجه التقريب .

هذه الطرق ، طرق التقويم الزمنى ، المختلفة يعاون بعضها بعضا في التعرف على أزمنة الادلة الاثرية المختلفة . ولا يجب الاقتصار على طريقة واحدة منها بل مـن الضرورى الاعتماد على أكثر من طريقة حتى يكون هناك مجال للتأكد والتثبت من تأريـخ هذه الأدلة . وجدير بالملاحظة أن التقويم الزمنى هو الاساس الاول المنظم للتاريخ الانسانى . ذلك بأن التحقق من هذا التقويم يساعد على تأريخ الحضارات المحليــة تأريخا صحيحا من ناحية ، وعلى اثبات أو نفى وجود صلات حضارية أو سياسيـــة أو اقتصادية بين هذه الحضارات وغيرها من ناحية أخرى .

* * *

## الفصـــل الثالـــــث

### " الــزمن الحجــرى Stone Age"
### عصـوره وحضاراتـــــــه

بدأ الانسان حضارته بصنع آلات من الحجارة لاستخدامها في شتى الاغـــراض . ولدينا آلات من الحجارة ترجع الى الزمن الجيولوجى الثالث ( البليوسين ) ،وتوضـــع في مرتبة حضارية خاصة يطلق عليها تعبير " فجر العصر الحجرى " ( Eolithic ) .لكن الرأى الغالب ان هذه الأحجار الأيوليثية ليست من صنع الانسان وانما هى قطـــــع من الصوان ( flint ) تكسرت بفعل العوامل الطبيعية ،ولذلك تعرف "بالآلات الزائفة". واذا ما انتقلنا الى الزمن الجيولوجي الرابع ( البليستوسين ) نجد آلات حجريـــــة ترجع الى هذا الزمن ولا يختلف الباحثون في نسبتها الى الانسان اذ يظهر فــــــي صنعها أثر تفكيره وارادته وتعمده تشكيلها بشكل خاص لخدمة غرض معين او اغــــراض معينة .

ويقسم العلماء الزمن الحجرى بدوره الى عصور تبعا لعاملين :

١ ـــ نوع الأدوات والآلات ودرجة اتقان صنعها .
٢ ـــ الطبقة الأرضية التى وجدت فيها الآلات .

وبعبارة اخرى تبعا للحضارات التى ظهرت في ذلك الزمن على التوالـــــــى على يد انواع الانسان المختلفة سالفة الذكر فيقسمون الزمن الحجرى الى العصـــــور التالية :

| | |
|---|---|
| ١ ـــ العصر الحجرى القديم ( الباليوليثى ) (١) | Paleolithic |
| ٢ ـــ العصر الحجرى المتوسط ( الميزوليثى ) | Mesolithic |
| ٣ ـــ العصر الحجرى الحديث ( النيوليثى ) | Neolithic |

---

(١) وتكتب أيضا Palaeolithic وتتركب من كلمتين يونانيتين همـــــا palaios ( قديم ) و lithos ( حجر ) . وأما mesos فمعناها متوسط ،و neos معناها جديد أو حديث .

ولكل عصر من هذه العصور خصائص حضارية مختلفة تبعا لاختلاف الزمن والبيئة والانسان .وسنقتصر في هذا الفصل على دراسة "الحجرى القديم" والحجرى المتوسط".

## العصر الحجرى القديم (الباليوليثـــــي)

( ٤٥٠٠٠٠ — ١٢٠٠٠ )

يعود العلماء فيقسمون العصر الحجرى القديم وحده الى العصور الفرعيـــة التالية :

ا — الحجرى القديم الأسفل Lower Paleolithic

ب — الحجرى القديم الأوسط Middle Paleolithic

جـ — الحجرى القديم الأعلى Upper Paleolithic

ويشمل العصر الحجرى القديم ست حضارات اطلقت عليها اسماء فرنسية تبعــا لاسماء الاماكن التى وجدت فيها أهم نماذجها . ومن هذه الحضارات اثنتان نشأتــا في العصر الحجرى القديم الأسفل وهما الحضارة الايفيلية ( او الشللية ) والاشوليــة ، وواحدة في القديم الاوسط وهى الموستيرية ، وثلاث ظهرت في القديم الأعلى وهـــى الاورينياسية ، والسوليترية ، والمجدلينية :

### أ — العصر الحجرى القديم الأسفل : ( ٥٤٠٠٠٠ — ١٢٠٠٠٠ ق٠م٠ )

حاول الانسان منذ ظهوره ان يغزو بيئته واستعان في ذلك بما وجده جاهــزا من مواد طبيعية . واذا كان تطوره الجسمانى بطيئا فقد كان تطوره الثقافي اســرع خطوا . لقد بدأت تظهر له حضارة او بالاحرى ثقافة ( Culture ) تتمثل في معرفـــة محدودة وهى معرفة صناعية بعض ادوات وآلات من المواد الطبيعية الخام ولا سيمــا الحجر وذلك لاستخدامها في اغراض معينة في مقدمتها توفير الغذاء — وهو أول مطلب للانسان — ثم الكساء والمسكن وهما في مرتبة واحدة من حيث ضرورتهما والدفـــاع عن النفس ضد الحيوان أو ضد اخيه الانسان . لقد صنع الانسان اولى ادواتـــــه — على ما يبدو — من المواد النباتية كفروع الأشجار واوراقها . لكنه وجد انهـــا هشة فاستخدم الاصداف لصلابتها كآلات قاطعة . لكنه سرعان ما ادرك انها لا تحقق كل اغراضه فهو مضطر الى استخدامها في شكلها الطبيعى ، ويصيب العطب حافاتهــا

فتصبح مثلمة ،ثم هى ليست في متناول يده في كل مكان . وتلفت حوله مرة أخرى فوجد في الحجارة مادة تصلح لأغراض كثيرة وتقبل التشكيل الى اشكال عديدة ،هذا فضلا عن صلابتها ومتانتها . وكانت اقدم الآلات الحجرية عبارة عن تقليد لأشكال الاصداف . وسرعان ما اصبح الحجر مادة عالمية لصناعة الآلات وبلغ من تقدير الانسان لقيمة الحجر ان اتخذ منه في بعض الأماكن وثنا يقدسه ،ولعله رأى بعض الحجارة تسقط من السماء فاعتبرها من مصدر الهى وعبدها ( مكة ودلفى وفريجيا وداكوتا )؛ وفي الوقت الذى ازدهرت فيه صناعة الآلات الحجرية اقام الانسان بجانبها صناعة عظمية وأخرى خشبية تخدم بعض الأغراض الدقيقة التى لا يصلح لها الحجر تمام الصلاحية . وتعتبر الفترة التى صنع فيها الأنسان آلاته من الحجر مع بعض العظم والخشب مرحلة حضارية خاصة تسمى العصر الحجرى القديم — ذلك لأن مصنوعات الأنسان من عظم ( وقرون وعاج ) وخشب ( جذوع الشجر ) تعرضت للبلى بينما بقيت مصنوعاته الحجرية بدون تغيير يذكر . وآلاته الحجرية هى أكثر مخلفاته انتشارا . ومن ثم كانت هى اهم دليل على نوع حضارة الأنسان البدائى وعلى مراحل تطورها . ونتخذها اساسا لتقسيم ذلك العصر الى عصور فرعية . في الحق أن الآلات الحجرية هى أهم ما خلفه الانسان قبل عصر استخدام المعدن . ومن ثم تظل الحجارة عنوانا على حضارته ودليلا لا ينقض على مدى تقدمه . لقد ظلت الحجارة هى المادة الخام الرئيسية في صناعة الآلات قرابة نصف مليون سنة . وتظل الحجارة ( بشكلها وطريقة صناعتها ) هى وسيلتنا الأولى في تقسيم العصر الحجرى القديم الى مراحل حضارية الى ان تظهر صناعة الفخار من الطفل في العصر الحجرى الحديث ( النيوليثى ) فنستعين به بدلا من الحجارة في عمل التقسيمات الحضارية .

وقد وجد الأنسان ان اصلح الصخور لصناعة الآلات هو حجر الظّران أو الصوان ( flint ) فهو اكثرها قابلية للتشكل المنتظم في حد قاطع او طرف مدبب كما انه اكثرها انتشارا في الطبيعة . وترجع افضلية الصوّان الى وحدة تركيبه . وقد جعلته هذه الخاصية اسهل في التشقق الى شظايا من أنواع الصخور غير وحيدة التركيب . ويأتى بعد الصوان في الأفضلية الصخور الكوارتزية والبازلتية . لكن الصوان لم يكن الصخر الوحيد الذى استخدم لهذا الغرض لانه رغم كثرة انتشاره لا يوجد في كل جهات العالم التى عاش فيها الانسان القديم . ففي بعض جهات كشرق افريقيا ( كينيا ) والبحر الايجى ( جزيرة ميلوس ) ووسط اوروبا استخدم

حجر الاوبسيديان ( obsidian ) ،وهو صخر بلورى أسود لامع وحيد التركيب كالصوان ،وينتج عن النشاط البركانى . وهو في الحقيقة نوع من اللافا . وكثيرا ما وجدت الآلات المصنوعة من هذين الحجرين ــ الصوان والاوبسيديان ــ بعيدة عن اقرب موارد مادتهما الخام بمئات الأميال مما يدل على تقدير الأنسان القديم لخواصهما وادراكه لافضليتهما في صنع الالات على سائر الأنواع الأخرى من الحجارة ، ويشير الى قيام التجارة فيهما على نطاق واسع يثير دهشة الباحث الحديث ؛

ولم تكن المادة الحجرية مقصورة على الصوان والاوبسيديان . بل استخدم الانسان الصخور الكوارتزية والبازلتية كالديوريت ( diorite ) والكالسيدونى ( chalcedony ) ،والجاديت ( jadeite ) والجرانيت في الجهات التى يتعذر فيها الحصول على الصوان .

لكن بطول التجربة وجد ان الصوان مادة اكثر ملاءمة من غيرها لصناعة الالات بسبب دقة حبيباتها ووحدة تركيبها حتى لتقترب في ذلك من المعدن ،ولذلك يسهل تشقيقها في اى اتجاه بسهولة بواسطة الضرب او الضغط لاسيما وانه منتشر في الطبيعة ،ويوجد اما في شكل عروق ( صحائف متصلة متماسكة ) في الطبقات الجيرية او الطباشيرية . اى في طبقات ارساب اولى أو في شكل عقد في طبقات ارساب ثانوى تم بواسطة احدى عوامل النحت والنقل والأرساب . ومن العسير تعريف ماهية الصوان تعريفا وافيا . لكن يمكن القول بأنه عبارة عن سيليكا ( لبنية اللون ) هيدراتية تحتوى على نسبة متغيرة من الماء مختلطة بها دون ان تتحد معها .

ويتعرض الصوان للانكسار والتشظية سواء بقوة الطبيعة او بيد الأنسان .ذلك ان الصوان يتمدد بالحرارة وينكمش بالبرودة . ولكنه موصل ردىء للحرارة بمعنى ان السطح وحده هو الذى يتأثر بتغيير الحرارة والبرودة . وأما قلب ( نواة )الكتلة الصوانية فلا يستجيب للانكماش والتمدد اللذين يتعرض لهما السطح . وينتج عن هذا تشقق السطح وانفصال شظايا منه . ويكثر هذا النوع من الشظايا في الطبيعة حتى لتبدو كأنها آلات من صنع الأنسان . غير انها تعتبر آلات زائفة . لقد اصبح في الامكان بعد تقدم دراسة صناعات ما قبل التاريخ التفرقة بين الانكسارات

الصدفية او الحرارية ( وهى اعم الانكسارات الطبيعية ) التى تنشأ بفعل العوامل الطبيعية وبين الانكسارات التى تحدث بفعل الانسان ،والتمييز بين الشظايا الطبيعية والشظايا البشرية اى التى هى من صنع الانسان سواء بواسطة الضرب بمطرقة ( خشبية او حجرية ) أم بواسطة الضغط وهما النوعان الرئيسيان من التشظية ( أى فصل الشظايا عن نواة الكتلة الصوانية ) . كذلك قد تتعرض الآلة الصوانية للتآكل والتلف بسبب عوامل التعرية المختلفة كالرياح المحملة بالرمال او الانهار الجارية او الثلاجات ،فهل يعتبر تآكل الآلة دليلا على قدمها ؟ الواقع ـ كما ذكرنا من قبل ـ ان الآلات الصوانية الجديدة المظهر قد تكون هى القديمة فعلا ولكنها احتفظت بجدتها لانها وقعت في طبقة طينية فظلت بمنجى من عوامل التعرية المختلفة ،بينما الآلات القديمة المظهر قد تكون هى الحديثة فعلا ولكنها وقعت في مجرى نهر فحملها التيار وجعلها تتدحرج في المجرى وتحتك بالحصباء والرمال فأدى ذلك الى تآكل ونعومة حافاتها الحادة وانفصالها بوجه عام . وتؤخذ آثار التدحرج في الآلات الصوانية دليلا على انها منقولة بعوامل طبيعية من مكانها الأصلى الذى صنعت فيه ،أو قد تقع الآلات الصوانية في طريق نهر جليدى فيجرفها أمامه ويخدش سطحها وتتغير معالمه الأصلية ،او قد تتعرض للرياح المحملة بالرمال الصحراوية فيتقشر سطحها وينعم بسبب تعرضه الطويل للرمال التى تذروها الرياح . وثمة تغير طبيعى آخر يطرأ على الصوان وهو التلون .ان الصوان في حالته النقية لا لون له ولكنه يتلون تلونا باطنيا بسبب احتوائه على بعض المواد الغريبة فيكون اسود اللون اذا احتوى على مواد فحمية كما يكون لونه رماديا او عسليا تبعا للمواد الغريبة الأخرى . كذلك قد يتعرض الصوان للتلون السطحى اذ وجد في أى ارساب جيولوجي . ويحتوى كل ارساب جيولوجي على تكوينات معدنية او كيماوية . وكثير من هذه التكوينات قابل للذوبان في الماء . فاذا وجدت قطعة من الصوان في ارساب من أى نوع ( عضوى او رملى أو حصاوى أو طفلى ) به بعض الرطوبة فان هذه القطعة الصوانية تتكون بالوان كالأحمر والاسمر والاخضر والاصفر بسبب تعرضها لمحلول كيماوى أو معدنى . ذلك ان سطح الصوان يصبح ساميا فيمتص الاملاح المعدنية من هذه التكوينات الملامسة له من رمل او حصى او طفل او نبات فيتلون بالوانها . ويضاف الى ذلك تعقيد آخر هو ان الصوان الأسود الذى يتعرض للتلون يكتسى سطحه بطبقة بيضاء تكسب القطعة كلها لونا شبه أزرق . وللصوان قشرة جيرية تقيه التقلبات الجوية فاذا زالت القشرة وتعرض الصوان للعوامل الجوية لأنه كان ظاهرا على

سطح الأرض او تعرض لمياه المطر المتسرب الى باطن التربة لأنه كان مدفونا فيها ،فان سطح الصوان في هاتين الحالتين يتعرض لتغير كيماوى يؤدى الى تغير لونه ،ويظل باطن الصوان محتفظا بلونه الاصلى . ولقد ذكرت أن الصوان يتكون من سيليكا وماء . وفي بعض الظروف يتبخر الماء من الطبقة السطحية لقطعة الصوان فتصبح هذه الطبقة مكونة من سيليكا فقط وبذلك يختلف لونها عن لون قلب قطعة الصوان التى ما زالت محتفظة بمائها . وهناك نوع من التلون لا يكتسب فيه الصوان لونا واحدا بل يكون ذا بقع متعددة الألوان ( ارقش ) .وبمساعدة التلون ومعرفة اللون الذى يعطيه كل معدن يمكن ارجاع قطعة الصوان المكتشفة على السطح الى الطبقة الجيولوجية التى اخذت منها كما يمكن تصنيف الآلات الصوانية الى الوانها المختلفة وارجاع كل لون الى منطقته الاصلية . وتتخذ درجة التلون عاملا مساعدا لتحديد عصر الآلات الصوانية بالاضافة الى العوامل الأخرى . لكنها وحدها عامل غير موثوق به لأن طبيعة التلون ودرجته تتوقفان على ظروف كثيرا ما تكون عرضية .

بهذه المقدمة نكون قد مهدنا للكلام عن الزمن الحجرى عصوره بادئين بالعصر الحجرى القديم الذى ذكرنا انه ينقسم ايضا الى فترات أو عصور فرعية ثلاثة : أسفل واسط واعلى . ولنقصر الحديث اذن عن العصر الحجرى القديم الأسفل ( Lower Paleolithic ) :

كلمة اسفل هنا تعنى الأقدم حيث أن الآته المصنوعة غالبا من الصوان قد عثر عليها في الطبقات الأرضية السفلى ،وهذه بداهة اقدم من الوسطى والعليا . هذا العصر امتد ــ كما ذكرنا ــ من حوالى سنة ٥٤٠٫٠٠٠ الى سنة ١٢٠٫٠٠٠ . وقد ظهرت فيه حضارتان هما :

أ ــ <u>الحضارة الابيفيلية</u> : Abbevillean Culture ( ٥٤٠٫٠٠٠ ــ ٤٥٠٫٠٠٠ ) .

سميت كذلك نسبة الى أبيفيل ( Abbeville ) وهو مكان بحوض نهر السارن الى الشرق من باريس . وكانت الى وقت قريب تسمى بالحضارة الشيلية ( Chellean Culture ) نسبة الى شيل ( Chelles ) ،وهى بلدة قريبة من ابيفيل . ولذلك تسمى هذه الحضارة احيانا بالابيفيلية ــ الشيلية .

ب — الحضارة الأشولية: Acheulian Culture[(١)] ( ٤٥٠٠٠٠ — ١٢٠٠٠٠ ق٠م٠ )

سميت كذلك نسبة الى سانت اشول ( St. Acheul ) وهى أحدى ضواحى مدينة اميان بحوض نهر السوم (٢) في شمال فرنسا .

وجدير بالذكر انه قد تفرعت من هاتين الحضارتين حضارات او بالأحرى كان لهما وجوه تحمل اسماء أخرى تبعا لاختلاف المناطق او الانماط .

وترتبط هاتان الحضارتان بالنوع الأول من الأنسان القرد منتصب القامة ، وان كان من الأفضل عدم الربط بين التقاليد الحضارية وبين نوع معين من الأنسان . فقد توصل انسان ذلك العصر الى صنع آلات من الصوان لسد حاجته الاساسية الى الطعام ، والدفاع عن نفسه وكانت وسيلته للحصول على الطعام هى صيد الحيوانات وجمع الثمار ، واستخراج جذور النباتات الصالحة للأكل من الأرض . هذا فضلا عن ادوات أخرى من الحجر ايضا لازمة لتكسير عظام الحيوانات ، وقطع لحمها ، وسلخ جلودها ، أو لقطع فروع الشجر ، واسقاط ثماره . وكان الانسان لا يزال جامعا للطعام ( food- gatherer ) ومستهلكا له ، ولم يكن قد اصبح بعد منتجا للطعام ( food - producer ) . وتتميز أغلب الآت هذا العصر بانها كانت تصنع من قلب اى من نواة كتلة الصوان بمعنى ان الأنسان الأول كان يزيل ما يستطيع ازالته من شظايا ( flakes ) كتلة الصوان ويترك النواة ( core ) كما هى لتكون هى الألة المطلوبة ثم يكتفى بشطف ( chopping ) النواة من طرفها ليجعل لها حافة حادة قاطعة ، وان ظلت الجوانب متعرجة غير منتظمة . هذا العصر اذا يتميز بالآلات الصوانية المصنوعة من النواة وليس من الشظايا ، ولذلك تسمى الآته الحجرية بآلات النواة ( Core implements ) وصناعته باسم صناعة النواة (Core technique) . وأهم آلة حجرية في ذلك العصر وأكثرها انتشارا هى المسماة خطأ بالفاس اليدوية ( hand - axe ) لكنها في الحقيقة لم تكن سوى كتلة من الصوان يراعى عند اختيارها ان تكون لها قاعدة مناسبة لقبضة يد الأنسان وملساء لا تؤذى كفه ، ثم بشطف

---

(١) من الفترة غير الجليدية أى الدفيئة بين جونز ( Gunz ) ومندل ( Mindel ) الى الدورة الجليدية رس — فيرم ( Riss- Würm ) .

(٢) ينبع السوم في الشمال ويتجه الى الشمال الغربي نحو القنال الأنجليزى .

بشطب طرفها ليكون لها حافة قاطعة تساعده على استخدامها في شتى الأغراض لأن التخصص في صناعة الآلات لم يبدأ الا في العصر الحجرى القديم الأعلى . وتسمى هذه الآلة الصوانية في الانجليزية ( hand - axe ) وفي الفرنسية ( coup - de- poing ) (١) وفي الالمانية ( Faustkeil ) ولذلك يسمى طراز صناعتها احيانا بطراز " قبضة اليد " . وفي الحضارة الابيفيلية – الشيلية كانت الآلات الحجرية بوجه عام مصنوعة بطريقة فجة وليس لها اشكال خاصة متميزة ، ومن بينها المكاشط ( scrapers ) والشواطير الثقيلة ( s pokeshove ) ، والمثاقب ( broer ; point ) ، وهي مشذبة من وجه واحد . ومن أهمها – كما ذكرنا – الفأس اليدوية ، وهي مشذبة بطريقة فجة من الوجهين ومن ثم تسمى آلاتها احيانا " بذات الوجهين " ، وشكلها كالكمثرى أى لها طرف مدبب وآخر مستدير ، والحافة غير منتظمة أى متعرجة او متموجة .

ولا تختلف الحضارة الاشولية عن الابيفيلية الا من حيث الدرجة بمعنى ان صناعة آلاتها الحجرية تطورت فاصبحت ادق وامهر ، ومظهرها أجمل واكثر تناسقا ، وبعضها اصغر حجما . واشكالها اكثر تنوعا ، فالفأس اليدوية اصبحت تشبه اما الكمثرى أى ذات قاعدة كروية وطرف مدبب أو تشبه بيضة النعام ( ovate ) أى اقرب الى الاستدارة في القاعدة والطرف الآخر او ذات شكل سطح ( cleaver ) ، وهو شكل كان نادرا في اوروبا ومنتشرا خارجها ، ولا يصلح الصوان في صناعته بل حجر آخر كالكوارتز (١) ، وأما المكاشط فاصبح بعضها ذات حواف منتظمة الاستدارة واطراف مدببة مستدقة . واصبح شكل الشواطير بيضاويا او مربعا ذا حواف متعرجة . ومع هذا فان الرأى يتجه الآن الى اعتبار الحضارتين حضارة واحدة من عدة وجوه .

ويبدو ان الحضارة الابفيلية – الاشولية برغم اسمها قد ظهرت أول ما ظهرت في افريقيا وحول الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وامتداده جنوب البحر الاسود . وكانت تتميز – كما ذكرنا – بالفأس الحجرية اليدوية . ثم انتقلت تقاليد هذه الحضارة بالهجرات الى اوروبا : شمال فرنسا وجنوب انجلترا . وقد عرفت هناك في فترة تالية باسم الحضارة الكلاكتونية Clactonian Culture ( نسبة

---

(١) أما الفأس اليدوية ذات الشكل الشبيه بالقلب ( cordate - cordiform ) فلم تظهر الا في العصر الحجرى القديم الأوسط ( الموستيرى ) .

الى Clacton-on-Sea في منطقة اسكس Essex بانجلترا ) . وهى حضـــارة الاتها الحجرية مصنوعة من شظايا الصوان لا من النواة ،وقد جاء بها قوم مهاجـرون من اوراسيا حلوا محل اصحاب الحضارة الأبفيلية في اوروبا . ولا نعرف اذا كان اصحاب الحضارة الكلاكتونية قد أثروا في اصحاب الحضارة الاشولية هناك ام تأثروا بهم . وأما في جنوب شرقى آسيا وشرقها حيث كان يسود انسان جاوه وانسان الصين فقـــد نشأت حضارة مختلفة في صناعتها عن صناعة الفأس اليدوية وأقل تقدما منها وتعــرف الآتها الحجرية باسم الات الشطف ( Choppers & chopping tools ).

وجدير بالذكر انه في المرحلة الأخيرة من العصر الحجرى الأسفل ظهـــرت في اوروبا طلائع حضارة تعتبر ارهاصا لحضارة العصر التالى وهو الحجرى القديـــم الأوسط . وتعرف باسم الحضارة الليفالوازية ( Levalloisiam Culture ) نسبـــة الى ( Levallois-Perret ) احدى ضواحى باريس . وتجمع هذه الحضارة بيـــن مظاهر الحضارة والاشولية والحضارة الموستيرية التالية . وقد عاشت مع الحضـــارة الاشولية المتأخرة جنبا الى جنب فترة من الزمن وتأثرت كل منهما بالأخرى . وانتشرت من غرب اوروبا الى وسطها وشرقها . ومن اوراسيا انحدرت عن طريق فلسطين الـــى شمال شرق افريقيا ووسطها حتى تنجانيقا . كما انتشرت في مصر حتى الواحـــات الخارجة . وفي رأى بعض الباحثين ان اصحاب الحضارة الليفالوازية هم انفسهـــم اصحاب الحضارة الأشولية لكن الأرجح انهم كانوا مختلفين عنهم ،وان حضارتهـــم — هىوالحضارة التايسانية ( Tayacian Culture ) المشابهة التى نشأت بجوارهـــم في وسط اوروبا وشرقها وبلغت فلسطين — وهى ايضا حضارة شظايا ،ربما انحـــدرت من الكلاكتونية وساعدت على ظهور حضارة انسان نياندرتال المسماة بالموستيريـــة في العصر الحجرى القديم الأوسط . وتتميز الحضارة الليفالوازية بصناعة الالات مـــن شظايا الصوانلامن النواة . ومن بينها الآت حجرية قصيرة عريضة وأخرى طويلـــة رفيعة . لكن الفترة الأخيرة من هذه الحضارة تتميز باختلاط صناعتى الشظايا والنـــواة ، لأنها تحمل صفات مشتركة من كل من الصناعتين . وتتميز آلات الحضارة الليفالوازيـــة المصنوعة من النوى بشكلها شبه البيضاوى وأن أحد الوجهين مقبى ( محـــدّب ) بدرجة اكثر من الوجه الآخر ومن ثم فانه هذا الشكل يعرف باسم " نوى السلحفـــاة " ( Tortoise Core Technique ) .

ب — العصر الحجرى القديم الأوسط ( Middle Paleolithic ) ( ١٢٠٠٠٠ — ٧٠٠٠٠ ق٠م٠ ) (١)

كانت الحضارة السائدة في هذه الفترة هى الحضارة الموستيرية ( Mousterian Culture ) نسبة الى Le Moustier وهو مكان في حوض نهر دوردونى بجنوب فرنسا ) . وتتميز آلاتها الحجرية بأنها مصنوعة غالبا من شظايا الصوان وليس من النواة كالمكاشط الجانبية أى ذات الحافة القاطعة من جانب واحد، والسكاكين ذات الشكل المربع الاضلاع ،والمحتات ( المحكات ) ،والفوءوس اليدوية المألوفة من قبل . وأهم منها وأشيع هى الآلات المدببة او المدببات ( points ) التى كانت تستخدم كروءوس حراب أو أسنة رماح . وربما كانت هذه هى أقدم آلات ركبت لها يد . وتتميز الصناعة الموستيرية عامة بتشذيب ( تهذيب أو حرتفة ) الحافات القاطعة في الآلات بمهارة وبقصر هذه الآلات او دقة صنعها ،وتعدد اشكالها . كما أن بعض الأدوات مصنوعة من العظم والخشب .

ولم يكن الأنسان ،الذى تقترن به غالبا هذه الآلات ،وهو من نوع نياندرتال ، يعيش في العراء مرتحلا او متجولا بل كان يتكدس في الكهوف فأصبح جسمه اقل حجما وعضلاته اقل قوة ،واستتبع ذلك تغيير في حجم آلاته فصارت — كما ذكرنا — صغيرة ودقيقة . ومن ناحية أخرى ساعدت هذه الحياة الجماعية على تقدمه الاجتماعى والعقلى ،ومن المرجح انه كان قادرا على الكلام عارفا باللغة معرفة محدودة . ويسترعى الانتباه انه كان يدفن موتاه ،وهذه بداية لظهور الوعى الروحى . لعله — كما يستدل من بعض رسومه — بدأ يفكر في السحر ،وهو مقدمة لظهور الدين ،ومن الغريب انه رسم صورا وصنع تماثيل فجة لحيوانات ما قبل التاريخ لكنه عجز عن رسم صور لنفسه أو للانسان . لعل ذلك يرجع الى خوفه وتهيبه من الروح التى تسكن جنبيه . ولا تظهر رسوم الأنسان الا مع حضارة العصر الحجرى القديم الأعلى .

وعندما دهمت انسان نياندرتال طلائع جليد الدورة الجليدية الأخيرة ( دورة ڤيرم Würm ) هاجرت جماعات من هذا الأنسان من غرب أوروبا الى مناطق

---

(١) ظهرت في النصف الثانى من الفترة غير الجليدية الأخيرة ( Interglacial ) وعمرت حتى أوائل الدورة الجليدية الأخيرة ( ڤيرم ) .

اد فأكافريقيا عن طريق جبل طارق ومالطه وصقلية ،ونشأت بالتالى في شمال افريقيا حضارة موستيرية عرفت محليا باسم الحضارة المطرية (Aterian Culture) — نسبة الى بئر العطر في جنوب تونس — وقد تطور سن الرمح الموستيرى عند اصحاب الحضارة العطرية فأصبح سهما حقيقيا يتكون من شظية محرتفة الحافات بصفة عامة، والقاعدة بصفة خاصة . وتعتبر هذه الآلة المدببة ذات القاعدة المشابهة للسان أول دليل موثوق به على معرفة القوس واستعماله . وقد انتشرت هذه الحضارة شرقا الى ليبيا والى المنطقة الصحراوية المتاخمة لوادى النيل مباشرة وظهرت في مصر بالاقصر والعباسية والجبل الأحمر .

جـ — العصر الحجرى القديم الأعلى : ( Upper Paleolithic )(١)
( ٧٠٫٠٠٠ — ١٢٫٠٠٠ )

ظهرت في هذا العصر عدة حضارات اهمها ثلاث،وقد تسمى بغير الأسماء الآتية في مناطق غير اوروبا :

١ — الحضارة الأورينياسية : ( Aurignacian Culture )
٧٠٫٠٠٠ — ٤٥٫٠٠٠ق ٠م٠

وقد سميت كذلك نسبة الى كهف اورينياك ( Aurignac ) في حوض نهر الجارون الأعلى في جنوب غرب فرنسا .

٢ — الحضارة السوليترية : ( Solutrean Culture )
٤٥٫٠٠٠ — ٣٥٫٠٠٠ ق ٠م ٠

سميت كذلك نسبة الى كهف ( Solutré ) قرب ماكون بوادى نهرى الساءون — اللوار .

٣ — الحضارة المجدلينية : ( Magdalenian Culture )
٣٥٫٠٠٠ — ١٢٫٠٠٠ ق ٠م ٠

سميت كذلك نسبة الى ( La Madelaine ) في حوض نهر دوردونى بجنوب غرب فرنسا .

---

(١) يرجع الى الآب هنرى بريل H. Breuil ( ١٩٠٥ — ١٩٦١ ) فضل كبير في عمل التقسيمات الحضارة لهذا العصر .

وصانع هذه الحضارات وغيرها في ذلك العصر هو " الأنسان العاقل " الذى بدأ ينتشر ويسود في الأرض منذ ١٠٠٫٠٠٠ سنة واستأثر بالسيطرة عليها وحده بعد انقراض انسان نياندرتال تماما منذ ٥٠٫٠٠٠ سنة . وقد طرأ على صناعة الآلات في العصر الحجرى الأعلى تقدم سريع فأصبحت أدق ، وأخف وزنا ، وأكثرها تنوعا . والصناعة الرئيسية من الصوان في هذا العصر هي صناعة النصال ( blades ) حتى ليمكن أن تسمى حضارته " بحضارة النصال " مثلما سميت حضارة العصر الحجرى القديم الأسفل " حضارة النواة " ، والقديم الأوسط " بحضارة الشظايا " . وأهم الآلات في هذا العصر هي المكشط والمحت ( المحك ) ، والمنحت ( graver ) والسكين الخشن الظهر ومعظمها من النصال . واستخدمت للقطع او للسلخ أو لصنع وتشكيل أدوات من قرون الرنة أو لحفر النقوش والصور ونحت التماثيل . وأهم من ذلك أنه ظهرت في هذا العصر بواكير فن الكهوف ( Cave- Art ) كالنقش والنحت والرسم بلون واحد وعمل تماثيل من العاج وصناعة حلى كالعقود من الصدف . ويعتبر غرب اوروبا من أول المناطق التى ظهر فيها الفن التعبيرى للانسان . وأما عن النصال من الصوان فيبدو أنها بدأت أولا في منطقة جنوب غرب آسيا ( في الجهات الداخلية أو الخلفية للبحر الأبيض المتوسط ) ثم انتشرت من هناك نحو غرب اوروبا . وقد امتاز طابع حضارة العصر القديم الاعلى بالتعقد ، وسرعة الانتشار مما ادى الى قيام نوع من التجانس الحضارى بين عدة أماكن متباعدة ، ويذكرنا بذلك التجانس أو التشابه الذى تميز به طابع الخضارة الأبفيلية الأشولية في العصر الحجرى القديم الأسفل .

١ — الحضارة الأورينياسية : ٧٠٫٠٠٠ — ٤٥٫٠٠٠ ق٠م ٠

وفدت الى غرب اوروبا مع هجرتين احداهما من افريقيا والأخرى من آسيا والأولى أسبق من الثانية في الزمن . ومن أشهر آلات هذه الحضارة في مراحلها الأولى الآلات المدببة ذات السن المنحنى والشهيرة باسم ( Audi points )(١) والمكشط الصوانى ذو الأنف ، والمدببات العظمية التى تركب في يد أو عصا ، وهى ذات قاعد مستديرة مشقوقة .

وقد ثبت الآن أنه قد سبقتها الى الظهور في فرنسا حضارة تنسب الى شاتل بيرون ( Chatelperron ) وهى التى طرد اصحابها انسان نياندرتال من غرب اوروبا ، وتلت الحضارة الليفالوازية — الموستيرية هناك . وهى أيضا وافدة من

(١) أودى ( Audi ) كهف قرب شاتل برون في فرنسا .

( جنوب روسيا وسيبريا ) حيث كانت تعاصرها او تسبقهـــــا في الشـــرق الأدنى " حضارة الطابون " بجبل الكرمل . وأهم آلاتها الصوانية السكاكيـــن العريضة المثلمة على امتداد أحدى حافاتها . وتكثر بها ايضا المكاشط ذات الطرف وهى مصنوعة من النواة في الغالب ، والآلات ذات الطرف المحرتف الشبيه بالمزمـار ، والمحتات ذات الزوايا . ويقال الآن ايضا ان الحضارة الأورينياسية اعقبتها حضـارة متميزة عنها تماما تعرف بالحضارة الجرافيتية (Gravettian Culture) ، ويعتقـد انها هى حضارة شاتل بيرون في ثوب جديد لأن صناعة آلاتها تحمل صفـات متطورة من صناعة آلات شاتل بيرون ، فنجد ظهر آلاتها مستقيما وليس منحنيا كمـا كان ، لكنه ينحنى بميل فجائي الى موضع السن . وقد ترك أصحاب هذه الحضـارة المذكورة رسوما على جدران الكهوف . كما اشتهر اصحاب الجرافينية بتماثيلهـم النسائية الصغيرة المسماة بتماثيل فينوس ( Venus statuettes ) وهى مصنوعـة من ناب الماموث ( فيل بائد ) . ومن الجائز ان لهذه التماثيل علاقة بعبادة الأرض الأم ، ربة الاخصاب .

٢ — وأما عن الحضارة السوليترية ( ٤٠٠٠٠ — ٣٥٠٠٠ ق٠م٠ ) فهي حضارة محلية بمعنى انه ليس هناك ما يدعو الى الافتراض بانها وفدت مع هجرة مـن الشرق . وآلات هذه الحضارة مصنوعة أيضا من الشظايا ولكنها مصقولة في كل موضـع منها حتى لتبدو كأنها آلات رفيعة من النواة . والصناعة السوليترية هى من النـوع الذى يحتاج الى دقة وصبر طويل ، وتتميز بالتخصص التام بين الآلات فهـذه آلات للقتال ، وتلك آلات للقطع وأخرى للخدمات المنزلية . وبطبيعة الحال يمكـن تمييز هذه عن تلك من اشكالها . ويعم فيها نوع جديد من التشظية وهو عن طريـق الضغط (Pressure flaking) . ومثال ذلك النصال التى على شكل ورق الغـار (Laurel-leaf blades) ، ولو ان هذا لم يمنع استمرار التشظية بواسطة الطـرق ( Strike flaking ) . ويلاحظ ان النصال مشظاة من الوجهين بمهارة ، وهـى رفيعة وطولها ثلاثة اضعاف عرضها ، ومدببة من الطرفين ، وان كان احدهما أكثـر تسننا من الآخر . وقد تميزت هذه الحضارة في الفترة المتأخرة بنصال صغيـرة مدببة وبها حزّ جانبي واحد عند القاعدة ، وهى على شكل ورقة الصفصـاف ( Willow- leaf blades ) . وبذلك يبلغ فن تشظية الصوان في العصر الحجرى

القديم ذروته . ويلاحظ استمرار فن الكهوف في فترة الحضارة السوليترية . وقد اضمحلت هذه الحضارة عند نهاية فترتها . وعادت الحضارة الاورنياسية الى الظهور من جديد لكن في شكل او ثوب آخر باسم الحضارة المجدلينية .

٣ — الحضارة المجدلينية : ٣٥٫٠٠٠ — ١٢٫٠٠٠

هى اطول حضارات العصر الحجرى القديم الأعلى عمرا في غرب اوروبا ، اذ مكثت حتى نهاية عصر البليستوسين . وكان لها ست مراحل وتعتبر آلاتها المصنوعة من الصوان استمرارا للآلات الاورينياسية ولا تحمل من الخصائص السوليترية شيئا . ويلاحظ اختفاء تشظية الصوان بطريق الضغط . وفي اوائل هذه الحضارة تظهر آلات شبيهة بالآلات الاورينياسية كالمكشط والمخراز ( awl ) والنصل الخشن والمنحت ( graver ) الذى ظل أهم آلات أصحاب هذه الحضارة الذين استخدموه لنحت أدوات من القرون والعظام . ويتميز المنحت بأنه على شكل منقار الببغاء . لكن يلاحظ أن الآلات الصوانية اصبحت دقيقة الحجم بحيث أن طولها لا يتعدى ١٢ سم وعرضها ٣ سم . وتعتبر هذه الآلات الصغيرة والتى كانت الواحدة منها أو الأثنتان تثبت في يد من الخشب باكورة الصناعة المسماة " بالصناعة الميكروليثية " أو القزمية التى سوف تسود في العصر الحجرى المتوسط .

ولما كانت الحضارة المجدلينية في اوروبا هى حضارة جماعات من صيادى السمك والرنة ، فقد قلت بالتدريج الآلات المصنوعة من الصوان ، وكثرت الآلات المصنوعة من قرون الرنة ، والعظم ، والعاج ، وفي الحق ان مصنوعات هذه الحضارة من قرون الرنة وماشابهها هامة ومثيرة . ففي اواسط هذه الحضارة ظهرت حربة صيد الحيتان والأسماك الكبيرة ( harpoon ) ذات الصف الواحد من الأسنان ثم ذات الصفين من الاسنان . وتطور سن الرمح ( javelin point ) تطورا كبيرا ، وتنوع شكله وظهرت عصا ( من قرن الرنة ) كانت تستعمل لشد القوس وتسمى بعصا الرياسة ( Bâton de Commandement ) حيث كان يظن انها عصا يحملها رئيس الجماعة . وبعض هذه العصى مزخرف في طرفه بمقبض على شكل حيوان أو طائر . وانتشرت الابر المصنوعة من العظم والعاج . وكانت أول ابرة لها عين قد ظهرت في أواخر الحضارة السوليترية . وقد أصبحت صناعة الابر متقنة في الفترة الأخيرة من الحضارة المجدلينية .

وأهم من ذلك تطور الفن اذ يعتبر الفن المجدليني بمثابة قمة ازدهار فـــن الكهوف ( Cave-Art ) في العصر الحجرى القديم كله . ويظهر في شكل نقوش أو رسوم عادية ،وصور متعددة الألوان على جدران الكهوف وسقوفها وهى ما تعــــرف بالافرسك frescoes ،فضلا عن منحوتات بارزة وتماثيل . ففي الحضارة الاورينياسيـــة السابقة التى ظهر فيها الفن لأول مرة في عصر ما قبل التاريخ ،كانت الأشكال عبـــارة عن مجسمات أو بالأحرى نقوشا محفورة حفرا عميقا . وكانت الرسوم كروكيـــــــة أى تخطيطية ،والمناظر بروفيل أى جانبية ،وخالية تقريبا من أى تفصيلات . وكانـــــت الحيوانات المرسومة على جدران الكهوف دائما في وضع ثابت لا حركة فيه . وكـــان الفنان يرسم كل حيوان على حدة . ولم يستعمل سوى لون واحد برغم محاولاتـــــه الأولية في التظليل . وأما في الحضارة المجدلينية فقد اتسم الفن بالحركة والحيويـــة وصدق التعبير والعاطفة . فنجد الحيوانات مرسومة في اوضاع مختلفة متحركة كالمشـــى والجرى والعراك . وهى تصور في العادة بكل ارجلها الاربع،بل احيانا بحوافرهـــا مع بعض تفصيلات أخرى ، بل ان فنان الكهف المجدليني اصبح عند أواخر هـــذه الحضارة يرسم الحيوانات قطعانا لا فرادى . لقد بلغ فن التصوير ذروته باستخــدام عدة الوان في الرسم وتظليله ،ومزج هذه الألوان التى كان من بينها الأصفر والأحمـــر والأسود ،واستعين في تكوينها باكسيد الحديد والمنجنيز . واشهر مجموعة من الصور الجدرانية الملونة أو الافرسك ( frescoes ) هى التى اكتشفت في سقف كهـــــف التاميرا ( Altamira ) في البرانس بأسبانيا عام ١٨٧٩ ،وأثارت دهشة العالـــم كله . ومن بين الرسوم صور تمثل حيوان البسيون ( وهو حيوان بائد شبيه بالجامـــوس أو الثور ) والخنزير البرى . (١) وتليها المجموعة التى اكتشفت في لاسكو( Lascaux ) الدردوني بجنوب فرنسا عام ١٩٤٠ . وهي أقدم من الأولى زمنيا ( منذ ١٦٫٠٠٠ مضت ) .

وثمة ملاحظة عامة عن " فن الكهوف " . فقد لوحظ ان هذه الرسوم والصـــور والنقوش توجد على الجدران والسقوف في داخل الكهوف على اعماق بعيدة أو ارتفاعات شاهقة حتى ليصعب الوصول اليها في الوقت الحاضر . لابد اذن أن انســــان الحضارة المجدلينية قد توصل الى وسيلة تمكنه من الصعود الى مثل هذا الارتفـــاع ( ١٧ مترا ) ،والى معرفة اصطناع نور يضيء له اعماق الكهف المظلمة حتى يستطيـــع

(١) كذلك عثر على رسوم الافرسك ( الجدرانية ) في كاستيلـــــــو Castillo ( سنتاندر ) بأسبانيا أيضا .

انجاز اعماله الفنية . ولقد قيل ان هذه الرسوم ما هى الا زخرفة لتزيين الكهف الذى يقيم فيه هذا الأنسان . لكن يبدو أن الأمر كان أعمق من ذلك مغزى لأن هذه الرسوم — كما ذكرنا — توجد في الاجزاء الداخلية والعميقة من الكهف حيث لم يكن يقيم الأنسان اذ دلت مخلفاته على انه كان يقيم عند مدخل الكهف لا في داخله او في اعماقه حيث توجد الرسوم والصور. وعلى ذلك فلا مناص من التسليم بأن هذه الرسوم كانت — على الأرجح — لغرض سحرى أو دينى .

وأما عن تماثيل تلك الفترة فقد صنعها الفنان المجدلينى من الطين ( clay ) الموجود بأرض الكهوف، وهى تمثل حيوانات مختلفة . وكان يشكلها باطراف اصابعه أو بعيدان مدببة . واجملها تماثيل لحيوان منقرض يسمى بيسون bison ( وهو شبيه بالجاموس الامريكى buffalo ) وقد عثرنا عليها في منطقة اريج ( Ariege ) في جنوب فرنسا . وأغلب التماثيل هى لحيوانات ثديية من بينها الأنسان والبيسون المذكور، والحصان القديم، والغزال الأحمر، واقلها يمثل الأسد والضبع وكثير منها — على ما يظن — هو من قبيل الابتهال الى قوى الطبيعة من اجل زيادة القطيع ووفرته. ويلاحظ ميل فنان الكهوف — بوصفه صيادا — الى تصوير البيسون والرنة بوجه خاص، والى تصوير الاناث من الحيوان والأنسان أكثر من تصويره للذكور. لكن يلاحظ أيضا ندرة التماثيل النسائية الصغيرة ( Venus statuettes ) التى ترمز للاخصاب وتمتاز بها الحضارة الاورينياسية السابقة . وقد حلت محلها في الكثرة تماثيل الحيوانات المصنوعة من العاج . وغالبا ما نجد بهذه التماثيل ثقوبا مما يدل على انها كانت تعلق في الرقبة اما كحلية او تميمة لمنع المرض والحسد والأرواح الشريرة. كما أن بعض آلات هذه الحضارة — كما ذكرنا — كانت تزين بمقابض على شكل حيوانات وطيور، ومثال ذلك عصى الرياسة وقاذفات السهام . وأخيرا فقد كان انسان هذا العصر بجمع الحصى من الشواطىء ويرسم عليه بالألوان اشكالا مختلفة كالدوائر والخطوط الحلزونية ، والمتعرجة والمتموجة، والاشرطة، وعلامات شبيهة بالحروف الابجدية . ويبدو أن هذا الحصى المنقوش (painted pebbles ) لم يكن سوى تسويدات للتمرين على الرسم بدليل أنه يوجد عليه رسوم متداخلة أو متقاطعة ( بعضها فوق بعض ) .

ويطلق على فترة الحضارة المجدلينية اسم "عصر الرنة" لأن هذا الحيوان يكثر في اوائلها ويتوغل جنوبا حتى شواطىء البحر الأبيض المتوسط بينما يقل الغزال الأحمر بسبب اشتداد البرد . وفي الحق ان انسان هذه الفترة ( نوع شانسليد )(١)

---

(١) راجع ص .. فيما تقدم .

كان يعيش حياة قريبة الشبه من حياة الاسكيمو في الوقت الحاضر . لكن في اوائل هذه الحضارة ينعكس الحال ويكثر الغزال الأحمر مما يدل على ظهور الدفء . كذلك انتشرت في أواخرها الغابات لظهور الدفء أيضا .

الموطن الأصلي الذى نشأت فيه الحضارة المجدلينية هو جنوب غرب فرنسا وشمال اسبانيا . ومن هناك انتشرت الى عدة اقطار أخرى في اوروبا ليست ايطاليا من بينها . كما ظهرت حضارة مشابهة لهما في سيبريا ( وادى نهر ينيس Ienissiei ) . وكانت تقابلها في شمال افريقيا بعض حضارات ظهرت في أعقاب " الحضارة المطرية " عند أواخر العصر الحجرى القديم الأعلى ، وكلها حضارات نصال ، وأهمها :

أ — حضارة الدبّة ( Dabba Culture ) :

انتشرت في برقة . ويعتقد ان اصحابها وفدوا من الساحل الشرقي للبحر المتوسط .

ب — الحضارة الوهرانية ( Oranian Culture ) (١)

انتشرت على السفوح الشمالية سلسلة جبال أطلس وبخاصة في المغرب ويعتقد أن منشأها يرجع الى هجرة اسبانية حدثت بين عامى ٥٠٠٠ر١٥ — ٠٠٠ر١٢ ق . م . ) .

جـ — الحضارة القفصية ( Capsian Culture ) :

انتشرت على السفوح الجنوبية لجبال اطلس في مواجهة صحراء الجزائر وتونس . وترجع المرحلة الأولى منها الى حوالى عام ١٨٠٠٠ ق . م . وتتميز هذه المرحلة بنصال مقوسة ( Audi points ) تشبه الى حد كبير نصال حضارة شاتلبيرون في غرب اوروبا . وأما المرحلة المتأخرة منها وهى القفصية العليا التى انتشرت شمالا وشرقا على امتداد ساحل البحر المتوسط فكان من بين آلاتها ادوات حجرية صغيرة او ميكروليثية واضحة وهى تنتمى الى العصر الحجرى المتوسط الذى جاء في اوروبا عقب انتهاء الجليد .

---

(١) وتسمى أيضا بالحضارة الأيبيرية — المراكشية أى الأسبانية — المغربية .

وتنبغى الاشارة هنا الى ذلك الفن الصخرى الافريقى الذى ظهر في اواخر فترة الحضارة القفصية ويتمثل في صور ورسوم منحوتة في الصخور على امتداد الحافة الجنوبية لجبال اطلس . وفى هضبة الهجارة في الجنوب ،وفي انحاء متفرقة في جنوب طرابلس ،وهضبة تبسى والجلف الكبير ،وفي بلاد النوبة . ولهذا الفن الصخرى في اطراف الصحراء الافريقية صلة وثيقة بفن الكهوف في شمال شرق اسبانيا الذى كان معاصرا له ،وكذلك بفن الكهوف في بعض مناطق أخرى في غرب اوروبا .

## حضارات الشرق الادنى في العصر الحجرى القديم

ونختتم هذا العصر الحجرى القديم ( الباليوليثى) ،بكلمة موجزة عن المواطن التى كشفت فيها آثاره أثناء مراحله الثلاث بالشرق الأدنى القديم [(١)]. ومن المواقع

---

(١) ذكرنا من قبل (ص٣ — هامش ٢) ان الاكتشافات الجديدة في جنوب افريقيا ووسطها التى جرت منذ ١٩٢٥ ربما تؤدى الى العدول عن الرأى أو النظرية القديمة بأن جنوب شرقى آسيا (جاوه والصين ) كان هو الموطن الأول للانسان (القرد منتصب القامة ) ،وتدعم الاحتمال بأن يكون جنوب افريقيا هو موطنه الأول . لكن هذه الاكتشافات لا تزال قيد الدراسة ،ونتائجها ليست يقينية أو متفقا عليها من الجميع . وحسبنا الاشارة الى أنه قد اكتشفت بقايا هياكل لانسان يطلق عليه الآن اسم الاسترالى القرد منتصب القامة ( Homo Anstralopithecus )لمشابهته لانسان استراليا القديم ،وهو في الحقيقة قريب من البشريات ( hominidae ) اكتشفت في مكابانسجات ( Makapansgat ) وغيرها من المواقع حيث سمى بالانسان الزنجى ( Zinjanthropus ) أو الاسترالى الزنجى منتصب القامة. وحجم جمجمته صغير ( ٥٣٠ سم مكعب) . وأخيرا في خانق أولدوفاى ( Olduvai ) بتنجانيقا حيث اكتشفت بقايا هياكل عظيمة لانسان يسمونه الانسان الماهر في استخدام يديه ( Homo habilis ) ،يتراوح حجم جمجمته بين ٦٧٣ و ٦٨٠سم مكعب ويرجع تاريخه — وفقا لمكتشفه الدكتور ليكى (L.S.B. Leaky ) — الى مليون وسبعمائة وخمسين ألف عام مضى (١٫٧٥٠٫٠٠٠ )أى أقدم من انسان جاوه وانسان الصين .

وتشبه حضارة هذا الانسان سواء في الموقع الأول أو فى أولدوفاى حضارة الحصى المنقوش الملون ( Pebble Culture ) التى المعنا اليها من قبل . غير انه عثر في موقع ثالث وهو استركفونتين ( Sterkfontein ) على آلات وأدوات شبيه بآلات الحضارة الاشولية . ولكن الرأى يختلف فيما اذا كان هذا الانسان الزنجى منتصب القامة هو صانع ما وجدناه هناك من آلات. ويرى كثير من العلماء أنه لم يكن انسانا صانعا ( Homo faber ) بل انسانا — كما ذكرنا — ماهرا في استخدام يديه ( Homo habilis ) . وجرت اكتشافات في مناطق أخرى من افريقيا مثل كتانجا وكينيا ووادى نهر زامبيزى ،وفي فزان ومراكش في الشمال .

التى اكتشفت فيها آثار للانسان في هذه المنطقة وترجع الى " العصر الحجرى القديم الأسفل " نذكر العبيدية جنوب بحيرة طبرية ، " وجسر بنات يعقوب " مما يدل على قدم الحضارة بحوض نهر الأردن . وكذلك في " الطابون " بجبل الكرمل حيث عثرت الآنسة جارود (D.E. A. Garrod ) في " وادى المغارة " على بقايا هيكل عظمى لانسان يعتبر اقدم ما عثر عليه حتى الآن في الشرق الأدنى وكذلك أم قطفة بفلسطين ، وفي يبرود بسوريا ، وسن الفيل قرب بيروت . والأخيرة التى اكتشفها الاستاذ فليش( R.P. Fleisch) ذات طابع اشولى وليفالوازى وتايسانى . وأما في مصر فلا توجد مخلفات العصر الحجرى القديم الاسفل على شاطئ نهر النيل وانما توجد في مناطق منعزلة في الصحراء مثل الغابة المتحجرة شرق القاهرة وفي مناطق متفرقة على امتداد الطريق بين الاقصر والواحة الخارجة وبين الصرابة المدفونة ( ابيدوس) والواحة نفسها ، وبين أسنا وكركور ، وكذلك في بعض الوديان المتصلة بالنيل شمالى اسوان ، وفي سائر الواحات المصرية . بل ان بعضها وجد في المنطقة الواقعة شمالى اهرامات الجيزة و بعضها آلات شيلية — أشولية ، وبعضها الآخر آلات موستيرية . وهى شظايا من الصوان وجدت بجوار النوى التى فصلت منها ولو ان عددا من هذه الآلات مصنوع من الحجر الرملى أو من الكوارتز ، وبعضها بدائي جدا ، وبعضها الآخر فؤوس مثلثة أو هرمية الشكل ( كالتى اكتشفت في منطقة سن الفيل بجوار بيروت ) وهى مسطحة وذات وجهين ( لاثلاثة ) ومتعرجة الحافات ودقيقة الصنع بوجه عام . ومن المناطق الأخرى سهل " العباسية " حيث اكتشفت آلات موستيرية الطابع أو موستيرية مختلطة . وثمة منطقة أخرى بالصحراء الشرقية للقاهرة وهى منطقة " الجبل الأحمر " حيث اكتشفت آلات تختلط فيها الصناعة الشيلية والاشولية والموستيرية .

وتتمثل حضارة " العصر الحجرى القديم الأوسط " وعلى الأخص الموستيرية في بعض اماكن بالشرق الأدنى القديم : في الطابون بجبل الكرمل في فلسطين ونجد آثارها في ليبيا والمغرب . والآلات ذات صناعة ليفالوازية — موستيرية . وأما في مصر فقد اكتشفت آثارها — وأغلبها موستيرية الطابع — في العراء وبعضها موجود في نفس المواقع التى وجدت بها آثار المرحلة السابقة كالعباسية ، ومدرجات بركة قارون بالفيوم ، ومدرجات النيل في مصر العليا .

وأما حضارة العصر الحجرى القديم الأعلى فقد اكتشفت آثارها بالمغرب وتونس وبرقة • ومصر • وقد أشرنا من قبل الى الحضارة المسماة بالحضارة " العاطرية أو العطرية ( نسبة الى بئر العطر في تونس ) والتى انتشرت من المغرب الى مصر وشملت الصحراء جنوبا حتى النيجر • وكانت هذه الحضارة تقابل في خصائصها الجوهرية العامة الحضارة الليفالوازية — الموستيرية • وقد تلتها عدة حضارات مختلفة نشأت فيها آلات دقيقة الصنع أو حتى قزمية (١). ومن أهمها الحضارة القفصية ( نسبة الى بلدة قفصة بتونس ) ، والحضارة الواهرانية الاسبانية — المراكشية (٢) بالمغرب ( تافورلت بمراكش ) ، وحضارة الدبة Dabba ( ببرقة ) (٣) والحضارة السبيلية بمصر ( نسبة الى قرية "سبيل" قرب كوم أمبو بالصعيد ) • وظهور الحضارة السبيلية في مصر عن اختلاط بين عناصر الحضارة القفصية ( وهى فرع من حضارة المحتات خاص بشمال افريقيا ومعادلة للحضارات الاورينياسية والسوليترية والمجدلينية ) وبين عناصر الحضارة السوليترية المصرية (٤). وتعتبر الحضارة السبيلية حضارة شبه قزمية أو نصف قزمية لأن آلاتها لم تبلغ في صغر الحجم ما بلغته الحضارة القفصية في مرحلتها الأخيرة • وقد عثر في جهات مختلفة من وادى النيل على آلات يمكن نسبتها الى الحضارة السبيلية •

---

(١) عن هذه الحضارات راجع ص ٥٣ فيما تقدم.

(٢) تسمى أيضا الأيبيرية المغربية.

(٣) هناك مركز آخر لها في برقة هو طيرا ( هوافتيح ) بالجبل الأخضر.

(٤) لم تنته الحضارة والموستيرية في مصر مع انتهاء نظيرتها في أوروبا بل استمرت موجودة حيث تسمى " الموستيرية المصرية " • وقد انتشرت على حافة الهضبة الممتدة على طول وادى النيل ،أى أن مصر ظلت في مرتبة العصر الحجرى القديم الأوسط بينما كانت أوروبا قد قطعت شوطا في العصر الحجرى القديم الأعلى • على أن هناك فرقا بين الموستيرى الحقيقى والموستيرى المصرى (أو ما قبل السبيلى ). ذلك أن الأخير يمتاز بصغر حجم الآلات سواء ما كان منها مصنوعا من النواة أو من الشظايا • ولذلك يمكن اعتبار ما يسمى " بالموستيرى المصرى" حضارة مبكرة من حضارة العصر الحجرى القديم الأعلى في مصر • ويتمثل هذا اللون الحضارة في الاثار التى اكتشفها الاستاذ فنيار ( E. Vignard ) عند نجع حمادى ،وأن كان مكتشفها يرى أنها اشبه بآلات الحضارة الأورينياسية الاوروبية منها بالقفصية •

## العصر الحجرى المتوسط ( الميزوليثـــى )

( ١٢,٠٠٠ - ٦٠٠٠ ق.م. )

يعتبر هذا العصر فترة انتقال بين العصر الحجرى القديم ( الباليوليثى ) والعصر الحجرى الحديث ( النيوليثى ) لأن حضارته تحمل خصائص هذين العصريـن ويمتد بين سنتى ١٢,٠٠٠ و ٦٠٠٠ ق.م. على وجه التقريب ، وان كانت بدايته قـد تقدمت على سنة ١٢,٠٠٠ في بعض مناطق ، كما تأخرت نهايته عن سنة ٦٠٠٠ فـي مناطق أخرى . وتتميز حضارته واطوارها المختلفة بظهور الالات الحجرية ذات الشكل الهندسى المنتظم والحجم الصغير ، والمسماة بالالات الميكروليثية ( Microlithic ) أى " الالات الحجرية القزمية " . وهذا الاتجاه اقتضاء تغير الظروف الجغرافية . فقد حدث أن تغيرت الحياة الحيوانية والنباتية تبعا لتغير الاحوال المناخية عقب تقهقـر الجليد نهائيا نحو الشمال ، فانتشرت الغابات فوق مساحات واسعة وصارت مراتـع ملائمة لصيد الحيوانات المختلفة . ولعل من الاسباب الرئيسية التى دفعت اصحـاب حضارة الميزوليثى الى تطوير آلاتهم والاتجاه بها نحو " الميكروليثية " هى وفرة الاخشاب التى صنعوا منها مقابض لهذه الالات . هذا الى أن حيوانات الغابات اصبحـت اصغر حجما من حيوانات الفترات السابقة . ولذلك لم يعد صيد ما يستدعى وجود آلات ضخمة ثقيلة . ولعل الحصول على كتل صوانية كبيرة حينئذ قد أصبح أصعب مما كان عليه مـن قبل . غير أن كل هذه الأسباب ليست بكافية لتعليل ظهور " الالات الميكروليثية " فـي شتى انحاء العالم ، اذ أن هناك مناطق ظهرت فيها مثل هذه الالات مع أن الغابات لم تغطهـا عقب تقهقر الجليد نهائيا . وايا كانت الاسباب فان الصناعة الميكروليثيـة التى انتشرت في العصر الحجرى المتوسط قد اكسبت حضاراته نوعا من الوحدة . ولا يعتبر هذا العصر بمثابة فترة متأخرة ( Epipalaeolithic ) من العصر الحجرى القديم زمنيا فقط بل حضاريا أيضا ، وكأنها تمثل " العصور المظلمة " في عصر ما قبل التاريخ . وليس ادل على ذلك من أن " فن الكهوف " قد اختفى في ذلك العصر ولم ينشأ ما يحل محله .

وينقسم العصر الحجرى المتوسط ( الميزوليثى ) الى عدد من المراحـل أو الاطوار الحضارية وابرزها هى :

أ ـ الحضارة الازيلية : Azilian Culture

سميت كذلك نسبة الى كهف ( Mas d'Azil ) على الضفة اليسرى من نهــر اريز ( Arise ) في جنوب غرب فرنسا . وقد ظهرت هذه الحضارة في الفترة الأولــى من العصر الحجرى المتوسط . وكانت محدودة الانتشار اذ تكاد تكون مقصورة على شمال اسبانيا وجنوب فرنسا . وتدل آثارها على تدهور صناعة الآلات وتدهور الفن . ومن أهم الآلات الصوانية الازيلية المبراة التى على شكل السكين الصغير . كما ظهر فيها نــوع خاص من الحراب المفرطحة المصنوعة من قرون الغزال لصيد السمك . ولكل منها قاعـدة مثقوبة . ومن آثارها أيضا "الحصى المنقوش" الذى أشرنا اليه من قبل . وهو منقــوش برسوم حمراء بسيطة ذات اشكال متعددة . وقد عثر على أكبر عدد من هذا الحصــى في المكان الذى سميت هذه الحضارة باسمه . ولم تتطور هذه الحضارة الى أخرى أرقى منها .

ب ـ الحضارة الطردنوازية : Tardenoisian Culture

سميت كذلك نسبة الى منطقة Fère- en - Tardenois في شمل فرنســا . وهى حضارة ميكروليثية كالحضارة القفصية المتأخرة أى أن آلاتها دقيقة وذات اشــكال هندسية كالمثلثات والأهلة وشبه المنحرفة . وكانت واسعة الانتشار فشملت مناطق كثيرة في غرب أوروبا ( ما عدا ايطاليا ) وجنوب روسيا . وقد عاصرت في مراحلها الأولــى الحضارة الأزيلية ، وأما في مراحلها الاخيرة فكانت تعاصر حضارة العصر الحجــــرى الحديث في أوروبا .

جـ ـ الحضارة الكمبينيــة : Campignian Culture

اسم هذه الحضارة منسوب الى القرية ( Le Campigny ) بحوض السيـــن الأدنى . وتمتاز بظهور الفأس اليدوية من جديد . ويعلل ذلك بأمرين أحدهمــا بدء ظهور الزراعة التى تتطلب وجود آلات كبيرة ولأن الفأس اليدوية التى قلل من شـــأنها ظهور الشظايا في العصر الحجرى القديم الأعلى قد استعادت اهميتها في ذلك العصر نظرا لأن الشظايا أصبحت صغيرة الحجم ميكروليثية لا تفى بحاجات الزراعة .

وتنقسم هذه الحضارة التى انتشرت انتشارا واسعا في غرب أوروبا ووسطها الى مرحلتين : قديمة وحديثه . وكانت الصناعة في الحضارة الكمبينية الحديثة اكثر تقدما من القديمة . اذ اصبحت الفؤوس اليدوية والشواطير والمكاشط مصقولة متقنة ، وظهر نوع جديد من الفؤوس الحجرية المصنوعة من الجرانيت أو الديوريت ، هذا الى جانب المناحت والمخارز المصنوعة من قرون الوعل . ولأول مرة نلتقى بنماذج من أدوات جديدة كالمشط المصنوع من العظم أو الخشب . كما بدأت معرفة الفخار وصنعت منه أوان فجة بسيطة تتميز بقاعدة مدببة أو مستديرة ولا تظهر عليها أى رسوم غير طابع الاصابع على الحافة .

وتسمى الحضارة الكمبينية القديمة أحيانا ( كما ظهرت في الدنمرك وجنوب السويد ) بحضارة مخلفات المطبخ ( Kitchen Middens Culture ) . (١) وتتميز بوجود كميات هائلة من الاصداف والقواقع التى القيت بعد أكل ما بداخلها فتكدست في شكل اكوم عالية من القمامة يصل ارتفاعها الى عدة امتار ، وطولها الى حوالى ٥٠ مترا وكان اصحاب هذه الحضارة - على ما يبدو - يعيشون في جماعات متركزة في مناطق قريبة من شواطىء بحر البلطيق وايرلندا واسكتلندا وبريتانى وشبه جزيرة ايبيريا طول العام معتمدين على ما يجمعونه من قواقع ويصيدونه من أسماك ، وعلى قنص بعض الحيوانات بدليل وجود قرون الوعل مدفونة بين فضلات المطبخ ، بل انهم كانوا يدفنون موتاهم في بعض أكوام القواقع .

ولا تبقى بعد ذلك سوى اشارة عابرة الى حضارتين محليتين متفرعتين من حضارات العصر الميزوليثى واحداهما هى " حضارة ماجليموز " Maglemosian Culture نسبة الى Maglemose (أى المستنقع الكبير ) في شبه جزيرة جتلند بالدنمرك . وقد ظهرت قبل الحضارة الطردنوازية وهى مشابهة لها . وتتميز بحراب مركبة ذات أسنان عظمية ومثبت على جوانبها قطع صوانية دقيقة . وابتكرت اثناءها فؤوس من قرون الغزال لقطع الأشجار وحراب وشباك وسنانير وقوارب . وكان أهل هذه الحضارة التى لم تنتشر الا في الدنمرك واسكندناوه وشمال ألمانيا وانجلترا يعيشون وسط الغابات الباردة الطقس وعلى شواطىء البحار وضفاف الأنهار . وأما الحضارة الفرعية الثانية فهى حضارة كوندا ( Kunda Culture ) التى تنسب الى مكان بهذا الاسم يقع على خليج ريجا في شمال شرق أوروبا . وكانت معاصرة للحضارة الازيلية . وتتميز بأن جميع آلاتها مصنوعة من

---

(١) تسمى في لغة الدنمرك ( الفلمنكية ) : Kjoekken - moedding

العظم ومن بينها الحربة ذات السن الواحدة ، والحربة ذات الأسنان وهى أما منتظمة على امتداد صف واحد أو على صفين . ومن بينها أيضا حربة ذات اسنان متقاربة جدا حتى لتشبه المنشار . وكان صانعو هذه الحضارة كأصحاب حضارة ماجليموز يزينـــون ادواتهم العظمية والخشبية برسوم هندسية بسيطة ورثوها - على ما يرجح - عن الفن المجدلينى المتأخر . وقد اقتصر ظهور هذه الحضارة كسابقتها على شمال اوروبا .

ونختتم " العصر الميزوليثى " ببعض ملاحظات من بينها أن هذا العصر الحجرى المتوسط يمكن وضعه مع الحجرى القديم في قسم واحد واعتبارهما معا حقبة متميزة عـــن العصر الحجرى الحديث . ذلك بأن العصر الحجرى المتوسط لم يكن - في الحقيقة - من الناحية الاقتصادية الا استمرارا للعصر الحجرى القديم . فهما يؤلفان معا مرتبـــة حضارية متميزة في الزمن الجيولوجى الرابع . ويمكن مقارنة أسلوب الحياة التى كـــان يعيشها أهل العصور الحجرية القديمة و المتوسطة بأسلوب حياة الجماعات الزنجيـــة البدائية الحديثة كالبوشمن ( Bushman ) والهوتنتوت ( Hottentot ) في افريقيا ، والاستراليين الاصليين ،والاسكيمو في المناطق القطبية . لكن هذه المقارنة مفيـــدة فقط من الناحية الحضارية المادية لا من ناحية الحضارة الروحية .

وفي العصرين الحجرى القديم والحجرى المتوسط اكتشفت النار ( ربما عـــن طريق الصدفة أو على يد انسان نياندرتال ) ومن ثم مكنت الانسان من السيطرة علـــى بيئته وحماية نفسه من الحيوانات المفترسة ،ووقايتها من البرد ، واقتحام مناطق باردة وانارة دجى الليل وظلمة الكهف ،وانضاج الطعام وتنويعه . كذلك ظهرت صناعات الالات الحجرية العامة والمتخصصة . وهذه الصناعة التى اقتضت مزيدا من حركات اليد ونمـــوا في القدرة العقلية وصاحبتها زيادة في حجم الجزء الخاص بالكلام في المخ ، أدت الى نشأة اللغة التى مرت بثلاث مراحل : الايماءات العامة لاصوات الفم ،ثم الاصوات الرمزية أو الألفاظ التى تعبر عن جملة كاملة ( وهو ما يمثل بداية التفكير المباشر ) ، وأخيرا تأتى - مع تعدد الخبرة وارتقاء التفكير - مرحلة بناء الجمل والسير مع التقدم الحضارى الى تعقيد هذا البناء . ويبدو أن الخطوة الأولى نحو الكلام جاءت مع نهاية العصـــر الحجرى القديم الاعلى حين استطاع الانسان في حضارة الصيد تسمية بعض الأشيـــاء وبالتالى مناقشة بعض المعانى والافكار ،ورسم الخطط وحل المشكلات البسيطة ،ونقـــل خبراته المتجمعة الى أبنائه . لكن أحدا لا ينكر أن ما طرأ على الحياة الاجتماعيـــة في

العصر الحجرى الحديث (التالى ) كان له تأثير قوى على نمو اللغة ،اذ اضـــاف اصحاب المهن المختلفة الجديدة كلمات جديدة . هذا فضلا عن اكتشاف الاعـداد وهو ضرورى لأى مجتمع زراعى مستقر لديه فائض من المحصول أو السلع أو الطعام .

## حضارات الشرق الادنى في العصر الحجرى المتوســـط

وتتمثل حضارة العصر الحجرى المتوسط ( الميزوليثى ) بالشرق الأدنـــى في الاثار التى اكتشفت في شانيدار ( Shanidar ) بشمال العراق . ويرجـــع تاريخ هذا الاثار الى حوالى الألف الحادى عشر ق.م. أو الى أواخره . وتعاصـــر هذه المحلة القديمة محلة "زرزين" التى اكتشفتها الآنسة جارود ( Garrod ) ومغارة "بلت" على الساحل الجنوبى الشرقى لبحر قزوين .

وأجدر من ذلك بالتنويه تلك الآثار التى اكتشفت في وادى الناطوف شمال غربى بيت المقدس ، وتنسب الى العصر الميزوليثى ( حوالى الألف الثامن ق.م. ). اذ عثرت الآنسة جارود على آلات ميكروليثية هندسية الشكل وأدوات كثيرة مصنوعة من الخشب والعظم . وأهم من ذلك وجود آلات كالمناجل واحجار الطواحين ،مما ينهض دليلا على معرفة اهل الناطوف بحصاد الحبوب . لقد سبق اهل "الحضارة النطوفية" جيرانهم – على ما يبدو – في أمرين هامين أو ابتكارين وهما حصاد القمح والشعير واستئناس الحيوان . وكلاهما يشير الى بداية حياة الاستقرار . ولعلهم سبقـــوا جيرانهم ايضا في صناعة ادوات حجرية أخرى كالتماثيل الصغيرة الادمية والحيوانيـــة التى تكشف عن مقدرتهم الفنية ، هذا فضلا عن أدوات الزينة ،وان كانت قلة مـــن الباحثين ترى في صناعتهم الحراب الطويلة لصيد الاسماك الكبيرة من الصوان ،وغير ذلك من الالات ما قد يجعلهم ينتمون الى العصر الحجرى القديم الأعلى . لكن لا شك فـي أن اصحاب الحضارة النطوفية قد عرفوا كيف يتعهدون نباتاتهم البرية بالعناية ،وعرفوا الحصاد واستئناس الحيوان ،وشيئا من الاستقرار ،ونشروا حضارتهم الى مســافات بعيدة في الشمال وفي الجنوب ،ومهدوا للخطوة التالية في الشرق الأدنى حيث لـم يحصد فقط القمح بل أصبح يزرع . ولا بد أن هذه الخطوة قد حدثت في أواخر الحضارة النطوفية أو بعدها بقليل . وسنرى كيف تطورت هذه الحضارة في مكان آخر بوادى الاردن بفلسطين (في اريحا ) حيث توافرت ظروف طبيعية افضل كوجود نبع وافر من المياه .

* * *

# الفصـــــل الرابـــــــع

## العصر الحجرى الحديـث ( النيوليثـــى )
( ٦٠٠٠ — ٤٠٠٠ ق ٠ م ٠ )

### المظاهر الحضارية العامة :

لا يبدأ " العصر الحجرى الحديث " في وقت واحد في كل مكان ٠ لكن فـي وسعنا أن نقول انه بدأ مبكرا في بعض مناطق الشرق الادنى أى قبيل عام ٦٠٠٠ ق٠م، بينما لم يبدأ في منطقة البحر الايجى الا بعد ذلك بفترة طويلة أى حوالى عـــام ٤٠٠٠ ق٠م٠ وقد كان تغير المناخ عاملا له تأثيره في انهاء العصر الحجرى الوسـيط وابتداء العصر الحجرى الحديث " ٠ ذلك بأن الدفء ساد اجزاء كثيرة من اوروبـا ٠ كذلك سادت في مناطق اخرى الى الجنوب ظروف صحراوية فاضطر الانسان الـــى الهجرة منها الى وديان انهار كالرافدين والنيل وتجمع حولها في قرى ٠ واستتبع ذلك نشأ حرف جديدة أهمها الزراعة وما صاحبها من التوصل الى معرفة صناعة الخبــز (باضافة الخميرة ) وصناعة بعض المشروبات كالعرقى أو الجعة أو النبيذ ،وكذلك استكمال استئناس الحيوان ٠ هذا فضلا عن ظهور بعض صناعات اخرى مرتبطة بالزراعة ارتباطـا مباشرا أو غير مباشر على نحو ما سيأتى تفصيله ٠

لقد كان لنشأة الزراعة اثر كبير في الاقتصاد الانسانى ٠ وحسبنا لتأكيد أهمية هذا الحدث التاريخى ان نذكر أن البشرية لم تضف خلال تاريخها الطويل سوى القليل الى النباتات والحيوانات التى عرفها انسان العصر الحديث ٠ ولا يدرى أحد على وجه اليقين كيف نشأت الزراعة ولا أين : انشأت في واحات آسيا أم في واحات الشرق الادنى أم فـي شمال افريقيا أم في الحبشة أم في عدة اماكن في وقت واحد ؟ لكن يجوز لنا ان نفتـرض — بل ربما نرجح — ارتباط نشأة الزراعة بالمرأة ٠ فبينما كان زوجها يقضى معظم نهاره في الصيد والقنص كانت هى تقوم بجمع الثمار واقتلاع الجذور الصالحة للاكل والتقـــاط بعض الحبوب البرية ٠ ولعلها لاحظت ان البذور التى سقطت منها عفوا على الارض امام الكوخ قد اصبحت بعد فترة نباتا ناميا ،فكررت التجربة وتوصلت بذلك الى اكتشـــاف الزراعة وايجاد عمل يشغلها اثناء انشغال زوجها بالبحث عن صيد يقتنصه لاسرتـــه ٠ واذا كانت القدرة على الكلام واللغة هى الانتصار أو الاكتشاف أو " الثورة الاولى " في

تاريخ الانسان البدائي ، واذا كانت معرفة النار واستخدامها هي الاكتشاف الهام الثاني في حياته ، فان الزراعة هي الاكتشاف الهام الثالث (١) . ذلك بأن الانتاج الزراعي المنظم الهادف قد أدى الى " الثورة الاقتصادية الأولى " في حياة البشرية .

العصر الحجري الحديث اذن هو عصر الثورة الانتاجية الاولى في تاريخ البشرية ، وهي المرحلة الهامة التي فصلت بين الصيد كحرفة طوال الوقت وبين بداية حياة الاقتصاد الزراعي ثم اقتصاد المعادن ، ففي هذا العصر ظهرت الزراعة وتم استئناس الحيوان واصبح الانسان لأول مرة منتجا للطعام ( food producer ) بعد أن كان جامعا للطعام بل اصبح مدخرا للفائض منه وليس مجرد مستهلك له . كانت معرفة الزراعة أول ثورة كبرى في حياة الانسان اذ نقلته من حياة الارتحال وراء حيوان يصطاده أو بحثا عن ثمار يلتقطها الى حياة الاستقرار في قرى صغيرة بجانب قطعة من الارض يبذر فيها حبوب نبات من النباتات ويظل يتعهدها حتى تثمر أو على الاقل الى حياة بدوية منظمة يرعى فيها حيوانات معينة قد روضها واستأنسها . وهكذا نشأت القرى الثابتة التي كانت احدى الظاهرات المميزة لبداية العصر الحجري الحديث .

فاذا استعرضنا السمات أو المميزات الرئيسية للعصر النيوليثي نجد أنها تتلخص في الآتية :

١ — الزراعة .
٢ — استئناس الحيوان .
٣ — صناعة الفخار .
٤ — صناعة الغزل والنسيج ( من الكتان والصوف والقطن ) وصناعة السلال والحصر .
٥ — صناعة الآلات الحجرية المصقولة المشحوذة التي تتطلبها الزراعة كالمنجل والرحى .

---

(١) يرى بعض الباحثين من أمثال كلارك ان اكتشاف الزراعة حدث في الشرق الادنى القديم في الألف الثامن أى قبل بداية العصر الحجري الحديث . لكنه يرى أنها نشأت أولا خارج وديان الأنهار الكبيرة .
وعن هذه النقطة والرد عليها راجع :
عبد الفتاح وهيبة " مصر والعالم القديم " ( بيروت ١٩٧١ ) ص ١٢٥ — ١٢٦ .

أما عن الزراعة فقد كانت ـ كما ذكرنا ـ الثورة الانتاجية الاولى في حياة البشرية وأدى انتاج الطعام بدوره الى ثورة اقتصادية حقيقية في حياة الانسان. فقد جعلته الزراعة يتخلى تدريجيا عن حرفة الصيد وان ظل يمارسها في بعض الاماكن على نطاق محدود . كذلك لم تمنعه الزراعة بداءة من ممارسة مهنة صيد الاسماك اذا اقتضت الحال . وثمة ملاحظة أخيرة هي أن الزراعة لم توفر للانسان الاستقرار فقط بل ضمنت له وفرة في الغذاء كان من شأنها ازدياد اعداده ،وبالتالى احساسه بالقوة ،واتساع آماله . لكن هذا التكاثر السكانى كانت تحد منه كثرة الحروب التى كانت تثور بسبب الرغبة في اقتناء الأراضى الخصبة ،والكوارث الطبيعية كالجفاف والقحط والسيول الجارفة والعواصف المدمرة والآفات القاتلة . وكانت الزراعة سببا في تجمع الناس في مناطق استقرار بالقرب من الارض المنزرعة . فبنيت القرى الثابتة ،ومخازن للغلال وحظائر للحيوانات. ونشأت عن هذا التجمع حاجة الى تنظيم الجماعة الزراعية ،وتقسيم العمل ،ووجود التخصص وان لم يكن كل الوقت لأن التخصص في العمل كل الوقت لم يقم الا في عصر البرونز حيث انفصل الزراع ـ مثلا ـ عن اصحاب الحرف الأخرى الذين لم يعودوا يزرعون الأرض بأنفسهم لامكانهم الحصول على حاجتهم من المحاصيل الزراعية عن طريق المقايضة بمنتجاتهم الصناعية . لكن العصر النيوليثى شهد ارهاصات التخصص الاقتصادى اذ اصبح فريق يقوم بزراعة ما يكفى كل الجماعة من غلات ،وفريق يشتغل بحرف أخرى ،فنشأت طائفة لصنع الاوانى الفخارية ،والآلات الحجرية ،وطائفة ثانية لبناء المساكن من قوالب الطوب النىء المجفف في الشمس ( لا في الافران ) ،وثالثة لرعى الحيوانات وحراستها ، وقد استلزمت الزراعة وجود ثلاث آلات على الاقل : المحراث والمنجل والرحى . وكانت هذه تصنع من الصوان والخشب معا أو من الصوان أو الكوارتز وحده .

كان من أهم الحبوب التى زرعها انسان العصر الحجرى الحديث : القمح والشعير والارز والدخن في العالم القديم ، والذرة في العالم الجديد (الامريكيتين) وقد اخذت زراعة هذه المحاصيل تنتشر منذ اوائل الالف الرابع قبل الميلاد من الشرق الادنى القديم وجنوب غربى آسيا غربا الى منطقة البحر الايجى فجنوب اوروبا . ومن المنطقة عينها اخذت زراعة هذه المحاصيل تنتشر شرقا الى الهند والصين وجنوب شرقى آسيا . وبينما سادت زراعة القمح والشعير في اغلب جهات جنوب غربى آسيا وشمال افريقيا واوروبا ،سادت زراعة الارز في اغلب جهات جنوب شرقى آسيا . وكان أوسع

أنواع القمح انتشارا في العالم القديم هو قمح الدكر ( Emmer ) (١) الذى انتشرت زراعته من جنوب غربي آسيا غربا (عن طريق مصر) الى شمال افريقيا ومنه الى وسط أوروبا وشمالها (حتى اسكتلندا) ، وانتشرت شرقا الى جنوب شرقى آسيا . واما قمح الخبز ( wheat ) الذى ينفصل عن قشرته بسهولة فقد نشأ عن عملية تهجين بين نوعين من القمح ( قمح الدكر والقمح الرومى الصغير spelt ) ، ولم تنتشر زراعته الا في وقت متأخر ولو أنه لم يكن مجهولا لاصحاب " حضارة العمرى " في مصر ، وفي الدانوب وسويسرا وحتى الدنمرك .

وانتشرت زراعة الشعير من مركزين آسيويين أحدهما في الشرق الادنى والآخر في الشرق الأقصى . وقد عثر على أقدم أنواع الشعير ( وكذلك القمح ) ، في " جرمو " بشمال ارض الرافدين ، وهذا يشير الى صلة باصله البرى في مكان قريب ( كايران أو الاناضول أو فلسطين ) . وبفضل الزراعة المستمرة خلال الزمن اختلف هذا النوع عن أصله البرى . ويظهر هذا الاختلاف بصفة خاصة في شعير الفيوم . وأما النوع الآخر فقد انتقل من الشرق الاقصى الى الغرب حيث انتشر في أوروبا على نطاق واسع في العصر الحجرى الحديث وكذلك عرفته " حضارتا البدارى والفيوم " بمصر اثناء ذلك العصر . وعرف أهل ذلك العصر نوعين من الدخن ( millet ) (وهو شبيه بالذرة الرفيعة ) (٢) : الدخن الأصلى " و " الدخن الايطالى " . وانتشر النوع الأول في الصين والهند وأواسط آسيا ، ومنها انتقل الى أوروبا حيث لا يزال منتشرا حتى الآن . وأما الثانى فقد انتشر في اقاليم حوض البحر الابيض المتوسط المعتدلة المناخ حيث حل محله الآن القمح والشعير (٣) . ويبدو أن هذه المحاصيل كان انتاجها يختلف من مكان الى آخر . لكنها كانت محاصيل أساسية بالنسبة للقدامى . ولا تزال تمثل أهم مصدر غذائي نباتى عرفه الانسان حتى الآن .

---

(١) وهو نوع من القمح الصلب الرومى الصغير ( Einkorn ) .

(٢) لا ينبت في مصر وانما ينبت الآن في السودان أو السعودية والعراق .

(٣) واما الشيلم والشوفان فقد كانا من المحاصيل قليلة الأهمية حتى الألف الأخير قبل الميلاد .

ولا ينبغى أن نغفل الجذور والبقول والفواكه . فقد بدأت في العصر الحجرى الحديث زراعة الفجل والكراث والبصل ، وهى من نباتات الحديقة التى عرفتها مصر على وجه اليقين في عصر بناء الاهرامات، وقبل بداية عصرها التاريخى (٣٢٠٠ق٠م٠) على ما يرجح . وعرفت الجزر بعض مناطق في اوروبا كسويسرا والمانيا . وشهد العصر النيوليثى كذلك زراعة بقول غنيـــة بالبروتينات كالعدس والفول والبازلاء ، بينما عرف اهل الصين واليابان الفول المسمى بفول السويا الذى لا ندرى شيئا عن بدايـة زراعته .

ويكتنف الغموض بداية زراعة الفواكه . لكن أقدم دليل على زراعة أشجـار الزيتون يأتى من جنوب شرق اسبانيا . غير أن الموطن الاصلى لهذه الشجرة التـى قامت بدور هام في حياة الاغريق في عصرهم التاريخى ، لا يزال غير معروف على وجـه الدقة ، لكنه ربما كان آسيويا . ومن المرجح ان زراعته لم تنشأ في منطقة الشـرق الادنى القديم الا مع بداية العصور التاريخية . وكانت مصر تستصد ر زيت الزيتـون من فلسطين وسوريا . ومن المحتمل ان الزيتون لم يكتسب أية أهمية سواء في ارض الرافدين أو في وادى النيـل لأن السمسم كان مصدر الزيت منذ بداية العصر التاريخى .

ومن الكتان ، وهو نبات ليفى ، عرفت مصر انواعا كثيرة في العصر النيوليثى زمن حضارتى الفيوم والبدارى . وعرفت زراعته في الاناضول قبل ٣٠٠٠ق٠م٠ وعرف سـكان منطقة الدانوب انواعا برية من الكتان زرعوا بعضها بل قاموا بنشر زراعتها بين سـكان بحيرات سويسرا ثم انتقلت الى الشمال حتى اسكندناوة قبيل نهاية العصر الحجـرى الحديث (١).

وأما عن استئناس الحيوان فقد بدأ قبل العصر الحجرى الحديث حيث عـرف انسان العصر الميزوليثى كيف يسخر بعض انواع الحيوان لخدمة اغراضه . لكن الاستئناس التام للحيوان لم يحدث الا في العصر النيوليثى . ويقصد بالاستئناس التام أن يعيـش الحيوان ويتكاثر تحت سيطرة الانسان . وقد أمدته بعض فصائل الحيوان ذات الظلـف بمورد غذائي ممثلا في اللبن . ويبدو أن الماعز هى أول حيوان أمده بهذا الغـذاء .

---

(١) عبد الفتاح وهيبة ، " مصر والعالم القديم " ، ( بيروت ١٩٧١ ) ، ص ١٤٠ .

وقد بدأ الانسان باستئناس الاناث من الحيوان وضعيفه ، ثم استأنس منه على اســاس انتقائي . ويعتقد انه بدأ باستئناس الكلب من بين أكلة اللحوم ، ثم استأنس حيوانـات الرعى كالماعز والاغنام والرنة ثم تلك التى تتوائم مع حياة الاستقرار كالماشية والخنازيـر ، واخيرا دواب النقل كالحمار والحصان والجمل . وقد اقتضى ذلك كله بناء حظائر .

وأما صناعة الفخار ( pottery ) فنشأت عـن الحاجة الى تخزين الفائـض من المحصول ، والحاجة الى حفظ السوائل ، وطهو الطعام وحفظه . هذا فضلا عـن الحاجة الى القدور وما اليها في تقديم القرابين ووضع رماد الموتى . لقد ادرك انسان هذا العصر ان لا مناص من ادخار المئونة للفصل الذى تجدب فيه الارض . وقد عرف الطين أو الطفل ( clay ) المحروق في العصر الحجرى المتوسط . لكن صناعـــة الأوانى الفخارية وتشكيلها والتحكم في الوانها لم يعرف أى منهما الا في العصـــر الحجرى الحديث . وفي أول الأمر كان حرق الطين أو الصلصال يتم خارج الأفـران أى في العراء بحفرة مليئة بالوقود ، وبعد ئذ صنعت الأفران لحرقه . ويلاحظ أن الصلصال يصير لزجا اذا خلط بالماء . لذلك كان يضاف اليه في اغلب الاحيان مسحوق من الكوارتز أو الرمل أو الصوان أو الاصداف ليزداد تماسكا فلا يتشقق حين يتعـرض للحرارة . ويمر الفخار بأربعة مراحل قبل أن يتم صنعه من الطين : ١ – عملية التشكيل ٢ – التجفيف ٣ – التسخين لكى يتبخر منه الماء ٤ – الخبز أو الحـــرق في حفرة أو في فرن أو موقد ( furnace ; kiln ) وكانت الاوانى تشكل في هـــذا العصر باليد لأن الدولاب أو عجلة الفخارى ( potter's wheel ) لم تعرف الا فـي عصر البرونز . وكان التشكيل اما " بالطريقة الدائرية " أو " طريقة الحلقات " .

ونشأت صناعة الغزل والنسيج لصنع الملابس وشباك الصيد . وقد استخــدم المغزل بكثرة في بداية العصر النيوليثي . وتوصل الانسان اليه عن طريق استخدام عصا كان يلف حولها الخيط . وتطور استخدام العصاء بعد ذلك فكان يربط بها الوبر ثـم يلف على شكل مخروطى . وجاءت المرحلة الثانية حين اكتشف الانسان انه من الممكـن أن يسير في حركة دائرية ، وان يزيد دوره المغزل اذا ما ربط بفلكة (spindle ; whorl) وكان المغزل يصنع من الطين أو الحجارة على شكل مخروطى أو بيضاوى .

وأما عن النسيج فقد بدأ عن طريق مد الخيوط ( خيوط الكتان أو أى نباتات ليفية أخرى ) بين شجرة مثلا وشدها الى وسط النساج . ثم ظهرت الانواع البدائيــة. ولعل من اقدم الانوال ما وجد في " حضارة البدارى" بمصر التى ترجع الى العصــر الحجرى الحديث . وكان هذا النول يتكون من عمودين يوصفان أفقيا على الأرض وتربط بينهما خيوط السداة على حين كانت خيوط اللحمة تضفر باليد . وقد تطور النول بعد ذلك بحيث امكن تقسيم الخيوط الرأسية الى قسمين أحدهما الى أعلى والآخر الـــى أسفل لتمر بينهما بالتناوب خيوط اللحمة . وكان الكتان هو أكثر المواد الخام التـى استعملت في مصر وآسيا واوروبا . واستخدم الصوف والقطن في مناطق اخرى .

وأما السلال والحصر فقد صنعت أول ما صنعت في " أريحا " بالاردن "وجرمو" بشمال العراق والفيوم والبدارى بمصر ،اما من البوص أو من قش القمح ،وفي جهــات أخرى كانت تصنع من الحشائش أو حتى من الكتان ،واستخدمت في صناعتها طريقتان : طريقة العقد (١) وطريقة اللف (٢) .

واما عن الآلات الحجرية المصقولة المشحوذة فان انسان العصر الحجـــرى القديم — على نحو ما رأينا — كان يصنع آلاته بواسطة التشظية ( flaking ) ثــم التهذيب ( chipping ) (٣) ،وهما لا تصلحان الا في انواع خاصة من الحجر كالصوان فلم يستطع مثلا تشكيل آلات من الجرانيت بطريقة التشظية . هذا الى ان حافة الآلات الصوانية سهلة التهشم وقد تتلف بسرعة . لكن انسان العصر الحجرى الحديث توصل الى صنع بواسطة صقل انواع من الحجارة اكثر صلابة من الصوان كالديوريت والجرانيــت وقد افادته هذه الآلات الحجرية في قطع الاخشاب التى كثرت وقتئذ بسبب دفء المناخ . وبدهى انه استمر في صناعة الآلات من الصوان بطريقة التشظية بالمناطق التى كـــان يتوافر فيها ذلك الحجرى كالفؤوس للزراعة ومدى الحصد والبلط والقواديم والمكاشـــط التى كانت رؤوسها تثقب بمثقاب حاد لتركيب أيد خشبية . وكان من اسلحة القتـــال والصيد رؤوس السهام المسننة ،والمقاليع والصولجانات لقذف الاحجار أو قتل الاعـداء

---

(١) Twine technique

(٢) Coiled technique

وعن هذا الموضوع انظر : محمد السيد غلاب ويسرى الجوهرى" الجغرافيــــا التــاريخية — عصر ما قبل التاريخ وفجره " ( القاهرة ١٩٦٨ ) ص ٣٨٧ — ٣٨٩.

(٣) أى التشذيب او الحرتقة أو ما يسمى" بالتشظية الثانوية " .

ومطاردة الحيوانات ، ثم فأس القتال . هذا فضلا عن ادوات الزينة من العقود والأساور والاقراط الدقيقة الصنع والاصباغ لطلاء الوجه والجسم . ويبدو أن الفؤوس الصوانية كانت من اهم السلع التجارية وذلك بسبب الدور الحيوى الذى لعبته في تشكيل الاقتصاد الزراعى في العصر النيوليثى .

في الحق ان في هذا العصر اصبح قطع / الاحجار بمعنى استخراج الصوان وغيره من المحاجر ( quarries ) صناعة هامة ، وتخصصت في ذلك فئة معينة من العمال . ولم تتوقف هذه الصناعة حتى بعد اكتشاف المعادن . ولعل صناعة الآلات كانت تجرى احيانا في مناطق المحاجر تخفيفا للجهد واقتصادا للوقت وتوفيرا لعملية نقل كتل ثقيلة من الحجارة الى محال الصناعة التى قد تكون بعيدة . وقد اضطرت المناطق الفقيرة في الاحجار ان تستبدل بمنتجاتها المصنوعة من مواد غير حجرية احجارا خاما كالصوان والاوبسيديان والشست الاخضر واليشم و اللافا . ومن ثم فقد نشأ نوع من المقايضة أو التبادل التجارى . غير أن التجارة لم تبدأ الا في أواخر هذا العصر ( الحجرى الحديث ) ولم يتسع نطاقها الا اثناء عصر البرونز لأن المعادن كانت أعظم حافز على التجارة التى قامت بدور هام في التطور الحضارى . وثمة سلعة اخرى كانت ذات اهمية وقيمة في العصر الحجرى الحديث الا وهي الكهرمان . والكهرمان عبارة عن راتنج ( صمغ صنوبرى ) متحجر . وهو على انواع والوان شتى . ومنتشر على الأخص في شمال أوروبا ، ووفيرا جدا في منطقة بحر البلطيق ، وغرب شبه جزيرة جتلند ( بالدنمرك ) . وقد غلب استخدامه اثناء العصر الحجرى الحديث في صناعة الخرز الاسطوانى والازرار المثقوبة والخواتم والاقراص والتماثيل الآدمية الصغيرة .

وقد صاحب ذلك كله البحث عن وسائل للنقل . وكان النقل يتم برا بواسطة دواب الحمل كالحمير وبحرا بالقوارب اذ كانت اسهل الطرق هى الأنهار والبحيرات وسواحل البحار . وربما استخدمت الارماث ( الأطواف ) المصنوعة من حزم البوص في بادئ الأمر . وقد تطورت هذه في مصر — على سبيل المثال — على يد أصحاب " حضارة البدارى " فصارت أشبه ما تكون بالقوارب . وقد تمكن أهل " حضارة العمرة " — في مصر أيضا — من صنع قوارب كبيرة من نبات البردى ( papyrus ) ذات ١٦ مجدافا

ولدينا أدلة وفيرة على قيام الملاحة النهرية في النيل اثناء العصر الحجرى الحديث. ولعله كان أول نهر في العالم حمل التجارة . وقد عثر على اقدم نموذج لمركب شراعي في احدى مقابر تل "العبيد" ( اريدو ) في جنوب ارض الرافدين ( العراق ) . وكان اصحاب تل العبيد هم أول من ركبوا نهر الفرات واستطاعوا أن يسيّروا فيه المراكب الشراعية عند نهاية العصر الحجرى الحديث . وقد عرفت الملاحة الساحلية في البحر الابيض المتوسط منذ بداية هذا العصر حيث جرى اتصال حضارى بين سكان السواحل وسكان جزر هذا البحر . وظهرت في اوروبا وقتذاك قوارب منحوته من جذع الشجر ( dugout ) ، واستخدمت في نقل مادة أو سلعة هامة في الصناعة الحجرية الا وهى الاوبسيديان ( obsidian ) ، وهو ذلك الصخر البلورى أو الزجاج البركانى الطبيعى شديد الصلابة الذى اشتهرت به بعض جزر البحر الايجى ولا سيما ميلوس والمعنا اليه من قبل . والى جانب الزحافات ( sledges ) فقد وجدنا على الصخور في شمال غرب النرويج صورا منقوشة تمثل قوارب من الجلد المثبت فوق هياكل خشبية . ولا يزال صيادو شمال غرب ايرلندا يستخدمون حتى الآن قوارب قريبة الشبه جدا من تلك القوارب .

وقد سلفت الاشارة الى نوع واحد من المساكن في العصر الحجرى الحديث الا وهى القرى الثابتة . كانت هذه المجموعات الصغيرة من السكان تشكل وحدات اجتماعية متعاونة في السراء والضراء ، يتكاتف افرادها في تحقيق الرخاء ودرء الخطر المشترك . وكما كانت الاسرة وحدة اقتصادية تكفى نفسها كذلك كانت القرية وحدة مكتفية بذاتها اقتصاديا على نطاق أوسع . وكان يختار للقرية مكان حصين يسهل الدفاع عنه ضد المعتدى سواء اكان انسانا أم حيوانا مفترسا . وكانت المساكن عبارة عن اكواخ متجاورة يتراوح عددها في كل قرية بين ٢٥ و ٣٥ كوخا تقوم على مساحة لا تتجاوز سبعة افدنة . وكانت اساسات هذه الاكواخ تبنى من الطين لتثبيت القوائم التى يرتكز عليها السقف .

واستخدمت الاعشاب وفروع الاشجار لملء الفراغ بين هذه القوائم . وفي كل كوخ كان يوجد مخزن للمواد الغذائية محفور في الارض ، وموقد أيضا . وقد يقسم الكوخ الواحد الى غرفتين أو أكثر . وكان شكله مستطيلا أو مربعا أو شبه بيضاوى . ويوجد في داخله احيانا حجر كبير ربما كان يستخدم كمائدة .

وأما النوع الثانى من المساكن في العصر النيوليثى فقد ظهر في الحضارة المسماة بحضارة " قرى البحيرات " في أوروبا ( Lake Villages ) . أو " قـــــرى الأوتاد " ( Pile Villages ) اذ نشأت مع زيادة استخدام الطرق المائية عادة بناء المساكن احيانا على شواطئ البحيرات المليئة بالمستنقعات والتى تغمرها الميـاه خلال فصل الامطار . ومن ثم فانهم كانـوا يقيمون أكواخهم فوق مصاطب من الـــواح خشبية ترتكز على أوتاد مغروسة في القاع الرخو تحت الماء واحيانا أخرى وسط مجارى الانهار .

وقد تبين ان هذه المواقع اسهل من غيرها في حمايتها من هجمــــات المغيرين والحيوانات المفترسة . ولعلها كانت انسب من غيرها كمجار لتصريف الفضلات وكسحها . وكان يوجد طريق ضيق يصل بين هذه المساكن الكائنة وسط الماء وبيــن الشواطئ ، وكان من السهل ازالته وقت الخطر حتى لا يتمكن العدو من الاقتراب مـن المساكن . وقد انتشر هذا النوع من القرى انتشارا واسعا في بحيرات نيوشاتل ولوسرن وكونستانس بسويســرا ،وفي شمال ايطاليا ( حضارة البلافيته ) (١) ، ومنطقة جبـــال الالب ،وجنوب المانيا ،وغرب النمسا . وتتمثل آثار سكان " قرى البحيرات " في آنيـة فخارية وآلات حجرية وأخرى عظمية كالمقابض لتركيب الفؤوس والمصنوعة من قرون الوعـل . ومن آثارها ايضا بعض الحبوب والمنسوجات وشباك الصيد . ولا بد انهم عرفوا صنـــع القوارب واستخدامها .

وأما النوع الثالث من مساكن العصر النيوليثى فهى الكهوف ولا سيما فـــي بعض المناطق التى كانت طبيعـــة الصخر فيها تلائم وجود الكهوف كمناطق الحجــــر الجيرى .

وأما عن المقابر فبعضها كان لا يعدو أن يكون حفرا عادية ( لحـــودا ) ، والبعض الآخر كان يبنى على شكل ركام أو كوم غير منتظم ( tumulus ) فوق سطـح الارض . كذلك استخدمت للدفن الكهوف الطبيعية والمصطنعة . وكانت توجد أمام كل كهف حفرة أو اخدود يؤدى الى مدخله الذى كان يسد بلوحة حجرية . واستخدمـت طريقتان احداهما دفن جثث الموتى كما هى ( inhumation ) والأخرى حرق هـــذه

---

(١) كلمة بلافيته palafitte ايطالية معناها صف من الأوتاد . وقد نشأت هـــذه الحضارة في شمال ايطاليا في عصر البرونز. واستمرت هذه الحضارة المسمـــــاة " بحضارة قرى البحيرات " في حوض نهر البو حوالى ثمانية قرون ( ١٨٠٠ — ١٠٠٠ ق٠م )

الجثث ( cremation ) . وفي الطريقة الاولى كان جسد الميت يفرد بطوله الكامل أو يثنى لتقريب اليدين والركبتين من الذقن وتقريب الكعبين من الردفين في وضع شبيه بوضع الجنين في بطن الأم . وكانت تدفن مع الميت بعض الانية والفؤوس المصنوعة من الصوان أو الجاديت ( اليشم ) . وبعضها له مقابض من قرون الوعل ومثقوبة ، ومكاشط ومدى ورؤوس سهام مسننة ، وادوات وحلى عظمية وخرز من الكهرمان أو الفيروز . ولعل ذلك يعني أنه نشأت عند اهل العصر النيوليثي فكرة عن البعث وحياة أخرى بعد الموت . وفي الحق ان معلوماتنا عن حياتهم الروحية لا تزال طفيفة . كل ما نعرفه ان كل منطقة كانت لها ديانتها وشعائرها بمعنى أنه لم تنتشر في ذلك العصر ديانة واحدة . ومن ثم فقد تباينت مفاهيم هؤلاء القوم لقوى الخير والشر ، والحياة والموت ، وان كانت كل مجتمعات ذلك العصر تتفق في دفن موتاها بطريقة أو باخرى وتكريمهم . بل ان آثار " اريحا " — في غور الاردن — وهي من اقدم ان لم تكن اقدم مدن العالم — على نحو ما يصفها الاثريون ، تشير الى عبادة الموتى من الاجداد . واما كثرة التماثيل النسائية الصغيرة سواء في أريحا أو في غيرها من مراكز العصر الحجري الحديث فهي تشير الى عبادة الارض بوصفها ربة الأمومة . ولا شك في انه قد عبدت معها آلهة أخرى اعتقد القوم انها هي سبب الخصب والنماء ، أى عبدوا آلهة الخصب والتناسل .

وما دمنا بصدد الدين والحياة الروحية فلا بد من التلميح عن مقابر من نوع آخر تميز بها العصر النيوليثي . لقد تميز هذا العصر — وعلى الأخص في أوروبا — ببعض آثار ضخمة تسمى بالآثار المجاليثية ( Megalithic monuments ) [(١)] ، ويسمى العلماء هذه الاثار في العادة بالدولمن ( dolmen ) ، وهو طراز واحد فيها ، ويرتبط كالاثار المجاليثية بالدين والفن . وتتألف كلمة ( dolmen ) من مقطعين الأول ( doll ) بمعنى تجويف أو فجوة والآخر ( men ) بمعنى حجر ( وذلك في اللغة الانجليزية القديمة ) . ويتكون الدولمن — في ابسط صوره — من ثلاثة احجار ضخمة مستوية توضع رأسية بحيث تشكل ما يشبه الفراغ المربع ثم تغطى بحجرة افقية ( ومن هنا تبدو هذه الأخيرة " doll " في شكل مائدة ) . وقد يسد المدخل احيانا بحجرة أصغر حجما . وكلما اتسع حجم الحجرة استخدمت احجار اكثر . وكان

---

( ١ ) كلمة مجاليثية ( megalithic ) يونانية الاشتقاق مركبة من كلمة lithos بمعنى حجر megas بمعنى ضخم . ومعناها " الحجر الضخم " .

يشق طريق ضيق يؤدى اليها . وكذلك استخدمت عدة احجار مائدية لتغطية الغرفة المتزايدة في الحجم . وبمرور الزمن كانت تضاف غرف جانبية أصغر . وعندما اصبحت الغرفة الوسطى من السعة بحيث لم يعد من الممكن تغطيتها بحجرة مائدية واحدة أو بصف من الاحجار استحدثت أساليب معمارية جديدة وبنيت الجدران من الطوب بدلا من صف واحد من الاحجار القائمة ،بينما أضحى الغطاء أو السقف يتكون من أحجار متداخلة . وكان السقف يرتفع بالتدريج في الوسط فيتكون ما يشبه العقد ( القبو ) الناتىء . وكانت مباني "الدولمن" على اختلاف طرزها مغطاة من الأصل بطبقات من التراب وأخرى من الحصى .

ومن الاثار المجاليثية ايضا ما يسمى بالمنهير menhir وهو لفظ يتألف هو الآخر من مقطعين الأول ( men ) بمعنى حجر - على نحو ما رأينا - والثاني ( hir ) بمعنى طويل (في الانجليزية القديمة ) ،وهى حجرة ضخمة طويلة منتصبة . وقد تكون آثار المنهير دائرية أو في صفوف متوازية . وقد اكتشفت في أوروبا وآسيا وافريقيا . واكتشفت في بعض مناطق قليلة آثار منهيرية ،في شكل التماثيل الآدمية ولا سيما الانثوية أو اشكال غير آدمية . وتوجد بكثرة في جنوب فرنسا (١) ويفسرها البعض بأنها تمثل آلهة أوآلهات ،بينما يفسرها البعض الآخر بأنها تماثيل للموتى . وتوجد احيانا على "الاثار المجاليثية" رموز أو علامات محفورة أو منقوشة سواء بقصد الزخرفة أو لغير هذا القصد . فنجد عليها اشكال تمثل الفأس ذات المقبض أو بدون المقبض ،والدرع الشرقي ،والعصا أو الصولجان ،والحية وقرص الشمس المقترن غالبا بصورة القارب أو المركب . وتسمى هذه المحفورات أو النقوش على صخور عصر ما قبل التاريخ باسم petroglyphs وهى كلمة يونانية بنفس المعنى . وثمة رموز اخرى لا يزال معناها غامضا كالاشكال الهندسية والعقرنصة ( وهى اشرطة في شكل رقم ٧ كالتي توضع على ذراع الجندى ) ،والخطوط الحلزونية ، والمتقطعة والموجة . ويحتاج الامر الى مزيد من الدراسة/يد علماء المحفورات على الحجر(glyptologists ) لحل هذه الطلاسم والرموز الغامضة . وجدير بالذكر ان فن المعمار الميجاليثى ظل قائما الى ما بعد بداية عصر المعادن .

---

(١) تسمى بالفرنسية statue- menhirs وفي الانجليزية effigy- menhirs

وثمة ملاحظة أخيرة عن العصر الحجرى الحديث أو النيوليش . فقد تعددت فيه الالات الحجرية والأوانى الفخارية وغيرها من الأدوات وأصبح لكل منطقة آلاتها واوانيها الخاصة . لهذا لا يمكن للمؤرخ ان يتناول هذا العصر بالدراسة على النحو المتبع في دراسة العصر الحجرى القديم ( الباليوليش ) ،بل لابد من دراسة كل منطقة على حدة وقد تبهنا الى ذلك عند الكلام عن الدين والحياة الروحية . ذلك بأن الاقليمية كانت الصفة المميزة لحضارات العصر الحجرى الحديث ،على الرغم من تلك المعالم و المظاهر المشتركة التى اشرنا الى وجودها بين مختلف اقاليمه .

## حضارات الشرق الادنى في العصر الحجرى الحديث

في هذا العصر النيوليش نشأت في الشرق الادنى عدة محلات حضارية وعلى الأخص في منطقة "الهلال الخصيب" ( Fertile Crescent ) التى تتألف من الدجلة والفرات في الشرق والنيل في الجنوب الغربى ونهر الاردن والعاصى بينهما ،وتحف باطرافه الشمالية الصحراء السورية ، وباطراف الجنوبية صحراء سيناء حتى الخليج العربى . وبهذه المنطقة ينبغى أن يلحق أيضا الجزء الغربى من ايران في الشرق والاناضول ( وربما أيضا طراقيا ) في الغرب ،وهى منطقة فسيحة متنوعة جغرافيا تنوعا شديدا ،وغنية بالموارد النباتية والحيوانية ،وبديهى انه ظهرت فيها أنماط حضارية مختلفة . لكن في وسعنا على الرغم من ذلك ان نتبين نوعا من الوحدة الحضارية بين أجزاء هذه المنطقة في العصر الحجرى الحديث ،على الاقل في المراحل الاولى . ويبدو أن ذلك قد نشأ عن ترابط أو علاقات قامت بين بعض اجزائها والبعض الآخر . وفي الحق أن بعض الباحثين يقترحون ادماجها تحت اسم حضارى واحد . لكن اختلاف البيئة من جهة ،قد حتم تمييز احداهما عن الاخرى . ومن ثم فمن الاوفق دراسة كل جهة على حدة ،وتستضح أوجه الشبه واوجه الاختلاف دون ما حاجة الى تأكيدها أو ابرازها . وكان الألف السادس ق . م في الشرق الادنى هو العصر الذهبي للحضارات النيوليثية . واليك مواطن هذه الحضارات بالشرق الادنى وأهم مراكزها اثناء العصر النيوليثي :

١ ـ العراق : وتمثله عدة محلات في مقدمتها جرمو وتل حسونة اللتان تمثلان مرحلتين متعاقبتين . وتوصف جرمو ( Jarmo ) التى تقع في شرق كركوك بأنها اقدم قرية في الشرق الادنى ، اذ يرجع تاريخها الى حوالى عام ٦٠٠٠ ق.م. ان لم يكن قبل ذلك . (١) وقد عرف أهل " جرمو " بناء البيوت من الطين المكبوس ، بل انهم دعموا الجدران باساسات من الحجر . واجتازوا بسرعة مرحلة الجهل بالفخار الى مرحلة معرفته وصناعة أوان منه . وثمة قرائن على انهم بنوا المعابد وصنعوا تماثيل نسائية صغيرة ترمز الى الارض كربة للامومة والخصب والنماء . بل ان هناك ما يشير الى استعمال سكان جرمو لحجر الاوبسيديان مما يدل على اتصالهم بالخارج واستيرادهم لهذا الحجر من منطقة الاناضول . ومن المؤكد أن اهل جرمو قد قطعوا شوطا في طريق الاستقرار ، اذ عرفوا زراعة القمح ، وان لم يتوسعوا فيها ، وينهض على ذلك دليلا تلك الآلات الزراعية التى اكتشفت هناك كالمنجل والفأس والرحى ، واستأنسوا حيوانات كالماعز والاغنام والخنازير .

وأما " تل حسونة " ( قرب الدجلة ) فحضارتها احدث من جرمو . وتختلف عن حضارة جرمو في ان اصحابها كانوا يقيمون في محلات مؤقتة ، وان اهتمامهم بتربية الحيوان كان أكبر من اهتمامهم بزراعة القمح ، وان كانوا قد صنعوا هم الآخرون آلات زراعية كالتى صنعها اهل جرمو . لكن " تل حسونة " أحرزت تقدما ملحوظا في فن صناعة الاوانى الفخارية . التى تشبه الى حد ما فخار حضارة " مرسين " بالاناضول مما يدل على انتشار سلعهم الفخارية أو اقتباسهم من اهل حضارة مرسين . والاحتمال الاول هو الارجح لأن فخار تل حسونة اكتشف ايضا في سامرّا ( بوسط العراق ) وفي منطقة "العمق" بشمال سوريا . ولدينا قرائن تشير الى احتمال اعتقاد اهل حضارة تل حسونة بالبعث وحياة اخرى بعد الموت .

---

(١) كشف الاستاذ بريدوود ( B. Braidwood ) قبيل عام ١٩٥٦ عن موقع قرية ملفات/ ( بين الموصل واربيل ) في شمال شرقى العراق/ كردستان، ويعتبرها اقدم قرية حتى الان في العراق القديم .

واما عن موقع "كريم شاهر" ( شرقى كركوك ) فهو سابق في تاريخه على جرمو ( ٧٠٠٠ ـ ٦٠٠٠ ق.م ) ، ولا ينتمى الى العصر النيوليثى الصميم حيث لم يعثر على ما يؤيد معرفة زراعة الحبوب وبالتالى الى ما يدل على الاستقرار ، وانما تمثل حضارة كريم شاهر بداية الانتقال الى انتاج الطعام .

ويسوقنا الحديث عن جرمو وتل حسونة الى السؤال المحير وهو ايهما اسبق في الوصول الى مرحلة الاستقرار الكامل : العراق أم مصر ممثلة في الحضارتين المعروفتين باسم " الفيوم " ومرمدة بنى سلامة/اللتين سنتحدث عنهما بعد قليل ؟ ان الظواهر الحالية حتى الآن تشير الى اقدمية حضارتي الفيوم ومرمدة بنى سلامة في بعض النواحي واقدمية حضارتي جرمو وحسونة في بعض النواحي الاخرى . ولا سبيل الى التوصل الى رأى قاطع حيث ان الامر يحتاج الى مزيد من أعمال الحفر . وأيا كانت الحقيقة فلا مراء في أن الانسان توصل في كل من البلدين الى مرحلة الزراعة المستقرة ونشأة القرى ، وانتج الات زراعية مدينة من الصوان ، وادوات من العظم ، وصنع السلال والحصير . وعرف بعض الوان من الكماليا ، وقطع شوطا قصيرا فيما يتصل بمعتقداته وحياته الروحية .

٢ — سوريا : باوسع مفهوم للكلمة أى فلسطين وسوريا ولبنان .

وتتمثل حضارة فلسطين اثناء العصر الحجرى الحديث في بعض مراكز في مقدمتها أريحا ( Jericho ) التى ترجع الى ما قبل عام ٦٠٠٠ ق.م. وتوصف بأنها اقدم مدينة في الشرق الادنى بل ربما في العالم . ذلك ان اطلال المدينة قد كشفت عن تحصينات مبنية من الحجارة يرجح انها بنيت لصد غارات البدو الساميين الذين بدأوا يزحفون من الجنوب على المنطقة.ولا شك في ان حضارة " اريحا " تمثل مرحلة متطورة من مراحل الحضارة النطوفية.وتقع اريحا في غور الاردن على الضفة الغربية من النهر على مقربة من نبع وافر من المياه . وقد عرف اهل اريحا زراعة القمح ، أى عرفوا الحياة المستقرة.لكن مما يستلفت النظر هو ما حققوه في المجال الروحى اذ اكتشفت فيها في حجرات مساكنها ومعابدها مجموعات تامة من التماثيل الحيوانية والآدمية. وتتميز الآدمية بأنها مؤلفة من ثلاثة اشخاص يرجح انهم أب وأم وطفلهما . فهل هؤلاء ارهاص للثالوث الالهى ؟ أم هم — على ما يحتمل — تجسيم لفكرة الانتاج في شكلها الكامل (١) ، وأيا كان التفسير فمن الواضح ان اهل " أريحا " قد قطعوا شوطا أبعد من جيرانهم فيما يتصل بالحياة الروحية وان هذه المجموعات من التماثيل الثلاثية فريدة في نوعها في مثل ذلك العصر المبكر . وثمة تماثيل اخرى تصور عضو الذكورة كرمز

---

(١) انظر : رشيد الناضورى " جنوب غربى آسيا وشمال افريقيا " ( بيروت ١٩٦٨ ) ص ١٦٣ .

للخصب ،ولعله كان – كما سيصبح في حضارات تالية – موضع تقديس . ويسترعى الانتباه بل قد يثير الدهشة ظاهرة فريدة أخرى في حضارة "أريحا" اذ درج القوم على فصل رأس الميت عن جسمه ووضع نموذج من الجص لصورة المتوفى فوق عظام الجمجمة ، كما كان في حياته . ولا يزال تفسير هذه الظاهرة مثار جدل بين الأثريين وفي رأى واحد منهم أن هناك ارتباطا بين فصل الرأس عن الجسد ودفنها مستقلة وبين عقيدة عبادة الجمجمة (١) . وأخيرا فقد عثر في اريحا على اثار ضخمة من نوع الدولمن ( dolmen ) التى سبق أن المعنا اليها . وهى تتكون من كتل حجرية هائلة تشكل جدران بعض الحجرات والممرات . ومع هذا كله وعلى الرغم من هذه الكتل الحجرية الهائلة الحجم ورغم ظاهرة تحصين المدينة بالاحجار ،وهو نمط معمارى فريد في نوعه بالنسبة للعصر . وبرغم نحت التماثيل التى تصور الحيوان والانسان الا ان أصحاب حضارة "أريحا" لم يتوصلوا الى صناعة الأوانى الفخارية .

وأما عن سوريا فالمقصود سوريا بالمعنى القديم للكلمة أى تلك المنطقة التى تحدها شمالا جبال طوروس وقيليقية ( بالاناضول ) ،وجنوبا فلسطين ،وشرقا الفرات ، وغربا البحر المتوسط متضمنة اقليم الاسكندرونة . وقد كان لموقع سوريا هذا اثره البالغ في توجيه تاريخها وتشكيل حضارتها . فهى محصورة بين مناطق حضارية من جهاتها الأربع : حضارة أرض الرافدين من الشرق وحضارة الأناضول ( وفيما بعد الحيثية ) من الشمال ،وفلسطين ومصر من الجنوب ،وحضارة البحر الإيجى ولا سيما حضارة قبرص من ناحية الغرب . كانت سوريا في مهب التيارات الحضارية والسياسية الوافدة من هذه الجهات ،بل كانت عرضة لهجرات بشرية من شعوب سامية وغير سامية متباينة العادات واللغات . وقد أثر كل ذلك على وضع سوريا حتى منذ العصر النيوليثى واستمر هذا التأثير حتى العصر التاريخى . لقد وقعت تحت ضغوط من القوى السياسية والحضارية المجاورة . ولا مراء في انها تلقت هذه المؤثرات واستطاعت أن تهضمها احيانا ،بل وتصدرها بعد هضمها في قالب جديد ، ولكنها عجزت عن ذلك في أكثر الأحايين . ومن ثم لم تتمكن سوريا القديمة من تكون دولة سورية ذات كيان سياسى مستقل الا في فترات قليلة .

---

(١) المرجع نفسه ،ص ١٣٧ .

وتتمثل حضارة سوريا أثناء عصرها النيوليثى في عدد من المحلات الحضارية وأهمها وادى العمق ( قرب مصب العاصى ) بسهل أنطاكية ،وراس شمرة (أوجاريت) وحماة وتل الجديدة في الشمال ،ثم تل رماد في الجنوب . وقد أجرى الأستاذ بريدوود ( R. J. Braidwood) حفائر في سهل أنطاكية استمرت فترة طويلة ونشر نتائجها في عام ١٩٦٠ . ويلاحظ عن آثار مساكن " وادى العمق " أنها مبنية لا بالطين بل بالحجر، وهو أمر حتمته طبيعة التربة الرطبة المليئة بالمستنقعات في بعض الأجزاء . ويتخذ أغلب المساكن شكلا المستطيل ،وأرض حجراتها مطلية بالجص ، بل ان جدران هذه المساكن نجدها أحيانا مطلية كمساكن قرى الأناضول وايران ومصر في العصر النيوليثى . وقد صنع سكان المنطقة من الآلات الزراعية المألوفة ما يؤيد معرفتهم بالزراعة ،ويشير الى حياة الاستقرار ،وان لم تكتشف أى حبات للقمح. وصنعوا أيضا آنية فخارية وأدوات عظمية ،وتماثيل أنثوية ترمز الى الأرض بوصفها ربة للأمومة . وجدير بالتنويه ما اكتشف بالمنطقة من أختام طابع حجرية . ولعلها تدل على بداية الوعى بالشخصية الذاتية . لكن برغم ما لدينا من قرائن على حياة الاستقرار في وادى العمق الا أن هذا الاستقرار لم يكن — على مايبدو — كاملا أو متكاملا اذ لم نعثر مثلا على أى مقابر . ولعلها اندثرت بفعل الرطوبة التى لا تساعد على حفظ المواد الأثرية سليمة لمدة طويلة . وأما عن رأس شمرة ( أو جاريت ) فقد أجرى فيها العالم الأثرى الفرنسى شيفر( Cl. F.A. Schaeffer) تنقيبات هامة منذ عام ١٩٣٣ ونشر نتائجها في أربع مجلدات عام ( Ugaritica ) ١٩٦٢ . وقد كشفت دراسة الطبقات البالغ سمكها حوالى ٢٠ مترا عن مراحل حضارية مختلفة . ويتراوح تاريخ عصرها النيوليثى بين أواخر القرن الثامن ( ٧٢٩٢ق٠م) وبين الألف السادس (٥٥٢٨ق٠م) .

وتتمثل حضارة لبنان في عصره النيوليثى في بضعة مراكز في مقدمتها بيبلوس ( جبيل ) التى تستمد أهميتها من وفرة ما اكتشف فيها من آثار تنتمى الى ذلك العصر . وقد أجرى فيها دينان ( M. Dunand ) حفائر منذ عام ١٩٣٤ ونشر نتائجها في خمسة مجلدات عام ١٩٥٨ . وقد تبين أن العصر النيوليثى مر هناك بثلاث مراحل ترجع أقدمها الى أوائل الألف السادس( بين ٥٠٤٣ و ٤٥٩٢ ق٠م) . وكان موقع بيبلوس على البحر عاملا من عوامل توفير الحماية للقرى التى نشأت حولها . وتكشف أطلال هذه القرى عن مساكن مستطيلة الشكل مبنية فوق أساسات حجرية . وقد طليت

أرضية حجراتها بالملاط ، وكشفت أيضا عن آثار بعض مواقد أو أفران . وبالاجمال فان محاول الأثريين قد أزاحت النقاب عن كل ما يثبت معرفة أهل بيبلوس بالزراعة ، واستقرار الحياة ، وكذلك معرفة صناعة الأوانى الفخارية بل وصناعة المغازل فضلا عن التماثيل التى ترمز الى ربة الخصب . وقد انتشرت حضارة بيبلوس فامتدت جنوبا الى وادى اليرموك الذى تعتبر حضارته وقتئذ شعبة متفرعة من حضارة بيبلوس .

٣ — الأناضول : وتمثلها في العصر النيوليثى بضع محلات حضارية . ويأتى في مقدمتها تل تشاتال ( Çatal - Hüyük ) في سهل قونية وحاكيلار ( Hacilar ) التى تقع أيضا في الجنوب الغربى من الأناضول ) ثم مرسين ( Mersin ) في الجنوب الشرقى . وكان من الطبيعى أن تتجه أنظار الأثريين شطر الأناضول المتاخم للهلال الخصيب تقصيا لنشأة الحضارات بجنوب غربى آسيا واستكمالا لصورتها . وقد كان من بين عوائق البحث في المنطقة التضاريس الوعرة كالهضاب والجبال الكثيرة التى تمزق سطح الأناضول . لكن جهود المنقبين هناك تكللت بقسط كبير من النجاح واسفرت عن نتائج مثيرة ، في مقدمتها قدم حضارات المنطقة . وفي رأى أحد الباحثين أن بعض مواقع الحضارة الاناضولية في العصر النيوليثى مثل تشاتال وحاكيلار عن اسبق زمنيا من مواقع الشرق الادنى القديم ، اذ تنسب الأناضولية — بطريقة كربون ١٤ المشع — الى حوالى عام ٧٠٠٠ ق.م. (١) .

ويسترعى الانتباه كبر مساحة قرية مثل تشاتال " اذ تبلغ ٣٢ فدانا مربعا ، وهى مساحة غير عادية بالنسبة لهذا العصر " . والمنازل والمعابد مبنية من الآجر ( القرميد ) على اساسات من الآجر وأحيانا من الحجر . كما يستلفت النظر ان منازل ذلك الموقع من الاناضول ليس لها ابواب ، وانما كانت تدخل من الاسقف عن طريق سلم درج خشبى . وليس هناك تعليل لتلك الظاهرة الغريبة سوى الرغبة في توفير مزيد من الحماية والأمن للسكان وتسهيل مهمتهم في الدفاع عن الموقع . ومنازل شاتال ليست في ضخامة منازل حاكيلار وليست حجرات المنازل فيها فسيحة كما هى في حاكيلار . لكن بعض هذه الحجرات مزود بمصاطب للنوم أو الجلوس أو لدفن الموتى تحتها . وكانت الزراعة وتربية

---

(١) J. Mellaart, Earliest Civilizations of the Near East, London, (1965) P. 77 .

لكن هذه النتيجة لا تزال في حاجة الى أدلة أخرى لتعزيزها كما يقول د. رشيد الناضورى في كتابه المشار اليه ، ص ١٦٢ .

الماشية والصناعة بل والتجارة هي قوام اقتصاد ذلك المجتمع الاناضولى . ونقصد بالتجارة تصدير احلتشاتال للأوبسيديان ، وهو صخر بلورى بركانى لامع شديد الصلابة كان موفورا بالمنطقة وسلعة مطلوبة في المناطق الاخرى بالشرق الادنى . ومنه كانت تصنع المرايا . وجدير بالتنويه ان انسان الاناضول في العصر النيوليثى لم يستخدم الاوانى الفخارية في بداية الامر بل كان يستخدم الاوانى الخشبية . وفي هذا أيضا كان يختلف عما درج عليه زملاوءه في بقية حضارات الشرق الادنى .

ولم تكن هذه وحدها هي نقطة الاختلاف ، اذ كان انسان الاناضول النيوليثى يتميز عن سائر اقرانه في الشرق الادنى في كثير من مظاهر الحياة الدينية أو الروحية كان يتميز باستخدام أرضيات المساكن والمعابد لدفن موتاه . وكان ينفرد بعادة أخرى مثيرة للدهشة . اذ كان يزيل لحم الميت قبل دفنه وذلك بتركه للنسور تنهش اللحم وتنزعه من العظم . ولا يدرى أحد عن يقين سر هذه العادة الغريبة ، وما سيق من تفسير ليس الا من قبيل الحدس والتخمين . لكن ليس من المستبعد — كما يظن بعض الباحثين — أن يكون ذلك لأسباب صحية أى لتجنب التعفن وما قد يترتب عليه من أوبئة . لكن هذا التعليل على وجاهته ليس مقنعا تماما . وهناك تعليل آخر لهذه العادة هو أن النسر كان طائرا مقدسا عندهم مثلما كان الثور على نحو ما سنرى بعد قليل . ومع هذا فالأمر لا يزال مبهما . وأيا كان التفسير فان عظام الميت كانت تجمع بعد ذلك وتلف بالقماش أو الجلد أو الحصير تمهيدا لدفنها . وقد لوحظ ان هذه الهياكل تدهن بمغرة حمراء في بعض الأحيان . ولا ينفرد انسان الأناضول بتلك العادة اذ يشاركه فيها انسان " سيالك" في شمال ايران . ويقال في تفسير طلاء الهياكل العظمية باللون الأحمر أو ذر الرماد الاحمر عليها بان ذلك يرمز الى استعادة الحياة مرة أخرى بعد الموت " فاللون الأحمر هو لون الدم الذى يدل جريانه على استمرار الحياة "(١) وكانت تودع مع الموتى الهدايا الجنائزية اللائقة : مع النساء أساور وعقود وحلى أخرى ومع الرجال خناجر ورؤوس سهام وأختام من الطين وغيرها من الادوات .

ولم يعثر على التماثيل الصغيرة المصنوعة من الطين أو الحجر أو الاوانى الفخارية في المقابر — كما هو الحال في مراكز الحضارات الأخرى بالشرق الأدنى

---

(١) رشيد الناضورى " جنوب غربى آسيا وشمال افريقيا ، ص ١٦٤ .

وانما عثر عليها في المعابد ، وهى أشكال حيوانية أو آدمية وتعتبر تجسيـــدات لمعبودات معينة ، وتبرز منها فكرة عبادة الارض كأم للخصوبة ، واخيرا تتميز الحضـارة الاناضولية – كما تتمثل في تشاتال – بظاهرة فريدة أخرى وهى وضع عدد من قـرون الثيران على حافات المصاطب في المعابد والمنازل ، وهى رموز أو تجسيدات لاله ثـور أو ربما كانت لغرض حماية السكان من الارواح الشريرة ، وقد يرجح الاحتمال الأول نحت بعض مناظر بالمعابد تصور الالهة وهى تلد رأس ثور أو رأس كبش ، وهو ما لا نظير لـه في أى حضارة من حضارات الشرق الادنى ، و يؤكد انفراد الحضارة الاناضوليـــة بخصائص تميزها عن بقية حضاراته .

٤ – ايران : تتمثل حضارة ايران أو بالأحرى الهضبة الايرانية أثناء العصر النيوليثـى في عدة مواقع توجد في الأودية أو على سفوح الهضاب ، ونخص بالذكر منها تبـــة سيالك Sialk ( في الوسط ) وأناو Anau ( في الشمال الشرقى ما بين بحـر آرال وبحر قزوين ) ، وتبة تلكى Telki ( في الشمال الغربى بمنطقة بحيرة فان ) ثم تـــل باكون Bakun ( في الجنوب الشرقى ) .

ويختلف كل موقع عن الآخر في تطوره الحضارى بسبب اختلاف البيئة الطبيعية البشرية . وقد توصل بعض هذه المراكز الى مرحلة الزراعة وما يتصل بها من صناعـات والى الاستقرار وبناء القرى أى توصلوا الى مرحلة الحضارة النيوليثية في نفس الوقـــت ( الألف السادس ق.م. ) . الذى توصلت فيه مواقع الحضارات الأخرى في العـــراق (قلعة جرمو وتل حسونة ) ومصر ( الفيوم الأولى ودير تاسا وغيرها ) . ومن أهـــم المكتشفات الاثرية بالهضبة الايرانية في العصر الحجرى الحديث الاوانى الفخاريـــة وان اختلفت من مكان الى مكان صناعة وشكلا وزخرفة وتلوينا . وتكشف هذه الأوانـــى الايرانية الكثيرة عن مهارة في اسلوب صناعتها . وتتميز العمارة بأن حوائط المنـــازل تتكون من كتل ضخمة من الطين على نحو ما لوحظ في بيوت قرية مرمدة بنى سلامـــة ( غربى الدلتا ) ، ومن ابرز خصائص الحضارة الايرانية المتمثلة في سيالك صنع بعض أدوات كالدبابيس من النحاس لأول مرة في العصر الحجرى الحديث ولأول مرة حتى قبل بداية عصر الحجر والنحاس والمسمى " بالعصر الخالكوليثى " . وبذلك يكون انسان تبة سيالك في ايران قد سبق اقرانه بالشرق الادنى في استغلال معادن اقليمه . ولا بـــد

أن استخدام النحاس قد اقتضى منه التوصل الى طرق تعدينه وطرقه وتشكيله وتطويعه لغرضه. وثمة قرائن على اهتمام هذا الانسان الايرانى بمآله بعد الموت اذ كان يدفن موتاه كزميله بالاناضول في ارضية المنازل. كذلك كان مثله يطلى جثة الميت بمغرة حمراء. وكان يودع معه في القبر بعض مقتنياته الدنيوية كالفأس التى نجدها مرة موضوعة في يد الميت لكى يتمكن من استخدامها مباشرة عندما يهب من رقاده الطويل. وينهض ذلك كله دليلا على ايمان انسان هضبة ايران في العصر النيوليثى بالبعث وحياة أخرى بعد الموت. لكن هذه الفكرة لم تختمر عنده أو عند زملائه في حضارات الشرق الادنى اختمارها في ذهن الانسان المصرى في ذلك العصر. اذ تطورت عند الأخير منذ وقت مبكر تطورا جعله لا يعتقد فقط بخلود الآلهة بل بخلود البشر أيضا.

وفي رأى بعض علماء الاثنولوجيا (علماء الاجناس البشرية) ان انسان "سيالك" ينتمى الى العنصر المسمى "بقبيل الايرانى" (Proto – Iranian) أى يعتبرونه ارهاصا للعناصر المساة بالشعوب الهندية الاوروبية. وكأنه كان طليعة هذا الزحف الهندى – الاوروبى الذى تدفق من أواسط آسيا نحو الغرب مجتاحا ايران نفسها والاناضول وأوروبا عند حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م.

وعند هذا الموضع ننتقل الى وادى النيل لنستعرض حضاراته في العصر الحجرى الحديث الذى ما زلنا بصدده :

٥ – مصر : النيل أعظم ظاهرة جغرافية في مصر. ويصف المؤرخ هيرودوت مصر بأنها هبة النيل. وينبع ذلك النهر العظيم في الجنوب ويجرى متجها صوب الشمال على عكس كثير من انهار العالم على نحو ما لاحظ "أبو التاريخ". ويأتى النهر بالماء والغرين فيعم الخير انحاء البلاد. ويأتى في كل سنة في وقت معلوم، ويحدث فياضانه في الصيف بالغا ذروته في أغسطس (آب) حين يحتفل بعيد وفاء النيل. ولكن هذا النهر قد يأتى فيضانه معتدلا أو منخفضا أو عاليا. كان ذلك يحدث منذ آلاف السنين. وكان الانسان في مصر يترقب وصول الفيضان ويراقبه حتى لا يؤخذه ارتفاعه المفاجئ على غرة فيغرق الأرض والزرع. ومن ثم فان النيل كان يعطى ولكنه كان يحتاج الى جهد ليفيد الانسان من عطائه. كان النيل بفيضانه العالى يتحدى سكان بيئة الوادى.

وكان لابد من أن يستجيب الاهالي لهذا التحدى . وتلك باختصار هي نظرية المؤرخ الكبير توينبى (A. Toynbee) الذى يفسر بها قيام الحضارات في أودية الانهار الكبرى في وقت مبكر : في وادى النيل ، في ارض الرافدين ، في حوض نهر السند ، في حوض نهر هوانج هو ونهر يانجتسى بالصين . وتسمى نظريته بنظرية " التحدى والاستجابة" ( Challenge and Response ) . لقد حاول الانسان في وادى النيل وفي غيره من وديان الانهار سالفة الذكر ان يقابل هذا التحدى في بيئته بمحاولة التحكم في مياه النهر بشتى الوسائل كانشاء السدود والجسور والقنوات والأحوسة والقناطر .

وبهذه المقدمة الموجزة نمهد للعصر الحجرى الحديث ( النيوليش ) في مصر ومراكز حضارته سواء في مصر العليا ( الصعيد والفيوم ) أو مصر السفلى ( الدلتا ) . ومع كثرة عدد حضارات مصر في عصر ما قبل تاريخها الذى ينتهى عند حوالى عام ٣٢٠٠ ق.م. فلا ينتمى الى العصر النيوليثى الصميم ( ٦٠٠٠ – ٤٠٠٠ ق.م ) سوى عدد قليل من هذه الحضارات التى تمثل كل منها فترة زمنية ساد فيها اسلوب حضارى معين ذو تقاليد صناعية وحضارية مميزة للهيئة والمجتمع الذى نشأت فيه تلك الحضارة . وتنسب هذه الحضارات النيوليثية الى المواقع الآتية :

في مصر العليا ( الصعيد والفيوم ) :

١ – دير تاسا ( بمحافظة اسيوط ) حوالى عام ٦٠٠٠ ق.م.

٢ – البدارى ( قرب الهمامية بمحافظة اسيوط ( حوالى عام ٥٠٠٠ ق.م )

٣ – حضارة الفيوم الأولى ( = الفيوم أ ) قبل عام ٦٠٠٠ ق.م. ( ؟ ) –

وفي مصر السفلى ( الدلتا ) :

١ – العمرى ( = حلوان الاولى )

٢ – مرمدة بنى سلامة ( بالقرب من الخطاطبة غرب الدلتا ) عصر نيوليثي صميم .

وأما الحضارات التالية فتنتمي الى العصر الخالكوليثي (بعد ٥٠٠٠ — ٣٢٠٠ق٠م٠) الذى يتضمن عصر ما قبل الاسرات (٤٠٠٠ — ٣٢٠٠ق٠م٠) [1] على نحو ما سيأتي ذكره فيما بعد ٠

ويمكن القول بأن العصر الحجرى الحديث بدأ في مصر حوالى عام ٦٠٠٠ق٠م٠ ولا تدل قلة الحضارات المكتشفة في الدلتا في العصر النيوليثي وحتى عصر ما قبل الاسرات على انها كانت اقل حضارة من الصعيد ٠ وربما كان العكس هو الصحيح ، فقد كانت الدلتا في ذلك العصر أكثر تقدما اذ توافر لها من مقومات الحضارة ما لم يتوافر للصعيد ،فارضها الزراعية اكثر اتساعا ،ومناخها اكثر اعتدالا وصلاتها الثقافية ميسرة بجيرانها في الشرق والغرب والشمال ٠ ولهذا كان عدد سكانها اكبر وقراها أعظم٠ غير أن طمى النيل غطى معظم آثار هذا العصر بالدلتا بسبب استواء سطحها وقرب مستوى ارضها من مستوى ماء النهر ،في حين انه لم يستطع أن يفعل ذلك في الصعيد لأن قرى الصعيد كانت تبنى في اماكن مرتفعة عن منال الفيضان ٠ ولا تستطيع أن نعثر في الوقت الحاضر على آثار العصر الحجرى الحديث بالدلتا الا عند اطرافها بالقرب من حافة الصحراء حيث توجد بعض الاكمات التى قامت عليها قرى مرتفعة في هذا العصر ٠

وأما عن حضارة الصعيد الجنوبى الممثلة في دير تاسا والبدارى فان آثارها التى اكتشفت تدل على قيام مجتمع زراعى مستقر ومن بينها الاجران ومخازن القمح ٠ لكن مجتمع دير تاسا كان يمارس ايضا حرفة الصيد في البروالنهر ٠ ومعنى هذا أن مجتمع تاسا كبقية المجتمعات المعاصرة له أو السابقة عليه قد انتقل من مرحلة جمع الطعام الى مرحلة انتاجه ،وبالتالى الى بناء القرى وتوفير مختلف ضرورات الحياة المستقرة ٠ لكن معلوماتنا أوفر عن عاداته الجنائزية ٠ اذ نجد جبانات دير تاسا منتشرة في الصحراء الشرقية المتاخمة فكانت مستقلة عن مساكن الاحياء مما يشير الى تفوق هذا المجتمع على مجتمع مرمدة بنى سلامة بمصر السفلى في هذا الصدد ٠ وكانت المقابر مستطيلة الشكل ٠ وكان الميت يلف في الجلد أو القماش أويضع في سلة مصنوعة من الاغصان وتغطى بالحصير ٠ وكثيرا ما توضع تحت رأس الميت وسادة من القش أو النخالة أو الجلد ٠ وقد عثر في احدى المقابر على فجوة بها تسع اوان فخارية ٠ ولعل تلك الفجوة كانت ارهاصا

---

(١) وربما حتى ٣٠٠٠ ق٠م٠

معماريا لتلك المخازن التى كانت تلحق في العصر التاريخى بحجرة الدفن لخزن ما قد يحتاج اليه الميت من مئونة في العالم الاخر .

ويتميز فخار تاسا بالاقداح التى على شكل الناقوس . وربما كان ذلك يعكس اتجاه الصانع الى محاكاة شكل الوعاء الجلدى الذى كان يستخدمه في بداية الأمر . كانت تلك الاقداح تزخرف بخطوط محفورة في سطح الاناء وتملأ بطلاء ابيض . وقد ابتكر اهل حضارة تاسا ، الى جانب هذه الاقداح المتميزة ، نماذج جديدة من اللوحات وأدوات الزينة .

وأما في الفيوم - وهى عبارة عن منخفض عميق فسيح أو بالأحرى واحة منخفضة وسط الصحراء ومتاخمة للنيل - فان مجتمع الحضارة المسماة بالفيوم (أ) أو الفيوم الأولى " يمثل بداية نشأة القرى والاستقرار الكامل بمصر . فقد اتجه انسان هذه المنطقة وقتئذ الى شواطىء بحيرة قارون ( المسماة الآن بركة قارون ) حيث كانت مياه البحيرة الآخذة في الانحسار ( بسبب البخر ) تاركة مساحة فسيحة من الاراضى الخصبة.(١)
وقد استغل انسان الفيوم هذه الظروف المواتية التى استجدت نتيجة انتهاء العصر المطير وبداية مرحلة الجفاف . فزرع الارض وبنى القرى واستقر بالمنطقة . ويتبين من الحفائر التى اجريت في الاكوام بالشمال الشرقى من البحيرة ان الانسان تمكن من صنع الآلات الحجرية اللازمة لحياته الزراعية الجديدة كالرحى والمناجل والفؤوس كذلك ادوات الصيد كالسهام والرماح والاوانى الفخارية والسلال . وكان يحفر حفرا يحرق فيها سيقان النباتات البرية أو المزروعة لكى يحصل على النار لطهو طعامه . واهم من ذلك اقامته مخازن لحفظ القمح والشعير . وقد يستدل من ذلك على نشأة نوع من التعاون أو التفكير الجماعى . وقد عثر الاثريون على بعض حبات القمح المتفحمة . كذلك وجدوا بقايا جلود وقماش . ولم تكتشف حتى الآن مقابر بهذه المنطقة .

وتمكن الانسان في " مرمدة بنى سلامة " - غربى الدلتا - من بناء قرية كبيرة المساحة بالقياس الى غيرها من المواقع الحضارية في العصر النيوليثى بمصر . وقد اتضح ان الموقع ينقسم الى ثلاث طبقات ( أثرية ) . ولم يعثر في الأولى الا على بعض مواقد ومقابر وبعض الشقف . وفي الوسطى عثر على عدد من الحفر يتضح منه أن

---

(١) كان سطح البحيرة قديما أعلى من مستوى البحر بحوالي ١٥ مترا . ولكنه الآن ينخفض عن سطح البحر بحوالي ٤٥ مترا .

المساكن ربما كانت بيضاوية الشكل ومقامة على عمد من الخشب . اما المنازل في الطبقة الثالثة العليا فهي بيضاوية الشكل أيضا ومبنية من الطين ، وبطريقة تدل على تفوق في التنظيم الاجتماعي . كذلك عثر على مخازن للقمح ملحقة بالمساكن أو مجاورة لها وقد عرف مجتمع مرمدة بني سلامة زراعة القمح ، وتربية الاغنام والثيران والخنازير . وتكثر عنده تربية الحيوان الاخير بينما لم تكن منتشرة في مصر العليا . كذلك احترف المرمديون بعض الوقت مهنة الصيد في البر والنهر ، وكان من بين الحيوانات البحرية كلب الماء الذى انقرض الآن تماما .

وتختلف صناعة الفخار في مرمدة اختلافا بينا عن صناعته في دير تاسا والبدارى بمصر العليا . فالاوانى المصقولة الحمراء أو السوداء نادرة بينما تكثر الاوانى الرمادية الباهتة ذات البقع السوداء . كذلك تكثر الاوانى البيضاوية والمخروطية والتوأمية والملاعق . وحجم الاوانى غير كبير بوجه عام ولكن يوجد بينها مواجير كبيرة . وكذلك وجد عدد كبير من الاوانى ذات القواعد الحلقية في حين أن هذا النوع نادر في الصعيد . وصنع أصحاب حضارة مرمدة الآت من الصوان كالمناجل التى تصنع بتثبيت اسنان من الصوان في يد خشبية ، وكالمكاشط والمدى والسهام . وكان الشطف ذو الوجهين هو الاسلوب السائد في صناعة الآت مرمدة . هذا فضلا عن ادوات من العظم كالابر والمثاقب والسنانير ، وادوات اخرى للزينة كالخرز والاساور والخواتم العظمية والاصداف المثقوبة . ولم يكتشف النحاس ابدا في مرمدة بنى سلامة مما يجعلنا على يقين من أن حضارتها تنتمى الى اوائل العصر الحجرى الحديث لا الى أواخره .

واخيرا تتميز حضارة مرمدة بظاهرة غريبة هى ان المقابر توجد داخل نطاق قرية الاحياء ومتاخمة للمساكن بل ربما في داخلها . وهذه عادة غير مصرية ــ ولم تعرف الا في هذا الموقع . وكانت جثة الميت تثنى في شكل القاعد القرفصاء ، وتوضع رأسه متجهة نحو الجنوب . وتدل مساكن مرمدة بنى سلامة وكذلك الحضارة المعاصر لها في الفيوم ــ وكلاهما يعتبر حتى الآن اسبق زمنيا من حضارة تاسا ــ على أن القرى كانت كبيرة المساحة . وهذه ظاهرة تميز قرى الدلتا بوجه عام في العصر النيوليثى عن قرى الصعيد التى كانت اصغر منها مساحة بكثير .

* * *

## الفصـــل الخامـــس

### "العصر الحجرى النحاسى ( الخالكوليثى )"

### ( حوالى ٤٠٠٠ — ٣٠٠٠ ق٠م)

يسمى بعض العلماء نهاية العصر الحجرى الحديث الذى ظهرت فيه بعـــض الآلات المعدنية وعلى الأخص النحاسية باسم "عصر الحجر والنحاس"، وحضارته بالحضارة الخالكوليثية (١) أو "الانيوليتية". (٢) وقد يطلق على هذا العصر أحيانا اســم "عصر النحاس" أو عصر بداية المعادن" . ويبدو أن الآلات النحاسية ظهرت أول مـا ظهرت في وسط آسيا ( القوقاز ) وايران، وكذلك في قبرص ( قبل ٥٠٠٠ ق٠م )، وبعدئذ في أقطار الشرق الأدنى الأخرى ( بعد ٥٠٠٠ ق٠م ٠ ) ثم انتقلت الـى جزر البحر الايجى وبلاد اليونان، وأخيرا الى جنوب أوربا ووسطها ثم شمالهـــا ( ايرلنده ) . وكان استعمال الذهب معروفا . ولعله كان معاصرا لاستعمال النحاس لأنه وجد هو الآخر في مقابر هذا العصر . وكانت مناجم الذهب الهامة توجد فـــي وادى الدانوب وصحراء سيناء ووادى العلاقى بالنوبة وفي ايرلنده . وقد ظل هـذان المعدنان وحدهما مستعملين فترة طويلة . ولم تعد معظم الأدوات الأولى المصنوعة منهما أن تكون أدوات للزينة حيث أن المعدن لم يكن وقتئذ الا مجرد مادة لصنـــع أدوات الترف . ويلاحظ أن الكلمة التى تدل على النحاس في كثير من اللغات الأوربية ( مثل copper في الانجليزية ) مشتقة من الصفة التى كان الرومان يصفون بهـــا النحاس ( aes ) اذ كانوا غالبا ما يصفونه بالنحاس القبرصى ( aes Cyprium )٠ ففي قبرص ( Cyprus ) — التى اشتق من اسمها اسم المعدن في اللغات الأوروبيـة — كان عصر النحاس قديما جدا . ولدينا شواهد كثيرة على التجارة في سبائك النحـــاس بأنحاء حوض البحر المتوسط . ومن الأسلحة النحاسية التى تميزت قبرص بصناعتهـــا الخنجر القبرصى ذو السن الطويلة المقوسة ( الى الخلف ) .

---

(١) خالكوليثى كلمة يونانية الاشتقاق تتركب من جزأين : خالكوس ( chalkos ) بمعنى نحاس، وليثوس ( lithos ) بمعنى حجر .

(٢) انيوليثى كلمة تتركب من جزأين : آينيوس ( aeneus ) وهى صفة لاتينيـــة بمعنى نحاسىّ، وكلمة " ليثوس " اليونانية بمعنى حجر .

غير أن استعمال النحاس لم يحدث تغييرا فجائيا في حياة الانسان لأن هذا الاستعمال حدث بالتدريج ولا يعزى الى غزوات بل كان نتيجة لانتقال الحضارة بعد اتصال الشعوب بعضها بالبعض الآخر . ويلاحظ أن الآلات والأسلحة النحاسية التي تنسب الى العصر الخالكوليثي قليلة في جملتها ، والموجود منها يكشف عن محاولة الصناع محاكاة شكل الآلات الحجرية المتداولة في العصر الحجرى الحديث. والنحاس وحده معدن رخو لا يصلح لعمل أسلحة قوية . لذلك لم يحدث اكتشافه — على نحو ما ذكرنا — أى تغيير جوهرى في حياة الانسان في أى منطقة من المناطق التي اشتهرت به . وعلى الرغم من نشاط حركة استخراج النحاس من الأرض واستخدامه في صنع بعض الأدوات والآلات الا أن ذلك لم يضع حدا لصنع مختلف الآلات من الأحجار الصلبة المتينة كالصوان والأوبسيديان ، ولا أدى الى توقف البحث عن أنواع أخرى نادرة أو كريمة كالملاكيت ( كحل العيون الشهير عند قدماء المصريين ) والراتنج والجمشت والعقيق وعين الهر واللازورد .

حضارات الشرق الأدنى في عصر الحجر والنحاس
( بعد ٥٠٠٠ — ٣٠٠٠ ق م )

ذكرت من قبل أن عصر النحاس يبدأ بوجه عام عند حوالى ٤٠٠٠ ق.م. لكن النحاس عرف في الشرق الأدنى القديم قبل ذلك التاريخ بمدة طويلة أى منذ حوالى عام ٥٠٠٠ ق.م. بل انه استخدم لأول مرة في " سيالك " بايران قبل التاريخ الأخير ، حيث أن هذه المنطقة الايرانية كانت غنية بهذا المعدن . هذا العصر الخالكوليثى يمتد من بعد ٥٠٠٠ الى ٣٠٠٠ ق.م . لكن الباحثين يقسمونه قسمين اذ يضعون الألف سنة أو أقل التي تسبق عام ٤٠٠٠ في قسم بوصفه يمثل أوائل ذلك العصر ، ويضعون الألف عام التالية ( ٤٠٠٠ — ٣٠٠٠ ق.م ) في قسم على حدة ويطلقون عليه اسم " عصر ما قبل الأسرات " وعلى الأخص في كل من العراق ومصر . بل ان بعض هوءلاء الباحثين يقسم " عصر ما قبل الأسرات " نفسه الى فترات أو مراحل حضارية ثلاث : أولى وثانية ثم أخيرة ( وهى " ما قبيل الأسرات " ) . ولنستعرض مظاهر هذا العصر الحجرى النحاسى كما ظهرت في العراق وسوريا : ( أى فلسطين وسوريا ولبنان ) ثم مصر .

١ — العـــراق :

تتمثل حضارة القسم الأول من هذا العصر في بعض مواقع نخص بالذكر منهـا تل حلف ( جوزانا القديمة ) بجوار رأس العين عند منبع الخابور في شمال أرض الرافدين . وتسمى الآن " بحضارة حلف " . وكان مركزها يشمل المنطقة الممتدة من الموصل الحالية بشمال شرق العراق الى وادى الخابور في أقصى شرقي سوريا . ولم تمتد هذه الحضارة الى قلب ايران نظرا لوجود حواجز طبيعية وهى جبال زاجريوس . كذلك لم تمتـد الى جنوب العراق لأنه لم يكن قد أصبح مأهولا بالسكان . لكن تيار حضارة حلف اتجه جنوبا حتى شانيدار ( عبر الخابور ) فقط، وغربا حتى أوجاريت ( رأس شمره ) علـى الساحل السورى . ثم امتد الى قيليقية في جنوب شرق الأناضول .

ولا يمثل هذه الحضارة تل حلف وحده بل تمثلها مواقع أخرى من بينهـا أربجية (١) وتبه كورا ( Tepe Gawra ) ، وجيرابلس ( قرقميش القديمـة ) وسامّرا . وتتميز " حضارة حلف " بالأوانى الفخارية الملونة التى تشهد بتفوق أصحـاب هذه الحضارة في هذا المضمار . وهى متعددة الأشكال والألوان والزخارف وقلمـا تخلو من الألوان أو الزخارف . ومعظم الزخارف هندسية . ونجد بينها رسما فريـدا في نوعه وهو رسم مركبة على أحد الأوانى الفخارية . وقد ينهض دليلا على اختـراع المركبات ذات العجلات في ذلك الوقت المبكر. لكن صناعة الفخار لم تبلغ عند أصحـاب حضارة حلف ، برغم تفوقهم في هذا المجال ، ما بلغته من مستوى عند أصحـاب " حضارة سامرا " ( المتاخمة للدجلة ) في وسط العراق . والى جانب الآلات والأدوات الحجرية والطينية والعظمية ، صنع أهل حلف أدوات نحاسية . وجديرة بالتنويه تلـك الولايات الحجرية ذات الأختام وهى عبارة عن أحجار منقوشة وفيها ثقوب ليسهـل تعليقها في العنق . وكانت تستخدم كأختام مما يدل على أهمية التعامل التجـارى عند أهل حلف في تلك المرحلة المبكرة من تاريخ بلاد الرافدين . وتعتبر تلـك الأختام خطوة رئيسية ، وان كانت أولية ، في التطور نحو التعبير عن المعانى بالرمـوز ثم الكتابة التصويرية في المراحل التالية . كذلك ابتكر أصحاب حضارة حلف أختـام الطابع ابرازا لفكرة الملكية الشخصية . وقد اكتشفت بعض " انطباعات " تلك الاختـام على الطين .

---

(١) تقع أربجية على بعد ٧ كم شمالى كينجك ( نينوى القديمة ) .

وفي أربجية — احدى محلات حضارة تل حلف — انتشر طراز معماري خاص يسمى بطراز الحجرة المستديرة ( Tholos ) ،وهي مباني أساسها من الحجر، وحوائطها من الطين في الغالب . وتتكون من حجرة مستديرة الشكل يبلغ قطرها حوالي خمسة أمتار ونصف متر . ويتصل بالحجرة درب أو ممر ( dromos ) . ولا يتضح حتى الآن الغرض من مثل هذه الحجرات المستديرة ،وان كان يعتقد أنها كانت لغرض ديني متصل بعبادة الهة الأمومة . وقد يعزز هذا الاعتقاد وجود تماثيل نسائية صغيرة يرجح أنها ترمز الى فكرة الأمومة والخصب . وبعض هذه التماثيل هي لنسوة حوامل . وقد اكتشفت تحت هذه الحجرات المستديرة مقابر ،وكذلك تحت أرضيات المساكن نفسها . وقد أودعت مع الموتى احتياجاتهم من أوان فخارية وأدوات أخرى لازمة . هذا الى جانب المقابر المستقلة البعيدة عن المساكن . وفي تبه كورا استخدم أحد الآبار كمدفن جماعي .

وتتمثل حضارة العراق في القسم الثاني من عصره الخالكوليثي والمسمى احيانا بعصر ما قبل الأسرات ( ٤٠٠٠ — ٣٠٠٠ ق.م ) في ثلاثة مراكز متعاقبة زمنيا وهي : عصر العبيد ( Ubaid ) وعصر الوركاء ( Uruk – Warka ) ،وعصر جمدة نصر . ويتفق العصر الأخير ( جمدة نصر ) مع "عصر ما قبيل الكتابة" . ويقابل "عصر ما قبل الأسرات" في العراق بفتراته الحضارية الثلاث "عصر ما قبل الأسرات" بفتراته الأولى والثاني والأخيرة في مصر .

وأما عن حضارة العُبيد فقد نشأت أصلا في جنوب أرض الرافدين ،ولكنها امتدت الى شمالها ،فكانت بذلك أول حضارة في العراق القديم تنتشر في الجنوب والشمال معا . وأهم مواقعها في الجنوب ( الى جانب العبيد ) هي اريدو Eridu ( تل أبو شهرين ) وأور Ur ( تل المقيّر شرقي العبيد ) وقلعة حاج محمد . وأما في الشمال فقد اكتشفت آثار هذه الحضارة في تبة كورا ،ونوزي ( قرب كركوك ) ،وتل حسونة ونينوى ( كيجنك الحالية ) وحلف وغيرها . وكان أصحاب حضارة العبيد هم أول قوم استقروا في جنوب العراق واستغلوا أرضه البكر . وتعتبر حضارة العبيد أساس التطور الحضاري الهام في جنوب العراق في المرحلة الحضارية التالية . ومن ثم ينبغي قبل المضي في انجازات هذه الحضارة أن نتصدى لسؤال هام عن أصل هؤلاء القوم الذين صنعوا حضارة العبيد وموطنهم الأصلي

حيث أنه من المتفق على أنهم لم يكونوا أصلاء في أرض العراق . كانوا قوما غرباء وفدوا الى العراق من الشرق أى من ايران وربما من مكان أبعد من ايران . لقد جاءوا — على ما يرجح الآن — من مكان لا يبعد كثيرا عن شمال الهند . وقد جاءوا برا عبر مرتفعات جنوب ايران وبحرا أيضا . وقد يعزز ذلك ما لوحظ من تشابه بين ملامح حضارات وادى السند مثل " موهنجدارو " وملامح حضارة العبيد في جنوب العراق . ولئن صح هذا يكون هؤلاء القوم هم السومريين ويكون العنصر السومرى هو صاحب اليد الطولى في بناء حضارة العبيد التى تمثل أقدم حضارة في جنوب العراق . وكانت بدورها ارهاصا للحضارة السومرية ،أولى حضارات العصر التاريخى في بلاد الرافدين .

وقد أنشأ أصحاب حضارة العبيد الجنوبية أولى قراهم في موقع جاف نسبيا حيث أن المنطقة كانت مليئة بالمستنقعات ومطمورة بالرواسب الطميية . ولما كان فيضان الدجلة والفرات — على نقيض النيل — لا يأتى بانتظام فقد كان على السومريين أن يستجيبوا لتحدى الطبيعة ببناء الخزانات وحفر الترع وبناء الجسور . وقد كللت جهودهم بالنجاح وأثمرت الأرض وعم الرخاء . لقد جاءوا الى العراق حاملين معهم بعض عناصر حضارية ناضجة وبعض فنون راقية . كان السومريون على قدر من المهارة الفنية وقدر أكبر من النضج أو التكامل الاجتماعى . وقد تمكنوا من انشاء سلطة سياسية ترعى المشروعات العامة كضبط فيضان الفرات وتنظيم توزيع المياه . وأنشأوا قرى ثابتة وعرفوا زراعة الشعير .وصنعوا آلات من الصوان والأوبسيديان . كذلك صنعوا باليد أوانى من الفخار الملون باللون البرتقالى الفاتح أو الأخضر والمزين بزخرفة هندسية . وصنعوا اتماثيل من الطين لاناث ( بعضهن يحملن أطفالا ) ويرمزن في أغلب الظن لالهة الخصب . وتستلفت النظر بعض التماثيل برؤوسها الشائهة الغريبة اذ تبدو ساخرة أو مخيفة . وربما كانت تستخدم كتمائم ورقى سحرية لطرد الأرواح الشريرة .

وعثر على أطلال منازل ومعابد ومقابر مبنية باللبن . وتتميز المعابد في الجنوب كما في الشمال بالفجوات أو الكوات المنتظمة في الجدران ،وهى ظاهرة معمارية تميزت بها العمارة السومرية وامتد تأثيرها الى مصر في عصر ما قبل الأسرات . وبعض حجرات المعابد مطلية باللون الأبيض . وأما المقابر فكانت تبطن بالحصير أحيانا . وكان أصحاب حضارة العبيد يمارسون عادة دفن الجثث كما هى ( inhumation ) أو حرقها ( cremation ) ثم وضع الرماد المتخلف في قوارير . لكن يسترعى النظر

في الموطن الشمالي لحضارة العبيد أمران أحدهما وجود مقابر خاصة لدفن أجزاء من الجثة ،والآخر وجود مقابر كثيرة للأطفال داخل المقابر . فهل كان القوم هنـــاك يمارسون عادة التضحية بالبشر وتقديمهم قربانا للآلهة ؟

وقد ظل مركز حضارة العبيد مزدهرا أكثر من قرنين الى أن أغرقها طوفـان كبيرعند حوالى عام ٤٠٠٠ ق.م تاركا وراءه ارسابات من الطمى عميقة . لقد بـذل أهل حضارة العبيد كل جهدهم لضبط مياه النهرين . وعبدوا انكى ( Enki ) الذى سمى فيما بعد ايا ( Ea ) وهو اله الماء . عبدوه استرضاء له ولكى يدرأ عنهم خطـر المياه .لكن ذلك كله لم يجد فتيلا . وحدث الطوفان . ومنذ ذلك الحين نشأت قصة الطوفان وصارت على كل لسان . وكانت طوفانات العراق كثيرة في عصر ما قبل التاريخ وفي بداية العصر التاريخى . وقد ورد في قائمة الملوك السومريين في بدايـة التاريخ ذكر لطوفان كبير . واذ كانت الطوفانات يوصف أكثرها بأنها كبيرة فمـن العسير أن نتعرف على تاريخ طوفان " نوح " المشار اليه في الكتب السماوية .

ويتمثل القسم الثانى من عصر العراق الخالكوليثى ،والمسمى بعصر ما قبـل الأسرات في موقع الوركاء بوجه خاص . والوركاء هو الاسم الحديث لاسم أوروك Uruk القديم . وقد ذكر الاسم الأخير في صورة ارك Erech في التوراة . ولا تنحصـر الحضارة في الوركاء وحدها بل تظهر في عدة مواقع أخرى تقع أيضا في الجنوب مثـل لجش lagash ( تل اللوح ) ،وأور Ur ( تل المقيّر ) واريدو Eridu ( أبو شهرين ) . ويتبين من حضارة الوركاء بعض ملامح جديدة تنم عن مجيء قوم جـدد الى جنوب العراق . وليس من المستبعد أن يكون هؤلاء القوم هم الطلائع الأولـى للهجرات السامية من شبه الجزيرة العربية . لكن الطابع السومرى كان لا يزال هـو الغالب حينئذ على حضارة الوركاء . ويلاحظ أن الأوانى الفخارية أصبحت تصنـع بواسطة عجلة الفخارى ( Patter's wheel ) ،وهو ابتكار على جانب كبير مـن الأهمية . كما صنعت أدوات من النحاس،واستخدمت الحجارة في البناء.ويمتاز فخـار الوركاء بخلبة اللونين الرمادى والضارب الى الحمرة ،وتناسق أشكاله لأنه مصنـوع ــ على نحو ما ذكرنا ــ بعجلة أو دولاب الفخارى .

وتمثل حضارة الوركاء مرحلة بالغة الأهمية من مراحل التكوين الحضارى في تاريخ الرافدين . كانت أبرز معالم هذه الحضارة — بصرف النظر عن الأواني الفخارية والأدوات النحاسية — هي بداية بناء المدن لأول مرة على الرغم من انطمار الأرض بالارسابات الغرينية ، وطغيان مياه بحر الخليج الملحة على مياه الرافدين العذبة . غير أن السومريين كانوا — على نحو ما المعنا — يتصفون بالقدرة على التنظيم فاستطاعوا التحكم في القوى المائية العاتية الى حد كبير . لكن أهم من ذلك هو التعاون الذى قام بينهم وبين الوافدين الجدد من الساميين . لقد قام بين القومين ما يشبه التعايش السلمي ، وتضافرت جهودهما من أجل البناء والتعمير . وكان السومريون متفوقين سياسيا وحضاريا . لكن لن يلبث الساميون أن يفرضوا أنفسهم بالتدريج ، ويفرضوا لغتهم في مجالات التعامل ، وان ظلت اللغة السومرية ( وهى غيرسامية ) تدون بها النصوص الدينية والأدبية . وسنلاحظ تناوب السيادة بين هذين الشعبين السومريين والساميين في القرون التالية على أرض الرافدين .

ولا يمكن لمن يدرس حضارة الوركاء أن يغفل تلك الظاهرة المعمارية الدينية المسماة بالزقورات ( Ziggurat ) والتى ذاع صيتها ذيوع اهرامات مصر مع الفارق في القياس . والزقورات هى المعابد المدرجة . كان المعبد من هذا الطراز عبارة عن مبنى موجه الى الجهات الأربع الأصلية . وكان يبنى من الآجر ، ويتألف من ثلاث درجات يصل بينها سلم يؤدى الى القمة حيث توجد الحجرة المقدسة أو قدس الأقداس . وكانت الأخيرة عبارة عن حجرة مستطيلة الشكل وملحق بها حجرات جانبية . وقد بنيت زقورات مدينة أور ( تل المقير ) في عصر حضارة الوركاء . وتختلف الآراء حول أصل هذا الطراز المعمارى ، اذ يرى فريق من علماء الآثار أنه كان متأثرا بطبيعة جنوب ايران الجبلية وهضابها العالية التى كان يألفها السومريون ، بينما يرى فريق آخر أن القصد من ارتفاع المعبد أن يكون بيت الاله قريبا من السماء أى قريبا منه لأن السماء كانت موءلهة وكان آنو ( Anu ) هو اله السماء ، وكبير الآلهة . وكان ثالوث الكون يتألف من آنو ، اله السماء ، وانليل ( Enlil ) اله الفضاء ( ما بين السماء والأرض ) ورب العاصفة في الوقت ذاته ، ثم ايا ( Ea ) اله الماء والأنهار والقنوات الذى كان من قبل يسمى انكى ( Enki ) . ولا يقل عن ذلك أهمية ما تركه لنا أصحاب حضارة الوركاء من أختام أسطوانية من الطين محفور عليها رموز تصويرية دينية ودنيوية . وكانت تستخدم لتمييز الهويات ، وتعبر عن الملكية

الشخصية . ولسنا في حاجة الى تأكيد أهمية هذه الرموز التصويرية التي كانت تباشير اختراع الكتابة ،وتعد من أهم العناصر الممهدة للانتقال أو النقلة الى بداية العصر التاريخي .

وتتمثل الفترة الأخيرة من حضارة العراق في عصر الحجر والنحاس في عدة مواقع أهمها جمدة نصر ( وهو تل جنوب بغداد ) التي تكمل حضارتها حضارة الوركاء ، وتعتبر المرحلة الأخيرة من عصر ما قبيل الكتابة . ولعل أبرز ظاهرة في عصر حضارة جمدة نصر هو اتساع دائرة الصلات الخارجية . اذ امتد تأثير تلك الحضارة شرقا حتى عيلام وايران والسند ،وجنوبا حتى منطقة الخليج العربي وحضرموت،وغربا حتى الصومال ومصر . ويلاحظ أن حضارة جمدة نصر كانت خليطا أو مزيجا من عناصر سومرية وعناصر سامية .

٢ - فلسطين :

نشأت فيها أثناء ذلك العصر ( الخالكوليثي ) ثلاث حضارات محلية مرت بثلاث مراحل : الأولى في أريحا ووادى غزة ،والثانية في تليلة الغسول ،والثالثة في بئر سبع . وتمتد هذه الحضارات زمنيا الى أواسط الألف الرابع ( حوالى ٣٥٠٠ ق.م ) . وقد أدت معرفة النحاس واستخدامه الى تطوير الحياة بكافة مظاهرها في فلسطين أثناء هذا العصر . وتوافرت لقرى هذه الحضارات كل مستلزمات الحياة الزراعية المستقرة . ويلاحظ في الحضارة الغسولية التنوع في تصميم المنازل ،وتوسط حجمها ، وبنائها من الآجر على أسس حجرية ،ثم زخرفة حوائطها برسوم ملونة . ويستلفت النظر ذلك الرسم الملون الذى يمثل نجمة ثمانية كبيرة تحيط بها علامات ورموز غامضة . كذلك تنفرد هذه الحضارة بضع آنية فخارية في شكل المنازل الدائرية الأسقف . ولعلها كانت تستعمل لحفظ عظام الموتى . وكانت المقابر تغطى بكتل حجرية . واكتشف معبد كبير يتكون من حرم تحيط به المبانى الملحقة به ،وكلها مسورة بسياج من الحجر. والمعبد كبير اذ يبلغ طوله نحو عشرين مترا . ويقوم في مواجهة المعبد هيكل صغير أو مذبح دينى عثر فيه على بقايا عظام حيوانية وشقف فخارية .

وتوافرت لحضارة وادى غزة كل مقومات الاستقرار . وكان أهلها يجمعون بين مهنتى الزراعة والرعى . وقد صنعوا تماثيل ،وبنوا أجرانا ومخازن للقمح . ويسترعى الانتباه أن منازلهم كانت شبيهة بالكهوف اذ تتألف من حجرات سفلية مستديرة أو بيضاوية يصل اليها السكان بواسطة درج يؤدى اليها أو بواسطة انفاق أو آبار رأسية . وتؤدى تلك المداخل الى ممرات أفقية تتفرع بدورها الى الحجرات (١) .

وقد تميزت الفترة التالية في العصر الخالكوليثى بفلسطين بتنوع أنماط الأوانى الفخارية تنوعا يعتقد أنه نشأ عن تنوع في الأنماط الحضارية . وبعبارة أخرى يرجع الى وفود عناصر بشرية جديدة على المنطقة . وفي أغلب الظن أنه كان يوجد بينها عناصر سامية . وقد امتزجت جميعا بأهل الحضارة الغسولية . ومهد هذا الامتزاج بدوره للانتقال الى بداية العصر التاريخى . ومن الآثار الفريدة في تلك الفترة الجديدة المقابر الجماعية . وكانت هذه اما كهوفا طبيعية أو فجوات ضخمة محفورة في الصخر . وكانت المقبرة تتسع لحوالى ٣٠٠ شخص . وتدل أكوام الحطب التى عثر عليها في كل مقبرة من هذه المقابر على أن القوم كانوا يمارسون عادة حرق جثث الموتى . لكن لوحظ أيضا وجود الجماجم منفصلة حول كل كوم . ويبدو أن الجثث كانت تحرق دون الجماجم وتوضع بجوارها الأوانى الفخارية . ولا نلتقى بمثل هذه الظاهرة في مناطق الشرق الأدنى الأخرى مما يعزز الاعتقاد بأنها ترجع الى عناصر بشرية وفدت جديدا على فلسطين .

٣ — سوريا :

وأما عن سوريا فقد لوحظ أن وادى العمق قد تأثر في الفترة الأولى من عصر الحجر والنحاس بحضارة تل حلف العراقية . وفي الحق ان تأثير الحضارة الأخيرة امتد أيضا الى قيليقية والساحل السورى كما يتضح من آثار رأس شمرة . وقد امتزجت عناصر حضارة حلف مع الحضارة المحلية كما يتبين من فحص الأوانى الفخارية ودراسة المنازل . ففي جيرابلس ( قرقميش القديمة ) اكتشفت منازل دائرية الشكل مبنية من كتل طينية فوق أسس حجرية . هذا فضلا عن الآثار المتطورة التى تدل على قيام حياة أكثر استقرارا مما كانت عليه في العصر النيوليثى .

---

(١) أنظر : رشيد الناضورى ،جنوب غربى آسيا وشمال افريقيا ،ص ١٧٨ .

وقد تابعت حضارة وادى العمق في الفترة التالية تطورها الحضارى . وكما تأثرت من قبل بحضارة حلف تأثرت حينئذ بالتيارات الوافدة من حضارة العبيد في جنوب بلاد النهرين . ويتضح ذلك بجلاء من أشكال الأوانى الفخارية . وليس من المستبعد أن يكون أهل حضارة العبيد لا حتياجهم الى الخشب قد اتجهوا بأنظارهم الى سوريا حيث تتوافر تلك السلعة في شمالها . ولعل نهر الفرات قد استخدم في نقل الخشب من شمال سوريا الى جنوب العراق . وبرغم تأثير الحضارة العبيدية الا أن أنها لم تطغ على ملامح حضارة سوريا الشمالية فظلت هذه محتفظة بمميزاتها المحلية مع مسحة واضحة من الحضارة العراقية .

د — لبنـــان :

وأما في لبنان فقط ظلت حضارة بيبلوس ( جبيل ) محتفظة بخصائصها المحلية دون أن تظهر فيها أى مسحة من حضارة العبيد في تلك المرحلة . وقد عثر بين أطلال بيبلوس على أدوات نحاسية وأخرى فضية . وكان أصحاب حضارة بيبلوس في ذلك الوقت يدفنون موتاهم داخل قدور فخارية ضخمة . وشاركهم في هذه العادة أهل حضارة حماة .

وقد تابعت مجتمعات فلسطين ( أريحا ) ، وسوريا ( وادى العمق ) ولبنان ( بيبلوس ) تطورها دون أن تبلغ المستوى الحضارى الذى بلغه المجتمع في العراق أو مصر في ذلك الحين . بل ان هذه المجتمعات السورية ازداد تأثرها بتيارات حضارتى الرافدين والنيل . ففي أريحا ومجدو Megiddo ( تل المتسلم الحالية) وخربة كرك بفلسطين نلمس ازدياد التأثير المصرى والعراقى في بناء المنازل والمعابد والمقابر وصناعة الأوانى الفخارية . وقد تميز فخار تلك الفترة بزخرفة قوامها الخطوط المتموجة والمتقاطعة . ونلمس نفس الظاهرة في وادى العمق بسوريا وبيبلوس في لبنان حيث تستلفت النظر مظاهر تنم عن مدى التأثر بحضارة جمدة نصر التى سادت الطرق في الفترة الأخيرة من العصر الخالكوليثى . ويستخلص من دراسة الأدلة الأثرية اتساع نطاق الصلات التجارية والثقافية بين" سوريا " وبين العراق ومصر أثناء عصر ما قبل الأسرات .

٥ — مصـــر :

بدأ عصر الحجر والنحاس ( الخالكوليثى ) في مصر مثلما بدأ في ايـــران وتركيا والعراق وسوريا عند حوالى عام ٥٠٠٠ ق . م أو بعده بقليل . ويمثل فجـــر حضارته أو الفترة الأولى منه ( أى حتى حوالى ٤٠٠٠ ) مركزان هما البدارى والفيوم ( ب ) وكلاهما مرتبط بالآخر ارتباطا وثيقا . وقد سبق أن ألحقنا حضارة البـــدارى بحضارة تاسا التى لا شك في انتمائها الى العصر الحجرى الحديث ( النيوليثى ).(١) وفي الحق ان البداريين كانوا لا يزالون يصنعون آلاتهم من الصوان . وكانوا يتبعون في صناعتهم طريقة التشظية بواسطة الضغط (٢) . وقد صنعوا بهذه الطريقـــــة السهام العادة القلنسوية الشكل أى ذات الجناحين ، والأسلحة الرفيعة التى علـــى شكل ورق الصفصاف ، والمقاشط والسكاكين والمناجل والمناشير . وهى مشطوفة مـــن الوجهين ( bifacial ) . ومن أهم آلات البدارى الصوانية الآلات المسمـــاة بالشظية ذات الضربة الجانبية ، وهى شظية مقوسة في العادة .

وهذه المظاهر الحضارية تنتمى بداهة الى العصر الحجرى الحديث . لكـن ما يخرج البداريين عن نطاق هذا العصر ويدخلهم في العصر الخالكوليثى هو تميزهم على أسلافهم بمعرفة النحاس بعد عام ٥٠٠٠ ق . م . لقد بلغوا اذن مرحلة حضارية أحدث وأرقى من أصحاب حضارة تاسا . ومن المرجح أنهم استعاضوا عن الفأس الحجرية التاسية بالفأس النحاسية . وقد عرفوا من أسلحة القتال — الى جانب القوس والسهم — العصى القاذفة ( boomerang ) المصنوعة من الخشب ، والمقامع القرصيـــــة ( maces ) المصنوعة من الحجر الصلب والمثقوبة من الوسط لكى تركب في قطعـــة من الخشب ، وتستخدم — على ما يظن — في الضرب أو في اللعب . (٣)

وبلغت صناعة الفخار عند أصحاب حضارة البدارى درجة عالية من الاتقـــان والرقة والجمال لم تبلغها أى حضارة مصرية أخرى . ومن بينها الأوانى الحمـــراء ذات الحافة السوداء ثم الأوانى السوداء المزخرفة برسوم بيضاء هندسيـــــــــة ( مثلثات وخطوط حلزونية ) . وهذه الأوانى ذات طراز واحد هو القدح الـــــذى على شكل الناقوس وهو يكشف عن محاولة صانع الفخار تقليد شكل السلال كذلـــك

---

(١) انظر ص ٨٣ فيما تقدم .

(٢) عن التشظية بالضغط pressure flaking ، راجع ص ٤٩ فيما تقدم .

(٣) وتسمى أحيانا " برأس الدبوس " . انظر ١٠١ — ١٠٢ فيما يلى .

نجد أواني خشنة رديئة الاحتراق وتحتوى على قش كثير، وان كانت أشكالها متقنة ومتنوعة . وثمة ملاحظة أخرى هي أن بعض الأواني الفخارية تحمل علامات أو رموزا دالة على الملكية الشخصية أو ربما على شيء آخر . وتفوق أصحاب حضارة البدارى في صنع الألواح الاردوازية التي كانت تستخدم لصحن الملاكيت ( تراب نحاسي أزرق ) (١) والمغرة ( تراب حديدى أحمر ) . وكان الأول يستعمل لتكحيل العيون، والثانية كمسحوق لتجميل الوجه . كذلك اكتشفت بعض لوحات من المرمر . وعرف البداريون صناعة التماثيل . وبعض هذه التماثيل أنثوى وجد في المقابر . وهي مصنوعة أما من الطين النيء أو الطين المحروق أو العاج . وتظهر مهارتهم الفنية في صناعة أدوات كالأمشاط والدبابيس من العاج، وحبات الخرز من الكوارتز والفلسبار (٢) ، والأقراص من قشر بيض النعام، والأقراط والأساور من الأصداف .

وكانوا يدفنون موتاهم في أوضاع مقرفصة في حفر عميقة . وقد تبطن جوانب الحفر بالحصير لوقاية الجثث من الرمال المتساقطة . وقد تغطى الحفر بأغصان الشجر . ووجدت بعض الجثث مكسوة بلفائف من الجلد أو القماش . وتشير القرائن الى أن أهل البدارى كانوا يعتقدون بوجود حياة أخرى بعد الموت . وتسترعى الانتباه سحنتهم الزنجية برغم انهم كانوا حاميين . ولا يستبعد أن تكون المنطقة — الى جانب تعرضها لهجرات حامية من الغرب والجنوب — قد تعرضت حتى قبل بداية العصر التاريخي لهجرات سامية من الشرق أو حتى هجرات أخرى من الشمال . ومن المحتمل أن يكون قد حدث نوع من الامتزاج البشرى بين المصريين وبين

---

(١) يسمى "بالدهنج" في معاجم اللغة العربية .

(٢) نوع من الصوان المتبلور .

عناصر جديدة وفدت من الخارج . كذلك أزيح النقاب في البدارى عن مدافن خاصة للحيوانات ،فضلاً عن الحيوانات التى وجدت مدفونة مع الموتى . ويشير ذلك الى بداية تقديس الحيوانات بوصفها ظاهرة من الظاهرات المؤثرة في البيئة من حول انسان البدارى . وكان لهذا دلالة دينية فيما يتصل بتطور الفكر الدينى . ويستخلص من اختلاف الحيوانات بالمقابر من منطقة الى أخرى في البدارى أن العبادات بدأت تختلف باختلاف البيئة أو الاقليم .

وأما حضارة مصر أثناء الفترة التالية من العصر الخالكوليثى والمسماة بعصر ما قبل الأسرات ( ٤٠٠٠ — ٣٢٠٠ ) فتتمثل في عدة مراكز بعضها في الصعيد وبعضها الآخر في الدلتا :

في مصر العليا ( الوجه القبلى ) أو الصعيد :

١ ) حضارة العمرة ( = نقادة الأولى ) .
٢ ) حضارة جرزة ( = نقادة الثانية ) .
٣ ) حضارة سماينة .

في مصر السفلى ( الوجه البحرى ) أو الدلتا :

١ ) حضارة حلوان الثانية ( حلوان ب ) .
٢ ) حضارة المعادى (١)

---

(١) شرقى المعادى الحالية ،وتتبعها حضارة " دجلة "،وهى أيضا متاخمة للمعادى . هذا الى جانب حضارة " هليوبوليس " ( صحراء مصر الجديدة ) .

بدأت مصر في الفترة الثانية من عصر الحجر والنحاس ( الخالكوليش ) ، تتميز بالتخصص الثقافى وتحرز — كما أحرز العراق — درجة عالية فن التفوق الحضارى فى ميادين كثيرة . ومهد ذلك لقيام الحضارة التالية في عصر الأسرات . ولذلك تسمى الفترة الثانية من العصر الخالكوليش في مصر بعصر ما قبل الأسرات( ٤٠٠٠ — ٣٢٠٠ ق٠م ) ولم يعد تعبير العصر الخالكوليش يلائم الحضارة الجديدة التى اكتسبت مظهرا جديدا لكثرة استعمال النحاس وارتقاء الصناعة الحجرية والفخارية والعظمية ، وتأصل المعتقدات الدينية ، وظهور الرموز التى مهدت لمعرفة الكتابة . كذلك لم يعد من الملائم دراسة مصر في هذه الحقبة كوحدة نظرا للاختلاف البيئى بين الدلتا والصعيد وبالتالى اختلاف أحدهما عن الآخر في المظاهر الحضارية . كان الوجهان البحرى والقبلى يختلفان احدهما عن الآخر في الموقع الذى جعل الدلتا تتعرض لمؤثرات وافدة من جهات أجنبية متاخمة مثل ليبيا وفلسطين وجزر البحر الايجى ، بينما كان الصعيد محدودا بالصحارى من جانبيه الشرقى والغربى مما جعل حضارته تتطور محليا ولا تتأثر بالتيارات الثقافية الأجنبية الا تأثرا محدودا . لكن الصعيد كان على ارتباط وثيق بالنوبة التى لا تفصله عنها أى حواجز سياسية أو ثقافية بدليل أن حضارات الصعيد وجدت ممثلة فى بعض أجزاء من النوبة . لقد اختلف الوجهان اذن البحرى عن القبلى حتى في الطباع والمزاج ، بل نشأت بينهما خصومات سياسية . وحاول كل منهما قهر خصمه واخضاعه لسيطرته . ويعتقد بعض الباحثين أن أهل الشمال ( الدلتا ) قد تمكنوا قرب أواخر الحقبة التى نحن بصدد ها بفضل تفوقهم المادى وربما الثقافى أيضا من الأغارة على الصعيد وتوحيد البلاد تحت امرة حاكم من الدلتا . غير أن هذه الوحدة — ان صح أنها حدثت — لم تلبث أن انفصم عراها ، وانقسمت البلاد ثانية الى شطرين . وظلت على هذا الوضع فترة أخرى حتى قام أهل الجنوب ( الصعيد ) منادين بتوحيد شطرى الوادى ، وتمكن واحد منهم من قهر الشمال وتوحيد البلاد تحت حكمه . فكان أول ملك لمصر الموحدة .

لقد كشف الاثريون عن ثلاث حضارات بالصعيد ترجع الى عصر ما قبل الأسرات ، وهى الحمرة وجرزة وسماينة . وقد سبق أن اشرنا الى حضارى الحمرة وجرزة عند الكلام عن الطريقة التى ابتكرها فلندرز بيترى للتقويم الزمنى والمساة بالتأريخ

التنابس (١). وقد اعتبر بيترى حضارة العمرة ممثلة للفترة الأولى من عصر ما قبل الأسرات وأطلق عليها اسم حضارة "نقادة الأولى". وجعل حضارة جرزة ممثلة للفترة الثانية من عصر ما قبل الأسرات وسماها بحضارة "نقادة الثانية". وأما حضارة سماينة فتمثل عنده نهاية عصر ما قبل الأسرات أو بالأحرى تمثل عصر ما قبيل الأسرات والأسرتين الأولى والثانية ( protodynastic ) . وبعبارة أخرى هي تمثل فترة الانتقال من عصر ما قبل الأسرات الى عصر الأسرات ، وتتداخل بعض مظاهرها الأثرية مع مظاهر حضارة الأسرتين الأولى والثانية .

وتنسب حضارة العمرة ( = نقادة الأولى ) الى بلدة العمرة في جنوب العرابة المدفونة ( أبيدوس) مركز البلينا ( محافظة سوهاج ) . وقد انتشرت الى مواقع أخرى في صعيد مصر مثل هو (٢) (ديوسبوليس بارفا ) والبلاص (قرب قفط ) . ونقادة ( مركز قوص بمحافظة قنا ) بل امتدت الى ما وراء ذلك جنوبا حتى الكوم الأحمر ( وهي نخن الفرعونية وهيراكونبوليس اليونانية ) والنوبة ، وامتدت شمالا حتى المحاسنة ونجع الدير وشطب . وتشبه هذه الحضارة في سماتها العامة سمات حضارة البدارى . وكانت سحنة أصحابها لا تزال عليها مسحة زنجية أصبحت طفيفة بتأثير ازدياد الهجرات الحامية الى مصر . ولم يضع النحاس — على نحو ما ذكرنا — حدا لاستعمال الحجر . فصنع أصحاب حضارة العمرة آلات من الحجر . وكانت الفؤوس الصوانية أعم آلة عندهم . وتكثر في هذه الحضارة صناعة الالات الصوانية المسننة كالمناجل والمناشير . وتشبه بعض آلاتها الصوانية آلات حضارة الفيوم كالفؤوس والسهام المجنحة والأسلحة التي على شكل أوراق الشجر والالات المسننة . ويلاحظ أن جميع آلات هذه الحضارة مشطوفة من الوجهين ( bifacial ) . واشتهرت حضارة العمرة بأسلحة صوانية تشبه ذيل السمكة ويمكن تثبيتها في مقبض من الخشب أو العاج . ونلتقى عنا أيضا بالمقامع الحجرية القرصية الشكل ذات الحواف والمثقوبة في الوسط بحيث يمكن تثبيتها في عصا خشبية . ولا يعرف على وجه اليقين الغرض الذى كانت تستخدم فيه : الضرب أو اللعب أو السحر أو مجرد

---

(١) راجع ص ٣٣ — ٣٤ فيما تقدم .

(٢) تنطق رهو . وقد سماها اليونان ديوسبوليس بارفا أى مدينة زيوس ( = آمون ) الصغرى تمييزا لها عن ديوسبوليس ميجالى ( ماجنا ) أى ديوسبوليس الكبرى أى مدينة زيوس ( آمون ) الكبرى ، وهي طيبة (الأقصر الحالية ) .

حفر الأرض . ولابد أن أهل حضارة العمرة قد جلبوا كثيرا من هذه الآلات جاهزا من أماكن أخرى في مصر لأن منطقتهم ليست غنية بالصوان . ويؤخذ من ذلك قرينة على المقايضة أى التجارة والصناعة فضلا عن التعدين . وقد اكتشفت بين آثار العمرة أدوات مصنوعة من أحجار أخرى غير الصوان كالبازلت والجرانيت والأردواز. لقد استغل أهل هذه الحضارة امكانات البيئة المحيطة بهم/واتسعت دائرة صلاتهم الخارجية . كذلك استخدموا العاج والعظم والنحاس والذهب والفضة والرصاص في صناعة الأدوات الضرورية والكمالية هذا فضلا عن صناعة الأقمشة الكتانية والحبال والمصنوعات الجلدية .

ويتميز فخار " حضارة العمرة " بتعدد أشكاله ( قوارير وجفان وأقداح وأواني توأمية وصحاف ) وتنوع زخارفه ( الهندسية والنباتية والحيوانية ) . واشتهرت العمرة بالأواني ذات القمة السوداء ( وهي أكثرها شيوعا ) ، والأواني الحمراء المصقولة ، والأواني السوداء ذات الخطوط المحفورة ، والحمراء ذات الخطوط البيضاء أو النقوش البيضاء أى الصور الحيوانية ( كفرس البحر والغزال والوعل والجحش) والصور الآدمية. لكن معظم أواني العمرة تعتبر في جملتها تطورا من أواني حضارة البداري فيما عدا النوع الرابع من الأواني ( الحمراء ذات الخطوط أو النقوش البيضاء ) . ويلاحظ أن الرسوم الحيوانية والآدمية جامدة خالية من الحركة ولا تنبض بالحياة .

وفي مجال الدين توصل أهل حضارة العمرة ( نقادة الأولى ) الى الاعتقاد في عدد من القوى الالهية مثل حتحور وست ومين وربما الاله الصقر حور ( أو حورس ) أيضا . فقد وجد على احد الاواني بمقبرة جبانة نقاده رسم بارز يمثل بقرة مما يشير الى عبادة حتحور ، الهة الخصب التى اصبحت ترسم — فيما بعد — في شكل البقرة وتلقب بالهة الذهب ( نوبت) ،وهو الاسم الذى سيطلق على بلدة نقاده في العصر التاريخي. وكانت " نوبت " أيضا بلدة الاسم الاله " ست " ،وفيها شيد له فيما بعد معبد لعله قام على انقاض معبد سابق من عصر ما قبل الأسرات. ومما يؤيد الظن بقيام عبادة البقرة حتحور ، ربة الخصب ، في هذا المكان منذ حضارة العمرة اكتشاف أوان في بلدتى هو والأبعادية عليهما صور للبقرة . وتتميز بعض أواني هذه الحضارة بعلامات أو رموز هى عبارة عن مخربشات أو خدوش في سطح الفخار . ولعلها تدل على الملكية الشخصية . غير أنه يوجد بين هذه المخربشات رسوم حيوانات . فهل هذه الرسوم تمثل صور الآلهة المعبودة مثل ست ومين ونيت ،أم هى رموز تدل على معان ومن ثم تعتبر بداية لاختراع الكتابة التصويرية ( pictograph ) ؟

ومن بين الأدوات الطريفة في حضارة العمرة المصنوعات العاجية كالأمشاط ودبابيس الشعر . وقد تحفر فيها بعض أشكال تمثل حيوانات وطيورا كالنعامة والكتكوت. ومن بين الأشكال صورة من بلدة المحاسنة مرسومة على قطعة من العاج يقال أنها اقدم صورة للحيوان الشبيه بالجحش الذى يرمز للاله ست ،اله الشر ،عدو أوزير ( أوزيريس ) عند قدماء المصريين . ولكن ذيل الحيوان لا يظهر في الرسم مرفوعا على نحو ما جرت العادة في تصوير الاله ست في العصر التاريخى . لكن ذلك لا يمنع من اعتبارها قرينة لدعم الرأى القائل بأن عبادة ست نشأت منذ هذه الحضارة . ويفسر بعض الأثريين رسم بعض الحيوانات على الاوانى ، والتى تمثل حيوانات مكروهة كالتماسيح والعقارب ، بأنه دليل على معتقدات طوطمية بمعنى أن هذه الرسوم الحيوانية هى تجسيدات لقوى الهية . وقد أصبح بعض هذه الحيوانات فيما بعد شعارات للاقاليم ورموزا لمعبوداتها . وتشير التماثيل الأنثوية الى احتلال الهة الأمومة منزلة خاصة . وليس ثمة شك في ايمان انسان حضارة العمرة بحياة أخرى بعد الموت . ويتبين ذلك من حرصه على دفن موتاه في رمال الصحراء الجافة بعيدا عن طمى النيل لوقاية الجثث من التحلل والبلى . وكانت المقابر عبارة عن حفر بيضاوية قليلة العمق يوضع فيها الميت في شكل مقرفص . وفي بعض الأحيان كان يوضع في مقبرة واحدة أكثر من جثة . وكانت توضع مع الميت تماثيل صغيرة لنساء وخدم يحملون أوانى الماء فوق رؤوسهم واضعين أنفسهم في خدمته أثناء رحلته الطويلة في العالم الآخر . كذلك كان يودع بجانبه بعض مقتنياته الدنيوية الأثيرة الى نفسه كالحلى والأسلحة وبعض الطعام . ويبدو أن الكلاب كانت تدفن مع أصحابها لكى تحرسها — على ما يظن — في الحياة الأخرى . وأما ممتلكات الميت الأخرى كالماشية فكان يستعاض عنها بتماثيل من الطين .

لكن حضارة العمرة أو " نقادة الأولى " انفردت بظاهرة غريبة اختلف العلماء في تفسيرها وهى عدم وجود هياكل للموتى كاملة بل مجزأة . ولا يدرى أحد عن يقين سر هذه الظاهرة الغريبة (١) . وقبل أن نترك الرسوم والصور تجدر الاشارة الى رسم

---

(١) يفسرها البعض بأن انسان حضارة نقادة الأولى كان يأكل لحوم موتاه اكتسابا لصفاتهم : انظر رشيد الناضورى ، جنوب غربى آسيا وشمال افريقيا ، ص ١٨٥ .

غريب على اناء من نقادة يمثل تاج الوجه البحرى ( الدلتا ) . فهل يشير ذلك الى خصومة سياسية بدأت بين الدلتا والصعيد ؟

كان النحاس لايزال نادرا في حضارة العمرة اذ اقتصر استعماله على صناعة الدبابيس . ولا نعرف الغرض لأن الملابس المصرية لم تكن تحتاج في ذلك الوقت الى دبابيس لتثبيتها . والتماثيل الآدمية قليلة جدا سواء من الطين أو من العاج . كان البداريون يعيشون عيشة مستقرة ويقتاتون من الزراعة والرعي والصيد في البر والنهر . وكان الصيد لايزال أحد الموارد الهامة في اقتصادهم . ولايوجد دليل على وجود ملوك أو امراء لأن المقابر لا تنم عن تفاوت في الثروة أو الجاه . لكن يبدو أن طبقة العبيد كانت موجودة كما يتبين من تماثيل حملة الماء ومعظمها لنساء . كذلك كانت هناك طبقة من أسرى الحرب الذين صورهم أصحاب هذه الحضارة في تماثيل ذات أيد موثوقة من الخلف . ونشأت فكرة الملكية الفردية بدليل العلامات المميزة على الأوانى . وقد لوحظ أن الاوانى المودعة في قبر واحد تحمل علامة أو رمزا واحدا .

وعرف أصحاب حضارة العمرة أو نقادة الأولى أدوات مختلفة للزينة كالملاكيت لتكحيل العيون . كذلك عرفوا الوشم فكان الجسم يوشم بعدة رسوم . وكانوا يزينون الشعر بمشط من العاج طويل الأسنان شبيه بالأمشاط في حضارة البدارى . وعرفوا الدبابيس النحاسية . وكانوا يلبسون عقودا مصنوعة من قشر بيض النعام والأصداف والمرجان وأحجار مختلفة أخرى كالعقيق واللازورد وحجر الطلق . وكانت تثبت في العقود دلايات من تماثيل صغيرة للحيوانات والطيور والأسماك . وربما كانت هذه شارات طوطمية أو حليا سحرية تقى حاملها من الحسد والمرض والارواح الشريرة . وكانوا يزينون أذرعتهم بأساور من الأصداف والعاج . ويتضح من التماثيل أن الرجال كانوا عرايا الا من قماط يستر العورة . وكانوا يثبتون الريش في شعرهم وينتعلون صندلا . أما النساء فكن يرتدين مئزرا من الكتان ، وكن كالرجال يحلقن رؤوسهن ويلبسن شعرا مستعارا .

ولا نعرف شكل مساكن اهل العمرة لأن ما اكتشف من آثار لا يساعد على تحديد على هذا الشكل بدقة . لكن يتضح في ضوء الحفائر التى أجرتها الأثرية كيتون طومسون في الهمامية ( بمحافظة قنا ) وهى منطقة سكنى ترجع الى أواخر عصر حضارة العمرة ، أن البناء بالطوب لم يكن قد عرف بعد ، وكل ما اكتشف لايعدو أن يكون قواعد أو أسس من

الطين لبعض المنازل • وتوجد آثار للغاب والقش مطبوعة على هذا الطين مما يبعث على الظن بأن الجدران كانت تغطى بالغاب والقش أو كانت تبنى بالغاب وفروع الاشجار ثم تطلى بالطين •

ونخلص من هذا الى أن أوجه الشبه بين حضارة العمرة ( نقادة الأولى ) وبين حضارة البدارى كانت كبيرة حتى ليمكن القول بأنها منبثقة منها وفيها أصبح وادى النيل أكثر عمرانا وقراه على جانبى الوادى أكثر عددا • ولكن هذه الحضارة تمثل مرحلة أرقى من حضارة البدارى في شتى المجالات ما عدا صناعة الفخار اذ لم يبلغ فخار العمرة ( ولا فخار أى حضارة مصرية أخرى ) مستوى فخار البدارى في ملاسته ورقته • لكن يقابل ذلك أن الأوانى الحجرية ( كالأوانى المرمرية الاسطوانية الشكل ) قد حلت في حضارة العمرة محل الاوانى الفخارية • كذلك يتضح أن هذه الحضارة وان كانت قد سارت في نفس اتجاه سابقتها واتسمت بنفس الطابع الذى بدأ يتأصل في مصر منذ حضارتى تاسا والبدارى ، الا أن حضارة العمرة تغذت بعناصر بشرية جديدة وفدت الى الوادى في شكل هجرات حامية من ليبيا والصحراء الغربية ( التى كانت لا تزال وفيرة المطر كثيرة المراعى ) ، ومن الجنوب ( مثل النوبة ) • وقد ينهض على ذلك دليلا تلك النقوش الصخرية المحفورة في صخور الصحراء الغربية ، وما ظهر على فن زخرفة الأوانى الفخارية في مصر من ملامح تشابه ملامح فن الحضارة القفصية في شمال افريقيا وفى شرق أسبانيا ، وما ظهر فيها من رسوم كأغطية الرأس ذات الريش ، والعقود المصنوعة من قشر بيض النعام ، وهذه كلها كانت مألوفة في الصحراء الغربية وشمال افريقيا •

وسميت حضارة جرزة كذلك نسبة الى بلدة جرزة التى تقع بين سويف والواسطى ( في الصعيد الشمالى أو مصر الوسطى قرب الفيوم ) • وتسمى حضارتها أيضا " بنقادة الثانية " • وتمثل الفترة الثانية من عصر ما قبل الأسرات • وتختلف عن حضارة العمرة من ناحيتين : الرخاء والتفوق الفنى ثم التغيير الفجائي في أنماط الآلات والاوانى والملابس • وهذه الطفرة تجعل صلتها ضعيفة بالحضارة السابقة • غير أن ذلك لا ينفى أن حضارة جرزة متطورة عن حضارة العمرة لأن الرخاء والتفوق الفنى نتجا عن ازدياد الثروة وارتفاع مستوى الفن ورسوخ العقائد وتأصل التقاليد الاجتماعية • وأما الناحية الثانية وهى التغيير الفجائي في أنماط صناعة الآلات والأدوات والملابس فان

أغلب الأثريين يعزونه الى تغير عنصرى أو سياسى أى تغير في الجنس أو في الطبقة الحاكمة على الاقل • وفي هذه الحالة لابد من التسليم بوفود هجرة أو هجرات جديدة الى وادى النيل •

وفيما يتصل بصناعة الآلات الحجرية فقد ظهرت اثناء حضارة جرزة آلة القتال التى على شكل الكمثرى • وكثرت الاسلحة المدببة القاعدة والخناجر الصوانية • وتختفى صناعة الآلات ذات الوجهين • وتغلب في صناعة السكاكين طريقة التشظية المتموجة • ويبلغ طول بعض هذه السكاكين الجميلة الشكل حوالى تسع بوصات • ولا يعرف الغرض الذى استخدمت فيه ، ولعلها كانت للزينة • وفي الحقيقة ان السكاكين والمناجل هى أكثر الآلات الصوانية عددا • كما يظهر في هذه الحضارة لأول مرة السهم ذو الطرف الشبيه بطرف الأزميل والذى يعتقد أنه منقول عن صناعة الآلات في الحضارة القفصية ، وأن العنصر الحامى ( الليبى ) هو الذى أتى به الى مصر ، وان كان من الارجح أنه منقول عن الحضارة النطوفية في فلسطين • ونخرج من فحص آلات حضارة جرزة بانطباع مؤداه أن كلا من حضارة نقادة الاولى ونقادة الثانية يتبع صناعة صوانية مختلفة تماما عن الأخرى •

كذلك طرأ على صناعة الاوانى الفخارية في حضارة جرزة ( نقادة الثانية ) تطور كبير اذ أصبحت تصنع من الطفل بدلا من طمى النيل ، وأصبحت تزين برسوم كثيرة حتى أنه يطلق على هذه الحضارة اسم " الحضارة ذات الفخار الزخرفى " • ولعل أهم ما في هذه الصناعة الأوانى ذات المقابض المموجة وهى التى بنى الأثرى فلندرز بيترى " تأريخه التتابعى " على تطور أشكالها (١)• وقد اختفت في هذه الحضارة الأوانى ذات الخطوط البيضاء وحل محلها نوع رمادى باهت ( buff ware ) ذو رسوم حمراء • وتعتبر هذه الاوانى صناعة مختلفة فنيا عن صناعة الاوانى الحمراء أو ذات الحافة السوداء في حضارة العمرة ( نقادة الأولى ) • وبينما كانت صناعة أوانى نقادة الأولى تميل الى تقليد أشكال السلال ، تميل صناعتها في نقادة الثانية الى تقليد أشكال الحجر والصخور • وفيما عدا ذلك فان حضارة جرزة تتميز — على نحو ما أشرنا —

---

(١) راجع ص ٣٣ ، ص ١٠٠ •

بالأوانى ذات المقابض المموجة . وتطورت صناعة التماثيل فأصبحت بعد فترة تصنع لا من الطمى أو العاج بل من الطين أو الحجر . وكثير من التماثيل هى صور لحيوانـــات . كذلك صنعت التمائم والملاعق من العاج . وارتقت صناعة الاوانى الحجرية . واستعملت أنواع عديدة من الحجارة الجميلة كالديوريت والسماقى والبرشيا والأردواز . وبعـــض هذه الأحجار شديد الصلابة أيضا . ونجد بين هذه الاوانى الحجرية أشكالا لم تكن معروفة من قبل كالاوانى ذات المقابض والاوانى التى على هيئة الحيوانات .

كذلك يزداد استخدام المعادن في حضارة جرزة . فلم يعد استخدامهـــا مقصورا على صناعة الدبابيس بل امتد الى كل أنواع الالات والحلى . ولعل الازميل هو أبرز هذه الالات المعدنية . واستخدم الى جانب النحاس الذهب والفضة . ويوجـــد النحاس في سيناء والذهب في النوبة أى في البيئة المصرية . لكن الفضة كانت أنـــدر من الذهب وأثمن ولابد أنها استوردت من الخارج . ومثل هذا يقال عن الأوبسيديان ( الزجاج الطبيعى ) واللازورد اللذين كانا يجلبان من الخارج لصنع حبات العقود . ويبدو أن النحاس كان من الوفرة بحيث أن الفؤوس صارت تصنع منه . ولعل هذه الفؤوس كانت تستخدم في القتال أوقطع الأشجار . وتكشف صناعة بعض الأدوات ولا سيما الزجاج عن مهارة نائقة ودقة متناهية . وقد يستدل من ذلك على تقسيم العمل وقيام التخـصص المهنى . ومن البديهى أن يستتبع التخصص نشاط في التجارة . وقد يؤيد ذلك وجود بعض مواد أجنبية في مقابر جرزة الى جانب الفضة كالرصاص والجشمت ( الكوارتـــــز البنفسجى ) والفيروز .

وطرأت على صناعة أدوات الزينة تغييرات فاختفت الامشاط ذات الأسنان الطويلة وحلت محلها أمشاط ذات أسنان قصيرة . كذلك اختفت الألواح الاردوازية البيضاويـــة الشكل . لكن لم يتوقف صنع اللوحات التى على هيئة الحيوانات .

وقد أصبحت الزراعة قوام الحياة الاقتصادية في حضارة جرزة . وتضاءل شــــأن الصيد كما يتضح من اختفاء أسلحة الصيد من المقابر . وقد اخذت بعض القرى تتضخـــم أثناء هذه الحضارة وسارت في طريقها نحو التحول الى مدن . وستصبح هذه المـــدن في العصر التاريخى عواصم الأقسام الادارية في مصر أو المديريات . وفي رأى معظـــ

الباحثين أن رايات المديرات التى ستظهر في العصر التاريخى ما هى الا الشارات الطوطمية التى كانت ترمز للمعبودات في مختلف الاقاليم ابان حضارة جرزة . ولا يعرف شئ عن شكل بيوت حضارة جرزة . ففى أرمنت حيث جرت بعض حفائر منذ سنوات لم يعثر على آثار للمساكن ولا حتى للمواقد أو الحفر التى كانت توضع فيها القدور مع أن هذه كانت من معالم القرى المصرية منذ القدم .

كذلك تغير شكل المقابر فلم تعد دائرية أو بيضاوية بل أصبحت في حضارة نقادة الثانية مستطيلة الشكل أو على الأقل حفرة ذات أضلاع مستقيمة ويستخدم الطوب في بنائها . وتستلفت النظر كثرة الهدايا الجنائزية . وقد أصبحت جثة الميت توضع في كوة أو تجويف خاص داخل المقبرة . وقد تغطى الجثة أحيانا بغطاء خشبى اشبه ما يكون بالتابوت أو بوضع في كفن من الاغصان . وتنم مقابر حضارة جرزة عن تزايد الثروة والنفوذ عند بعض فئات خاصة في المجتمع . وتتميز المقابر بعضها عن بعض الآخر وتتفاوت مظهرا ومحتوى بقدر تفاوت أصحابها في الغنى والجاه .

وفيما يتصل بالحياة الدينية نجد أنه قد أصبح من المألوف في حضارة " نقادة الثانية " تزيين الفخار المودع مع الميت برسوم لسفن تحمل عددا من الآلهة ومن بينها الاله مين ( Min ) ،وهو اله يرمز للخصب والتناسل . ومعنى هذا أن أهل حضارة نقادة الثانية يختلفون عن نقادة الأولى في المعبود اذ عبده أهل نقادة الأولى في شكل أنثى بينما عبده أهل نقادة الثانية في شكل ذكر . وقد أقيم للاله " مين " بعد ذلك معبد بمدينة قفط (Coptos) . ويلوح أن فكرة اقامة معابد للآلهة نشأت في عصر حضارة نقادة الثانية . واذا صح الرأى القائل بأن أصحاب هذه الحضارة جاءوا الى المنطقة بطريق وادى الحمامات فان " قفط " تكون أول موقع يقابلهم في وادى النيل . ومن المعبودات الأخرى الالهة نيت ( Neith ) ، وهى الهة الدرع والسهمين المتقاطعين . وقد بلغت عبادتها من الأهمية ما جعل كثيرات من النساء يحملن اسمها بل ان اسماء بعض ملكات الأسرة الأولى مشتقة من اسمها . ولعل أهم اله يظهر في حضارة نقادة الثانية الاله الصقر حور أو حورس ( Horus ) الذى وجد مرسوما على بعض الاوانى . وهو يصوّر رابضا على هلال . وقد ظل يرسم على هذه الهيئة حتى الأسرة الأولى مما يدل على أنه كان في الأصل اله القمر . ولما كان الصقر

هو اله ملوك الأسرة الأولى فقد ينهض ذلك دليلا على أن هؤلاء الملوك منحدرون من أهل حضارة نقادة الثانية . ويبدو أن مدينة نخن ( كوم الأحمر الحالية ) - التى سماها اليونان هيراكونبوليس Hieraconpolis أى مدينة الصقر - كانت تتمتع بمركز ممتاز في هذه الحضارة . ولعل قصة الصراع بين حورس وست ترمز لاغارة قام بها أهل نقادة الثانية ( الذين كانوا يعبدون حورس ) على بلدة نوبت ( التى كانت تعبد ست ) .

ويمكن القول بوجه عام أن أصحاب حضارة جرزة ( نقادة الثانية ) لم يحافظوا فقط على التراث الحضارى الذى ورثوه عن أصحاب حضارة العمرة ( نقادة الأولى ) بل أضافوا اليه أشياء جديدة ورفعوا مستواه .

ولا يعرف أحد عن يقين الموطن الذى أتى منه أصحاب حضارة نقادة الثانية الى هذا الموقع ولا الطريق الذى سلكوه اليه . ويرجح أنهم جاءوا من الدلتا ، وساروا بحذاء ساحل الأحمر حتى " القصير " ثم اتخذوا طريق وادى الحمامات الى وادى النيل عند ثنية " قنا " . وقد يعزز هذا الاحتمال أمران أحدهما أن وادى الحمامات هو المكان الوحيد خارج الوادى الذى وجدت فيه رسوم تحمل طابع حضارة نقادة الثانية ( كرسوم السفن على الأوانى الفخارية وقوارب البحر الأحمر المرسومة على المقبض العاجى للسكين الشهيرة من جبل " العرق " )[1] . والأمر الثانى هو أن معظم آثارهم اكتشفت في مراكز تقع عند تلاقى وادى الحمامات بالنيل مثل نقادة وهو ( ديوسبوليس بارفا ) وقفط وبلاص . ومن الجائز أنهم خرجوا من الدلتا مطرودين لسبب أو آخر ، فاتخذوا طريق الصحراء الطويل الشاق بدلا من طريق الوادى . فلما استقر لهم الأمر في الصعيد حاولوا استرداد أرضهم التى فقدوها في الدلتا فأغاروا عليها وبذلك تم توحيد البلاد الأول ، الذى يعتقد بقيامه بعض الباحثين والذى سرعان ما انفصمت عراه .

لكن من بين المراكز الرئيسية لحضارة نقادة الثانية مواقع أخرى وفي مقدمتها جرزة نفسها وأبو صير الملق وغيرهما وهذه تقع في مصر الوسطى قرب منخفض الفيوم ، بل ان مركزا من مراكز هذه الحضارة وجد في الفيوم نفسها . والى الشمال من ذلك توجد المعادى

---

( ١ ) يقع جبل " العرق " بين العمرة وهو على مسافة من الضفة الشرقية للنيل .

حيث استقرت — قبل حضارة نقادة الثانية بقليل — جماعة تقرب في مستواها الحضاري من أهل نقادة ، وكانت على اتصال بسيناء وفلسطين . فهل يمكن القول بأن أهل المعادي أنفسهم هم الذين هاجروا بطريق الصحراء الشرقية ثم وادي الحمامات حيث أسسوا بالقرب من ثنية قنا حضارة نقادة الثانية . ولا يفتقر أصحاب هذا الرأي الى القرائن . ولا يتسع المقام للخوض فيها . لكنه مجرد احتمال (١).

ويرى بعض العلماء أن العناصر الجديدة التي تميزت بها حضارة جرزة قد وفدت عليها من الشمال والشمال الشرقي أي من فلسطين وسوريا والعراق . وفي الحق أن هذه الحضارة تحمل بعض ملامح آسيوية واضحة و من بينها رأس المدبة التي على شكل الكمثرى ، والاواني التي على هيئة الحيوانات ، والاواني ذات الصنابير . هذا فضلا عن الختم الاسطواني الذي اكتشف في احدى مقابر نقادة الثانية وهو من نوع الأختام التي كانت شائعة في أرض الرافدين . وقد تؤيد هذا الرأي القصص التي تدور حول أوزيريس وهي قصص ترتبط بالساحل السوري ارتباطا وثيقا .

لكن اذا كانت حضارة جرزة أو نقادة الثانية ترتبط حضاريا بجنوب غربي آسيا فان منطقة نشأتها كان غرب الدلتا وليس شرق الدلتا . ففي غرب الدلتا كانت تسكن قبائل التحنو ( Tjehenu ) الليبية ، التي تأثر بها أهل حضارة جرزة ، وفي غرب الدلتا كانت توجد رواسب النطرون التي استخدموها في صناعة الزجاج . ويتبين من شارات القوارب المرسومة على الاواني الفخارية صلتها الوثيقة بغرب الدلتا بل وبمنطقة بحيرة ايدكو . وقد لاحظ بعض الباحثين أن ميناء مصر الرئيسي كان يقع وقتئذ في غرب الدلتا ومعنى هذا أن غرب الدلتا كان واسطة الاتصال بين مصر وكريت وكذلك بين مصر وسوريا عن طريق البحر . ولقد عثر في احدى مقابر جرزة على تميمة من النوع الذي كان شائعا في كريت وسوريا . وعلى هذا يمكن القول بأن حضارة جرزة أو حضارة الفترة الثانية من عصر ما قبل الأسرات نشأت في الدلتا وأن انتشارها الى الصعيد يدل على ازدياد قوة الشمال ونفوذه الثقافي . ومن المحتمل أن يكون ذلك قد دفعه الى فرض سيطرته على الجنوب ( الصعيد ) ومحاولة توحيد شطري الوادي .

---

(١) أنظر : ابراهيم رزقانة "الجغرافيا التاريخية" ( القاهرة ١٩٦٦ ) ، ص ٤٦٩ — ٤٧٠ .

وثمة رأى آخر يقول ان الحضارات المصرية في تلك الفترة نشأت وتطورت في وادى النيل نفسه وأن ابتكاراتها الثقافية هى من نتاج العقل المصرى وان كان هذا لا ينفى وفود عناصر جنسية أجنبية الى الوادى أثناء قيام هذه الحضارات حاملة معها عناصر ثقافية جديدة . وهل كان في وسع المصريين بعد ارتقاء حضارتهم وازدياد مطالبهم أن يعيشوا في عزلة عن الأقطار المحيطة بهم ؟ كان لابد من أن تتجه أنظارهم الى العالم الخارجى لاستكمال ما يفتقرون اليه من سلع كالخشب والفضة والتوابل والملاكيت وعديد من الأدوات الأخرى . وسنرى كيف يزداد ظهور السلع الأجنبية في مصر أثناء الفترة التالية .

وأما حضارة سماينة فتنسب الى بلدة سماينة التى تقع بالقرب من بلد تس الأبعادية وهو ( مركز نجع حمادى ) ولا تبعد كثيرا عن نقادة ( بمحافظة قنا ) . وتمثل هذه الحضارة فترة الانتقال من عصر ما قبل الاسرات الى عصر الأسرات بل ان مظاهرها تظل قائمة حتى الأسرتين الاولى والثانية . وتتميز حضارة سماينة بتحول القرى الى مدن وبظهور الملوك المؤلهين وبساتحاد القبائل المتنافرة تحت سلطة مركزية واحدة . ولم يتبق منآثار مدن هذه الحضارة الا النزر اليسير . لذلك نستمد معظم معلوماتنا من المقابر سواء عن ظهور طبقة حاكمة أو مستوى الفن ، وتطور الصناعة ،وانتهاء الحروب بين القبائل ، ونمو الثروة القومية بوجه عام وتركزها في أيد بعض فئات خاصة في المجتمع. كما تعرفنا عن طريق محتويات هذه المقابر على مدى الصلات الحضارية بين مصر من ناحية وبين أقطار جنوب غربى آسيا من ناحية أخرى .

ويتبين ازدياد الثروة في عصر حضارة سماينة من تطور صناعة الأدوات النحاسية والخشبية اذ كثر استخدام النحاس في صناعة الأسلحة والالات بل الاوانى أيضا . كذلك صنعت للأسلحة مقابض من الخشب الذى ازداد استيراده من سوريا . لكن استخدام المعادن لم يقض على صناعة الالات من الصوان ؛ ذلك بأن النحاس برغم التوسع في استعماله كان شحيحا حتى مستهل عصر الأسرات . وكانت الالات الضخمة اللازمة لأعمال البناء والزراعة تصنع من الحجارة . وقد عثر في مختلف المدن المصرية القديمة على مئات من الفؤوس المصنوعة من نواة الصوان وعلى عدد كبير من المناجل و المكاشط المستديرة المصنوعة من الشظايا . وعلى الرغم من أن هذه الالات متقنة الصنع الا أن

مستواها دون آلات الفترة السابقة ( المتوسطة من عصر ما قبل الأسرات ) كذلك هبــط المستوى الفنى لصناعة الفخار . ولعل عجلة أو دولاب الفخارى ظهر في هذه الفتــرة. ويختفى فن طلاء الفخار بالألوان ولا نجد غير الأوانى الحمراء أو السمراء. لكن تظهر بعض أنواع جديدة مشابهة لأوانى بلاد الرافدين ومن الجائز أنها مقتبسة منها . ويعزى انحطاط صناعة الفخار في عصر سماينة الى عاملين أولهما أن الأوانى الحجرية والمعدنية حلت محل الاوانى الفخارية في موائد القرابين بالمعابد والثانى هو أن ظهور المدن أدى الى تحول الفخار من عمل فنى الى صناعة تجارية تعنى بوفرة الانتاج لا بالذوق أو المستوى الفنى .

كذلك انحطت صناعة الاوانى الحجرية فنجدها متشابهة على نمط واحــــد . وتختفى الاوانى الجميلة المتعددة الأشكال التى ظهرت في حضارة جرزة . واقتصرت المادة المستعملة في صناعة هذه الاوانى على الالبستر والبازلت . ولا نجد الا اوانى قليلة مصنوعة من الأوبسيديان في مقابر الأمراء . والشكل الغالب في هذه الاوانى هو الشكل الأسطوانى الطويل ، ثم المواجير المسطحة ذات المقابض والحافات وهى شبيهة بمواجير حضارة جرزة ، لكن يظهر في حضارة سماينة نوع عام وهو الأوانى التوأميــــة المحفورة في قطعة واحدة من الحجر . ولهذه الاوانى نظائر في العراق . وارتقـــى فن النجارة فأصبحت تصنع من الخشب أرائك ذات أرجل على شكل حوافر الثيـــــران . وكانت تستخدم كأسرة للموتى . وكان من أدوات الزينة الخرز الحلزونى المصنوع مــــن مختلف الأحجار والمطلى بالذهب في بعض الأحيان . وتستلفت النظر الدمى التـــى صارت تصنع في شكل حيوانات جديدة كالأسد والقرد والعقرب والضفدعة والحمـــــام . ولجميع هذه الأشكال ما يقابلها في العراق . وقد وجدت في أبو صير الملق ( شرقى منخفض الفيوم ) حلية في شكل الجمل . واستعمل أصحاب حضارة سماينة الأختـــــام الاسطوانية كتمائم ثم استخدمت في الأسرة الأولى للتصديق على الوثائق . ووجـــدت على بعض منها كتابة هيروغليفية اذ بدأت الكتابة تنتشر منذ تلك الأسرة .

وظلت مقابر الفقراء في عصر حضارة سماينة على ما كانت عليه في الحضــــارة السابقة . لكن مقابر الأغنياء ازدادت العناية بها فأصبحت تحفر الى عمق كبير . وصار من الضرورى انشاء درج يؤدى الى المقبرة لانزال التابوت ونزول حملة القرابين . كذلك صار من الضرورى بناء سقف يقوم على عمد . وقد سبقت الاشارة الى التجويف أو الكــوة

التى كانت تحفر في جانب المقبرة أثناء عصر حضارة جرزة لوضع الهدايا والتقدمات. هذا التجويف أو هذه الكوت زيدت مساحتها في عصر حضارة سماينة ،وفصلت عن حفرة الدفن بحاجز من الأغصان ،ثم تحولت في آخر الأمر الى حجرة مستقلة ،وبنى الحاجز من الطوب . ومنذ بداية عصر هذه الحضارة كانت مقابر الأثرياء تبطن بالطوب وتطلى جدرانها بالطين . ومن أمثلة هذه المقابر مقبرة اكتشفت في الكوم الأحمر ( نخن ) طولها أربعة أمتار ونصف متر وعرضها متران وارتفاعها متر ونصف متر . وهي مقسمة بواسطة جدار الى حجرتين متساويتين حجما . وقد طليت حوائطها بالطين ثم بدهان أصفر لكى تنقش عليه بعض الرسوم . وقد رسم الفنان عليها بالألوان مناظر تمثل الصيد والقتال والرقص وغير ذلك من المناظر التى تشابه المناظر المرسومة على الاوانى الفخارية. وهذه المناظر استباق أو ارهاص " للرسوم الجنائزية " التى أصبحت شائعة في العصر التاريخى . ويستدل من بعض المقابر الفاخرة نوعا ما على تزايد الثروة والنفوذ لدى طائفة معينة في المجتمع . ولا شك في أن صاحب مقبرة كمقبرة الكوم الأحمر كان زعيما أو رئيسا لقبيلة . وهكذا أصبح الطريق ممهدا لظهور أمير أو ملك قوى يستطيع توحيد شطرى الوادى ،الوجه القبلى والوجه البحرى .

<u>تأثر مصر بحضارة سومر في بداية العصر التاريخى :</u>

وقد تطلبت حضارة المدن التى نشأت في هذا العصر زيادة العلاقات التجارية وانتظامها مع الجهات المتطرفة في الوادى ومع العالم الخارجى . فنشطت التجارة مع ساحل البحر الأحمر ،وجلب النحاس من سيناء والذهب من النوبة ،واستورد خشب الأرز من لبنان ،والزجاج الطبيعى من غرب آسيا أو جزر البحر الايجى . وقد تبين من الحفائر التى أجريت في جبيل ( بيبلوس) قيام علاقات وثيقة بين مصر وشمال سوريا منذ بداية عصر الأسرات . ولابد أن مثل هذه العلاقات قد سبقتها صلات ما منذ عصر ما قبل الأسرات . وتشهد كثرة الآثار ذات الطابع السومرى التى اكتشفت في وادى النيل على مدى الصلات التجارية والثقافية بين مصر وبلاد الرافدين . فقد اميط اللثام عن مجموعة كاملة من الرسوم الأجنبية منقوشة على أثرين من آثار حضارة سماينة . واحدهما المقبض العاجى للسكين التى وجدت في جبل العرق ،والآخر عن مقبرة الكوم الأحمر التى أشرنا اليها من قبل . ويسترعى المكانان اللذان اكتشف فيهما الأثران النظر بوقوعهما عند نهاية طريق عام للقوافل كان يصل بين النيل والبحر الأحمر. وتوجد على كل من الأثرين صورة قارب يختلف تمام الاختلاف عن القوارب المصرية المرسومة على الاوانى الفخارية . فالقارب الاجنبى ( أو بالأحرى العراقى ) يتميز بمقدمة

طويلة ومؤخرة عالية وهما صفتان لا تتوافران في القارب المصرى المصنوع من سيقـــان البردى. كذلك تظهر في مصر صورة لقارب أجنبى الشكل على اناءين من الفخار وعلـى بعض آثار الأسرة الأولى . ولا شك في أن صور هذه القوارب مقتبسة من بلاد الرافديـن في عصر حضارتها السومرية ( الألف الثالث ق.م ) . ذلك بأن الصور المرسومة علـى مقبض السكين الصوانية من "جبل العرق" مثل كلب الصيد ، واصطراع بطل مع أسد يـــن ، وارسال اللحية ، ونوع الزى ، جميعها مختلفة عما كان مألوفا في البيئة المصرية ، وغريبة عن الفن المصرى ، ولكنها كانت مألوفة وشائعة في بلاد الرافدين . ويستنتج من ذلك أن الفن المصرى قد تأثر بالفن العراقى أو على الأقل اقتبس منه بعض اتجاهاتـــه وافكاره . ويمكن أن نلاحظ مثل هذا التشابه في الظواهر المعمارية بالمقابر كالجدران ذات الفجوات أو الكوات ، واستخدام القرميد ، وحجرات رجال الحاشية الملحقة بمقبرة الملك والاختام الاسطوانية ، بل في طريقة ظهور الكتابة في كل من البلدين . ولا يمكن أن تكون كل هذه المتشابهات وليدة الصدفة وحدها . بل تدل جميعها على أن مصر وسومر كانتا في مستهل عصرهما التاريخى متصلتان احداهما بالأخرى اتصالا مباشـــرا أو غير مباشر . وكان منتظما أو شبه منتظم . ولكن الخلاف يدور حول نوع هذا الاتصال ، أكان نتيجة لغزو من جانب السومريين لمصر عن طريق البحر كما يعتقد بعض المؤرخين أم كان مجرد علاقات تجارية سواء مباشرة أم عن طريق شعب وسيط كشعب منطقة "مجان" المذكورة في النصوص السومرية بأنها أرض أو جبل النحاس والتى يحتمل أن تكون بالقرب من عمان على ساحل الخليج العربى عند مصب وادى شهبة ؟ أم كان هناك مركز متوسط آخر بين مصر وسومر كان يغذى هاتين الجهتين بعناصر بشرية أو ثقافية مشتركـــة ، وأن هذا المركز كان يقع في قلب الجزيرة العربية ؟

هذه اسئلة عسيرة لم تجد حتى الآن اجابات مقبولة عند كل الباحثين ، ولعلها تبقى بدون اجابة الى الأبد أو حتى تجرى تنقيبات على نطاق أوسع فلا يزال الموضـوع بحاجة الى اكتشافات جديدة ودراسة مستفيضة . ان قلة الآثار المصرية في العـــراق بالقياس الى العراقية التى اكتشفت في مصر انما ترجع الى قلة أعمال الحفر فـــي أرض الرافدين بالقياس الى كثرة ما أجرى منها في وادى النيل . يضاف الى ذلك عامـــل اختلاف التربة في البلدين من حيث جفاف مصـر الذى يساعد على حفظ الآثار ورطوبة العراق التى لا تساعد على ذلك .

وأيا كان الأمر فليس هناك - في ضوء ما تم حتى الآن من اكتشافات أثرية - إلا سوى شكا ضئيل في تفوق الحضارة السومرية اثناء عهد الأسرتين الأولى والثانية في بعض النواحي كصناعة المعادن ونقش الأصداف ،وصناعة المركبات ذات العجلات، وفن النجارة الراقية ،والعمارة ( ولا سيما العقود والقباب ) بل والاواني الفخارية نتيجة لابتكار دولاب الفخاري في وقت مبكر . لكن ينبغي أن ندخل عامل البيئة في الاعتبار لأن البيئة هي التي تمكن الشعب من التفوق الحضاري في بعض النواحي بينما تضعفه في نواح أخرى . ذلك بأن الحضارة الاصيلة هي التي تتوائم مع ظروف البيئة المحلية . أما بعد الأسرة الثانية في مصر فلا جدال في تفوق الحضارة المصرية في قرينتها بأرض الرافدين بل تفوقها على أى حضارة أخرى معاصرة . لقد توافرت بمصر بيئة ( لا سيما من الناحية المناخية ) صالحة لازدهار الحضارة ،ولم يتوافر مثلها في المناطق الأخرى في جنوب غربي آسيا . ولم ينحصر تفوق الحضارة المصرية على العمارة والنحت بل شمل الصناعة المعدنية والهندسة والطب . هذا فضلا عن النضج الاجتماعي والتنظيم الاداري الذي تمخضت عنه مبان ضخمة كالاهرامات . وأبلغ من ذلك دلالة التفوق المصري في مستوى الفن . كان السومريون رجال أعمال ممتازين وتجارا مهرة ولم يكن يعنيهم الذوق الفني بقدر ما تعنيهم المعاملات التجارية والشئون المالية والربح . ولا ينبغي أن ننسى أن السومريين لم يكونوا أصلا في أرض الرافدين بل كانوا دخلاء وفدوا من جهة قريبة أو بعيدة على الأرجح . ولابد أنهم جاءوا حاملين معهم عناصر حضارة الموطن الأصلي سواء أكان ايران أم حوض السند . ولعل عناصر حضارتهم الأصلية قد امتزجت بعناصر حضارات المناطق التي مروا بها أثناء هجرتهم الى جنوب العراق . وهنا ينبغي أن يدخل في الاعتبار عند المقارنة لا القدم أو الأسبقية بل عراقة الأصل الحضاري.

* * *

# الفصـــل الســـادس

## زمـــن البرونـــــز
## ( Bronze Age )
## ( ٣٠٠٠ — ١٠٠٠ ق٠م )

يعتبر التحول من استعمال الحجر الى استعمال المعادن وبخاصة البرونـز أعظم خطوة ثورية خطاها الانسان . صحيح أن أسلوب حياته لم يتغير فجأة مع بـدء استعمال المعادن عما كان عليه في العصر السابق بل تغير بالتدريج . ومع هـذا فقد بلغ الانسان مفترق الطرق واختار بحكمه الطريق الذى قاده الى فجر التاريـخ والعصر الحديث . فقد اكتشف مزايا مزج النحاس بالقصدير بنسبة معينة ( ١٠ : ١ أو ٢٠ : ١ ) وتبين له أن الخليط الجديد وهو البرونز أصلب من النحاس الذى لا يصلح بسبب سهولة التوائه لصنع الآلات والأسلحة القوية ، واكتشف خواص هذا المعدن المميزة فهو قابل للانصهار ، وللصب في قوالب ، وللطرق . وهو فوق ذلك متين لا يبلى بسرعة ويمكن عندما ينكسر صهره من جديد واعادة تشكيله كآلة جديدة على نقيض المصنوعات من الحجر أو العظم . وسرعان ما أصبح البرونز ضرورة لكل مرفق من مرافق الحياة : في الزراعة حيث دخل البرونز في صناعة المحراث ، وفي الصناعة حيث لم يعد مجرد أداة من أدوات الترف فضلا عن ميزته في صنع أسلحة ماضية حادة القطع في القتال . لذلك جـد الانسان في البحث عنه فخرج أحيانا من النطاق الفيضي الزراعي الى حيث يجد هـذا المعدن ، خرج الى القفار الجبلية أو الصحراوية . ونشأ نوع من التخصص يتمثل في مهنة التعدين ( metallurgy ) ، وظهرت طائفة الصناع الى جانب الزراع . وكان علـى هوءلاء الآخرين أن ينتجوا من القوت ما يكفي الأولين .

وليست كل البلاد غنيـة بكل المعادن التي بدأت تستعمل ، فكان لا بـد من التبادل فاتجه الانتاج من مرحلة الاكتفاء الذاتي الى مرحلة توفير فائض حتى يمكـن مقايضته بسلع أخرى كانت من بينها المعادن . وبعبارة أخرى نشأ ذلك النظـام الاقتصادى الهام الذى يعرف بالتجارة على نطاق واسـع . ومع الصناعة والتجـارة خرجت مجموعات من الناس لا تحتاج في حياتها اليومية الى الاعتماد على الأرض والزراعة اعتمادا مباشرا ، وسكنت محلات جديدة لتزاول فيها نشاطها الصناعي والتجارى . وتوخت

في اختيار هذه المحلات أو المواقع متطلبات الصناعة والتجارة . وهذه المحـــلات المستقلة عن الأرض الزراعية هي ما نعرفه بالمدن الصناعية والتجارية والموانى . وقـد تطلبت التجارة أسلوبا جديدا في الحياة كان من أثره الهجرة من مكان الى آخــر . فالسفر الطويل قد ينتهي ببعض الناس الى الاستقرار حيث انتهى بهم المطاف . وربما دفع البحث عن المعدن ومحاولة احتكار مصادره الأولى الى الاستعمار بمعنى انشاء جاليات أجنبية في اقليم جديد أو منتزع من سكانه الأصليين بقصد استغلال مـوارده الطبيعية ولا سيما المعدنية . فكأن حركة الاستعمار الأولى ظهرت بوادرها في عصـر البرونز نتيجة للتجارة والبحث عن المعدن .

وكلمة برونز ( bronze ) مشتقة أصلا — على ما يبدو — من اسم مدينـة برنديزى ( Brundisium ) بجنوب ايطاليا حيث كانت تصنع — وفقا لروايـــة الكاتب اللاتيني بلينيوس — مرايـا ذات قيمة كبيرة (١) . ولا شك في أن نشأة صناعتـه ترتبط بمكان أو أماكن غنية بالقصدير الخام مثل اسبانيا وكورنول بانجلترا وبوهيميـا بتشكسلوفاكيا ، وألمانيا وايطاليا وفرنسا في الغرب . ومثل خوراسان ( أفغانستـان وشرق ايران ) والصين في الشرق . وأما في مصر فان الآلات البرونزية لم تكن كثيـرة قبل عام ٢٠٠٠ ق٠م . ومن الواضح أن معظم الأماكن الغنية بالقصدير كانت بعيدة عن بعض مراكز الحضارات الشرقية وهي الحضارات النهرية الكبرى . لكن الانســان تغلب على كثير من عقبات النقل ، وسخر الحيوان في ذلك مثلما سخر الهواء لتسييـر السفن الشراعية . ويتصل بوسائل النقل — من أجل التجارة — اختراع العجلة التـي يبدو أنها ظهرت أولا في شمال سوريا وبعدئذ في سومر ( جنوب العراق ) أثنـاء الألف الرابع ق٠م . وعند حوالى عام ٣٠٠٠ ق٠م . كانت العربات بل عجـــلات القتال معروفة في عيلام ( جنوب فارس ) والعراق وسوريا . لكنها لم تعرف فـــي كريت والأناضول الا بعد ذلك أى حوالى عام ٢٥٠٠ ق٠م . ولم تستعمل العجلـة في مصر قبل أن يدخلها الهكسوس حوالى عام ١٧٣٠ ق٠م . ولم تحدث العجلـة انقلابا في وسائل النقل فحسب بل في فنون القتال كذلك . وقد أكسب ذلــك أصحابها قوة تفوق قوة أعدائهم الذين لم يتوصلوا الى هذا الاختراع . وأما عـــن

---

(١) بلينيوس C. Plinius secundus ( ٢٣ م — ٧٩ م ) الملقب بالأكبر ، تمييزا له عن ابن أخيه بلينيوس الأصغر ، هو صاحب موسوعة تسمى " بالتاريخ الطبيعى "

عجلة أو دولاب الفخارى فقد عرفت — على نحو ما رأينا — منذ أواخر العصر الحجرى الحديث ( النيوليثى ) وقد أحدثت انقلابا هى الأخرى في صناعة الأوانى الفخارية التى احتلت مكانا هاما في الاقتصاد في زمن البرونز . وقد استوئنس الحمار في شمال افريقيا منذ حوالى ٣٠٠٠ ق.م . وكان معروفا في مصر منذ ذلك التاريخ . وبعدئذ عرف في العراق . ومنذ عام ٢٠٠٠ ق.م كانت العربات التى تجرها الحمير تنقل التجارة بانتظام في العراق والأناضول . أما الحصان فحيوان أحدث عهدا بالاستئناس من الحمار . لكنه عرف كحيوان للجر في الشرق الأدنى نحو عام ٢٠٠٠ ق.م ، وأدخله الهكسوس في مصر ( ١٧٣٠ — ١٥٨٠ ق.م ) . ويظهر مرسوما على الآثار وقد شدت اليه عربة . وبالرغم من أن استعمال الحصان لم ينتشر الا بعد مرور فترة من عصر البرونز ألا أنه أحدث انقلابا كبيرا في المواصلات وفنون القتال . فهو مطية سريعة في النقل . وكان ظهوره ايذانا بقدوم شعوب جديدة الى وسط آسيا ، وهو موطنه الأصلى . ولذلك يربط العلماء بين صور الحصان المرسومة في الآثار القديمة وبين طلائع الآريين أو الهنود الأوربيين ( Indo - Europeans ) . وأما عن وسائل النقل البحرى فقد عرفت السفن البدائية النهرية في مصر منذ العصر الحجرى الحديث . ومن المؤكد أن السفن الشراعية بدأت تمخر عباب البحر في شرق المتوسط حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م .

هكذا تهيأت الظروف للتبادل التجارى . ومع التجارة انتقل النفوذ السياسى ، وتأسست المستعمرات ، ونشطت الهجرة ، واختلطت الثقافات ، وولدت حضارات .

ويمكن اجمال أبرز مميزات زمن البرونز في النقاط الآتية :

١ — خروج الانتاج من مرحلة الاكتفاء الذاتى الى مرحلة توفير فائض من أجل تبادله مع سلع أخرى في مقدمتها المعادن .
٢ — نشأة طبقة متخصصة في الصناعة من أجل الاستهلاك المحلى والاتجار مع الخارج .
٣ — نشأة التجارة على نطاق واسع .
٤ — نشأة المدن واستقلالها كوحدات عمرانية عن القرى .
٥ — نشاط الهجرة .
٦ — بدء الاستعمار .

تلك هي مقومات الثورة أو الانقلاب الحضرى الذى وجه المدنية وجهة جديدة وفتح لها آفاقا واسعة . وينسب باحث كبير مثل جوردون تشيلد ( Gardon Childe ) (١) الى عصر البرونز الذى أحرزت فيه البشرية تقدما كبيرا . وحسبنا أن نعلم أن حضارات مصر والعراق القديمة قامت كلها في ذلك العصر . ولم يبزغ عصر الحديد ( حوالى ١١٠٠ — ١٠٠٠ ق.م ) حتى كانت مدنيات مصر والعراق قد دب فيها الوهن أو الشيخوخة . وقد جاء بالحديد أقوام جدد آل اليهم تراث حضارات عصر البرونز فأظهروها في ثوب جديد .

زمن البرونز اذن هو عصر الثورة المدنية . عصر الانقلاب الحضرى ( Urban Revolution ) الذى جاء في أعقاب العصر النيوليثى بغض النظر عن العصر الخالكوليثى الذى يعتبر تمهيدا قصيرا زمن البرونز . وقد جاء حاملا معه لأول مرة المدنيّة بما تعنيه من مفهوم نشأة المجتمع المدنى ، ففي هذا الزمن عاش الانسان في بعض جهات العالم في شكل جماعات أو شعوب منظمة خضعت لنظام معين وقانون محدد ونعمت بالاستقرار واستغلت ثرواتها . واتجهت بأوقات فراغها في التعليم وممارسة الفن ومعرفة الكتابة التى وسعت بدورها أفق الأفراد لأن الكلمة المكتوبة تحفظ خبرات السلف ليستفيد منها الخلف . زمن البرونز هو فترة التكوين في تاريخ الحضارة اذ كل مظاهر المدنيّة وأنظمتها بدأت تتشكل في خلال هذا العصر . وقد بدأ هذا التغير الحضارى خلال الألف الرابع ق.م أو عند أواخره . واقتصر على مناطق قليلة من العالم كانت ظروفها الجغرافية من تربة ومناخ ملائمة لحدوث هذا التغيير . أما في المناطق الأخرى من المعمورة فظلت الجماعات الزراعية تعيش وفقا لأسلوب حياتها التقليدى القديم أى تعيش في العصر الحجرى أى فيماقبل التاريخ لفترة أخرى من الزمن استغرقت بضع مئات من السنين أو لألف سنة أخرى أو أكثر .

وقد حدث الانقلاب الحضرى في العراق على ضفاف الدجلة والفرات ثم مالبث أن حدث في مصر على ضفاف النيل . وبعدئذ حدث في الهند على ضفاف السند ،

---

(١) عالم من أبرز الباحثين في نشأة الحضارات الأولى للانسان . ومن أشهر موءلفاته : " ماذا حدث في التاريخ " و " الانسان يصنع نفسه " ، و " عصر البرونز " وضوء جديد على الشرق في أقدم عصوره " (١٩٣٥) .

وفي الصين على ضفاف النهر الأصفر . وهذه المناطق الأربع هي المراكز الرئيسية للحضارات النهرية أى المرتكزة على النهر . وقد مر بنا من قبل ذكر ظروف البيئة الجغرافية التى مكنت وادى الرافدين ووادى النيل من أن يقوما بدور الطليعة في موكب الحضارة ، وأشرنا الى نظرية المؤرخ الكبير توينبى عن " التحدى والاستجابة " (١) .

وقد ذكرت أن التغير الحضارى كان بطيئا في معظم مناطق العالم الأخرى . ويرجع ذلك الى أن انسان العصر النيوليثى قد كرس في هذه المناطق كل جهوده لانتاج الطعام الذى يكفيه وأسرته في تربة غير خصبة اقتضت مجهودا كبيرا لاعدادها . ومن ثم لم يحدث التغير الا حينما أصبح هناك فائض من الطعام مكن بعض أفراد المجتمع من التفرغ لأشياء أخرى غير الزراعة ، كما مكن المزارع نفسه من استغلال أوقات فراغه في التمتع بالحياة . هكذا كان من المستلزمات الأولى لقيام المدنيّة وجود تربة خصبة سهلة الاستغلال وتعطى بشيء من السخاء أو تغدق الرخاء . وقد كان للمناخ الملائم دوره الفعال في التقدم الحضارى . كان المناخ أحد العوامل الأساسية التى شجعت الانسان على العمل خارج المنزل على مدار السنة ، وهو المسئول في بعض المناطق عن الخمول والحد من نشاط الانسان . ولا ننسى أن صفاء سماء الشرق الأدنى قد أتاح للانسان فيه رؤية النجوم والكواكب بوضوح مما مهد لقيام التنجيم ( astrelegy ) وبعدئذ علم الفلك ( astronomy . ) . وقصارى القول أنه قد أحرزت السبق في عصر البرونز منطقتان الأولى هى أرض الرافدين . وكانت مليئة بالمستنقعات ويخترقها نهرا الدجلة والفرات اللذان ينبعان من هضبة أرمينيا في الشمال ويشقان طريقهما جنوبا نحو الخليج العربي حاملين معهما الطمى . وأخذ الطمى بدوره يترسب قرب الخليج العربي في نفس الوقت الذى أخذت فيه المستنقعات تجف مفسحة المجال لظهور سهل فيضى خصب لم يعرف له مثيل من قبل . أما المنطقة الثانية فكانت دلتا النيل التى بدأت تعمر بالسكان لأول مرة بعد أن انحسرت مياه النيل عن فروع الدلتا . وتعهد الفيضان السنوى بتجديد خصوبة التربة في كل عام . ويبدو أن الطبيعة قد هيأت لهاتين المنطقتين فجأة تربة خصبة ذات انتاج زراعى وفير ، وبيئة مناخية ملائمة للتطور السريع . هكذا قامت في كلا القطرين على الأرض الفيضية الخصبة أكواخ منعزلة في بادىء الأمر ثم ما

---

(١) راجع ص ٨٢ — ٨٣ .

لبثــــت أن تحولت الى قرى . وتطورت بعض القرى الى مدن صارت لها اتصالات خارجية . ومع الاستقرار البشرى بدأ المجتمع المتحضر في الظهور ، واستقر مبدأ تقسيم العمل والتخصص ، ونشأت الطبقات ، ونظمت التجارة ، واخترعت الكتابة ، وشيدت المعابد والمقابر الكبيرة وغيرهـــا من المباني الضخمة .

لكن على الرغم من التشابه بين "الانقلاب الحضرى " أو " الثورة المدنية " فـــي العراق والثورة المدنية في مصر الا أن حضارة المنطقة الأولى قد اختلفت عن حضارة المنطقة الثانية في بعض المظاهر الأساسية . ولا جدال في أن الحياة الاجتماعية البدائيـــــة البسيطة التي كانت تميز العصور الحجرية أو حتى النحاسية قد اختفت من المنطقتيــــن بعد أن قامت فيهما حياة مدنية على أسس اقتصادية جديدة . لكن المجتمع المتحضــــر في العراق انحصر في عدد من دويلات المدن المستقلة التي حرصت كل منها على حكمهـــا الذاتي على غرار ما ستفعله دويلات المدن اليونانية فيما بعد . أما في مصر فقد انتظـــم أو اندمج كل وادى النيل في دولة واحدة تحت حكم ملك واحد . ولعل هذا التناقـــض في النظام السياسي بين المجتمعين العراقي والمصرى هو أحد الاختلافات الهامة بيـــن الحضارتين .

* * *

# الفصـــل السابـــع

## الساميّـــون Semites

سمى الساميون كذلك نسبة الى سام ( أحد أبناء نوح ) الذى ورد ذكره فـي الاصحاح العاشر من سفر التكوين ( Genesis ) في العهد القديـــــم Vetus Testamentum [1] ( وتســـمى الأسفار الخمسة منه بالتوراة ) بأنه كان له ثلاثة أبناء : أرام وأشور وعبر أى الأراميين والأشوريين والعبريين . ولهذا استعمـل العلماء لفظ الساميين اسما مشتركا لتلك المجموعة من الشعوب التى ينتمى اليهـــا من لغاتها دون لبس أو ابهام . وبعد ذلك اتسع مفهوم اللفظ بعد أن كشف علـــم الآثار عن شعوب أخرى لها صفات مماثلة ، وبعد أن صار من الممكن أن نحدّد بدقـــة الصفات المميزة أو الأساسية التى يكون بها الشعب شعبا ساميّا ) واللغة لغـــة سامية ، والحضارة حضارة سامية .

كانت الجزيرة العربية وأرض الرافدين وسوريا وفلسطين هى الموطن التاريخى للشعوب السامية . وقد أقامت هذه الشعوب في تلك البلاد اقامة متصلة . لكـــن ليس معنى هذا أنها لم تنتشر وراء حدود تلك البلاد سواء في غزوات تتفاوت فـــي مداها وطول زمنها أو للاقامة في مناطق أخرى بصفة دائمة . وعلى سبيل المثـــال نجد :

أ ـ بعض أقوام من الساميين أقاموا بصفة دائمة على الساحل الافريقـــى المواجه لليمن ، أى خارج النطاق السامى . فقد أخذت قبائل عربية مختلفة قبـــل بداية المسيحية بزمن طويل تهاجر الى ذلك الساحل الافريقى يجذبها اليه ثـــراؤه الطبيعى ، وأنشأت هناك مراكز تجارية ، فقامت بذلك موانيء عدة على امتداد الساحـل الغربى للبحر الأحمر ، بينما انتشر المهاجرون أيضا الى الداخل واستوطنــــوه استيطانا دائما ، فارضين حكمهم على السكان المحليين . وهذا هو أصل دولـــة أكسوم القديمة .

---

( ١ ) في الانجليزية Old Testament التى يرمز اليها بالحرفين O.T. تميـــزا لها عن العهد الجديد ( N.T. ) وهو الانجيل .

ب ـ محاولات الفتح العسكري وأهمها الفتوحات الاسلامية . لكن لما اضمحلت قوة المسلمين وتصدعت الامبراطورية العربية بقيت عناصر عربية أي سامّية كثيرة في لغات ودماء الشعوب التي اكتسحتها موجة هذه الفتوحات .

جـ ـ وانتشر الساميّون خارج وطنهم بطريقة أخرى هي اقامة المستعمرات كتلك التي أنشأها ذلك الشعب الساميّ المشهور بجرأته على الملاحة وهم الفينيقيون الذين أسسوا قواعد في نقط استراتيجية في حوض البحر المتوسط لحماية تجارتهم، فأنشأوا مستعمرات في افريقيا مثل قرطاجة وفي صقلية وأسبانيا .

د ـ وأخيرا انتشار اليهود ، وهم شعب ساميّ ، وقد بدأ هذا الانتشار ( Diaspora ) حتى قبل تخريب الرومان لأورشليم وتحويلها الى مستعمرة رومانية عام ١٣٤ م . وقد أوجد في شتى أنحاء العالم جماعات أو جاليات يهودية تتمسك بتقاليدها تمسكا شديدا وتعيش في أحياء خاصة ( ghettos ) .

وتتميز مجموعة الشعوب السامية عن غيرها بصفات معينة مشتركة بينها . وهذه الخصائص لغوية قبل كل شيء . اذ يوجد بين اللغات السامية من التشابه الكبير في الأصوات والصيغ والتراكيب والمفردات ما لا يمكن ارجاعه الى حدوث اقتباسات فيما بينها ، ولا سبيل الى تفسيره الا بافتراض أصل مشترك لها .

ويمكن تقسيم هذه اللغات السامية الى خمس مجموعات رئيسية تصلح أساسا لتقسيم الشعوب التي كانت تتحدث بها :

١ ) المجموعة الأكدية : سميت كذلك نسبة الى أكدّو ( وهو مرادف للفظ السومري أجدي Agade ) وهو مكان اقتراب الدجلة من الفرات . وتشمل البابلية والأشورية وهي لغة اقدم سكان ساميين أستوطنوا أرض الرافدين وهم البابليون ( نسبة الى بابل ) والأشوريون ( نسبة الى أشور ) .

٢ ) المجموعة الكنعانية : سميت كذلك لأنه كان يتحدث بها أهل المنطقة التي تسميها التوراة كنعان وهي فلسطين وجزء من سوريا ( فينقيا = لبنان ) وتشمل الأوجارتية والفينقية وكذلك العبرية .

٣ ) المجموعة الآرامية : وهي طائفة من اللهجات وجدت أولا في سوريا ثم انتشرت انتشارا واسعا في المناطق المحيطة بها .

٤ ) المجموعة العربية : وقد وجدت في كثير من النقوش قبل ظهور الاسلام ، وخاصة باليمن . ولكن استقر طابعها الكلاسيكي في القرآن والأدب الاسلامي بعد ذلك .

٥ ) المجموعة الاثيوبية : التي كان يتكلم بها المستوطنون الساميون في الحبشة . وكانت في العصور القديمة لغة واحدة ، لكنها في العصور الوسطى صارت مجموعة بانقسامها الى عدة لهجات متميزة .

بقي سؤال : الى أي حد يحق لنا الحديث عن شعوب سامية ؟ لا ريب أن اللغات السامية تؤلف فيما بينها أسرة متميزة متحدة . لكن هل نستطيع أن نقول مثل ذلك عن الشعوب التي كانت تتحدث بها ؟ في رأى كثير من العلماء أن فكرة السامية لا تصح الا في الميدان اللغوى ولا يمكن على نحو صحيح اطلاقها على شعوب أو صور من الحضارة . لكن هناك علماء آخرين ينادون بعكس ذلك مؤيدين دعواهم بالاشارة الى " الشبه العائلى " الملحوظ في النظم الاجتماعية والدينية للشعوب المتحدثة باللغات السامّية .

وينبغي أولا تحديد مدلول" الشعب " ، فعلم الاثنولوجيا الحديث (١) يعرّف الشعب بأنه مجموعة من الأشخاص الذين قد يختلفون في الموطن الأصلى والجنسى ، ولكنهم ممتزجون في وحدة متجانسة بفضل وحدة المسكن واللغة ( وان كانت وحدة اللغة موضع خلاف فمن الشعوب ما تكون فيه أكثر من لغة ) ثم وحدة التقاليد التاريخية والحضارية . فاذا طبقنا التعريف على الشعوب التي تتكلم اللغات السامية وجدنا أنه يصدق على كل منها منفردا ، بل ان الشعوب المتكلمة باللغات السامية تؤلف كتلة متجانسة لا باجتماعها فحسب في صعيد جغرافى واحد والتحدث بلهجات منحدرة من أصل لغوى واحد ( Ursemitisch ) بل باشتراكها أيضا في أصل تاريخى حضارى واحد ، اذ أنها وفدت جميعا من موطن أصلى واحد هو صحراء الجزيرة العربية ، وانتقلت جميعا من حياة البداوة الى حياة الزراعة والاستقرار في

---

(١) علم الاثنولوجيا ( ethnology ) هو علم دراسة الأجناس .

المناطق الخصبة حول الصحراء . وأما عن مسألة الجنس فهي لا توثر في تحديد الشعوب السامية من حيث هي كذلك ، لأن أكثر الشعوب تماسكا وتجانسا قد تشتمل على عناصر جنسية شديدة التباين . لكن يمكن أن نتحدث عن وجود أنماط جنسية في المنطقة السامية . ففي الوقت الحاضر يسود نمطان أولهما النمط الشرقي السائد وحده في الجزيرة العربية وبعض مناطق فلسطين وسوريا والعراق . والثاني هو النمط الشبيه بالأرمني ( Armenoid ) الموجود ، الى جانب الأول ، في فلسطين وسوريا والعراق . ويبدو أن النمط الشرقي ( المعروف أيضا بالايراني ) كان هو السائد أصلا في المنطقة السامية كلها ، بينما لم ينفذ النمط الشبيه بالأرمني الى المنطقة الا في الألف الثاني قبل الميلاد ، ولعله جاء نتيجة الاختلاط مع الحيثيين في الشمال . وبعض ملامح هذا النمط الأخير صارت تعد من الملامح المميزة لليهود . ولا يقتصر هذان النمطان على المنطقة السامية ، فالنمط الشرقي يمتد الى ايران وشمال افريقيا ، والنمط الشبيه بالأرمني يمتد الى الأناضول والقوقاز . ثم انهما لا يوجدان في جميع المناطق السامية ، فالساميون في الحبشة لهم نمط جنسي خاص . وهذا كله ينطوي على نقض للنظرية التي تنادي بمجموعة جنسية تتفق والمجموعة اللغوية السامية .

لكن المهم هو الوضع الجنسي لسكان صحراء الجزيرة العربية التي أتى منها الساميون ، وهنا نجد تشابها جنسيا ملحوظا سببه انعزال الصحراء واطراد أحوالها . ولهذا يبدو أن الساميين كانوا في الأصل مجموعة شعبية ( ethnic group ) يزيد من تماسكها تشابه في الجنس داخل نطاق النمط الشرقي . وذلك على الرغم من أنه ليس هناك قطعا شيء اسمه " الجنس السامي " ( ١ ) .

## جدول اللغات السامية

تنقسم اللغات السامية الى شرقية وغربية . والغربية تنقسم الى شمالية وجنوبية :

الشرقية وتشمل الأكدية ( = البابلية والأشورية بلهجاتهما ) .

الغربية (أ) الشمالية ( في سوريا وفلسطين ) وتشمل مجموعتين :

---

( ١ ) سبتينو موسكاتي " الحضارات السامية القديمة " ( تعريب د . السيد يعقوب بكر ) . القاهرة ( ١٩٦٨ ) ص ٤٢ — ٥١

| المجموعة الكنعانية (١) | المجموعة الآرامية |
|---|---|
| العبريـــة (٢) | أرامية العهد القديم |
| الفينيقيـــة | التدمريـــة (٣) |
| الأوجاريتية (٤) | النبطيـــة (٥) |
| | السريانيـــة |

(ب) الجنوبية وتشمل :

— العربية الشمالية ( في الحجاز ونجد بشمال الجزيرة العربيـــة ) وتشمل اللحيانية والثمودية والصفوية ، وهى لهجات عربية قبـــل الاسلام .

— العربية الجنوبية ( في اليمن وشماله ) . وتشمل لهجات معين ، وسبأ ، وقتبان ، وحضرموت . (٦)

— الحبشيـــة ( في الحبشة ) مثل الجعزية والامهريـــة . وهى امتداد للعربية الجنوبية .

---

(١) الكنعانيون هم سكان السهل المنخفض الساحلى بفلسطين ولبنان وسوريا . وقد استقروا في لبنان . ويسمى الكنعانيون أحيانا بالفينيقيين .

(٢) العبرية لغة اليهود . وكان لهم منذ حوالى ١٠٠٠ ق.م دولتان : اسرائيل في الشمال ويهوذا في الجنوب وذلك حتى "السبى البابلى" عام ٥٨٦ م .

(٣) لغة تدمر في سوريا وتسمى في اللغات الأوربية القديمة والحديثة بالميـــرا ( Palmyra ) .

(٤) لغة أوجاريت وهى رأس شمره الحالية على الساحل السورى .

(٥) النبطية لغة النبط أو الأنباط وعاصمتهم سلع المسماة بترا Petra ( أى الصخرة ) في جنوب الأردن .

(٦) ترجع معين الى حوالى عام ١٠٠٠ ق.م وعاصمتها "قرناو" شمال شرقى صنعاء .
— سبأ عاصمتها أولا صروح أو ضرواح ثم مأرب .
— قتبان عاصمتها تمنع .
— حضرموت عاصمتها شبوه .

(٧) السريانية لغة آرامية متأخرة .

ملاحظة : كانت اللغة الدولية المنتشرة في الشرق الأدنى ( lingua franca ) هى الأكدية وبعدئذ الآرامية ثم اليونانية الهللينستية ( Koinê ) وأخيـــرا العربية .

ملاحظة : كالديا ( Chaldea ) هى الدولة البابلية المتأخرة التى قضـــى عليها الفرس في عام ٥٣٩ ق.م .

## الهجرات السامية الكبـــرى

صحراء الجزيرة العربية وبخاصة أطرافها الشمالية الشرقية ( منطقة الخليـــج العربي ) هى المنطقة التى انطلقت منها أقدم الهجرات السامية متجهة الى أوديـة الأنهار الخصبة في المناطق المجاورة بأرض الرافدين وسوريا وفلسطين • ولعــــل الجفاف والجدب كانـا الى جانب التجارة من أهم العوامل التى دفعت الساميـين الى البحث عن مواطن جديدة في الشمال • وقد حدثت خمس هجرات سامية كبرى :

- الهجرة الأولى ويرجع تاريخها الى حوالى عام ٣٠٠٠ق٠م٠ وأتـــــت بالأكديين (البابليين والأشوريين) •
- الهجرة الثانية ويرجع تاريخها الى ما قبل ٢٥٠٠ق٠م٠ وهى التى أتت بالكنعانيين•
- الهجرة الثالثة ويرجع تاريخها الى حوالى ٢٠٠٠ق٠م وقد أتت بالآراميين•
- الهجرة الرابعة حدثت حوالى عام ٥٠٠ق٠م وكانت تتألف من قبائـــل بدائية قامت بنهب مملكة يهوذا وادوم وموآب وعمون • وقد دفعــــت بالادوميين من أراضيهم القديمة الى جنوب أرض يهوذا• وأهم من ذلك أنها أتت الى شرق الأردن بالقبائل العربية الأصل التى ظهرت فيمــا بعد باسم النبطيين أو النبط والذين كانت عاصمتهم هى بترا أو البتــرا ( في شمال شرقى خليج العقبة )• وكان أول ملوك النبط هو الحارث الأول (١٦٩ق٠م) وآخرهم هو رحبيل الثانى (٧٠ — ٩٥م)•
- الهجرة الخامسة هى هجرة عرب شمال الجزيرة العربية في صـــــدر الاسلام في القرن السابع بعد الميلاد • وقد نتجت عنها الفتوحـــات الاسلامية الكبرى وانتشار العرب في المشرق حتى حدود الهنـد وفـــي المغرب حتى أسبانيا •

ولما كانت الهجرتان الأخيرتان لا تدخلان في نطاق موضوعنا فسنقصر الحديث على الهجرات الثلاث الأولى •

**الهجرة السامية الأولى : (قبل عام ٣٠٠٠ق٠م)**

أتت هذه الهجرة — على نحو ما ذكرنا — بالأكديين وهم البابليون والأشوريون الذين اندمجوا مع السومريين غير الساميين الذين كانوا قد وفدوا من قبلهم الى أرض الرافدين(١) ٠ واندمج الشعبان الأكدى والسومرى وتعايشا سلميا وتضافرت جهودهما من أجل البناء والتعمير ٠ وقد استطاع أحدهم وهو سرجون ( Sargon ) الأكدى أن ينهى عهد دويلات المدن السومرية ويستولى على أجدى Agade أو أكد Akad ( شمال أرض بابل عند اقتراب الدجلة والفرات) ثم على سومر Sumer (جنوب أرض بابل ) ٠ وبذلك وحّد جميع أرض بابل تحت حكمه ٠ ثم وحّد بلاد الرافدين بقسميها الشمالى والجنوبى ٠ وأسس الامبراطورية الأكدية حوالى عام ٢٣٥٠ ، وهى أول امبراطورية سامية وكانت عاصمتها أكد ( = أجدى في السومرية) التى لا يزال مكانها غير معروف على وجه الدقة ، وان كان من المرجح أنها قرب بابل عند اقتراب النهرين ٠ وكانت عاصمته الدينية هى نيبور Nippur ( نفر الحالية ) وأما الاله الرئيسى فكان انليل ( Enlil ) اله الفضاء والعاصفة عند السومريين ٠ وتوسع سرجون شمالا حتى بحيرة فان ، وغزا الأناضول وسوريا وفلسطين ومنطقة عيلام ( في فارس القديمة ) شرقى الدجلة ، ومنطقة الخليج العربى ٠ وهكذا صار معظم الشرق الأدنى تحت سيطرته ، وأنشأ — كما ذكرنا — أول امبراطورية سامية ، بل أول امبراطورية في العالم ٠ ويقابل عصر سرجون في التاريخ المصرى عصر الأسرة السادسة على وجه التقريب( ٢٣٥٠ — ٢٢٠٠ق٠م) ٠ ومن أشهر خلفائه حفيده نرام سن ( Naram- Sin ) الذى جعل الأكدية لغة رسمية وان ظلت السومرية مستعملة في بعض الأغراض ٠ وأدخل نظام التأريخ الموحد للملكة كلها ٠ وغير لقبه القديم " ملك أكد ٠٠٠ الخ" واتخذ لقبا جديدا هو " ملك أقطار العالم الأربعة " ويقصد بها سومر وأكد وسوبارتو وأمورو ٠

وقضت على الامبراطورية الأكدية قبائل الجوتيين ، وهى قبائل همجية كانت تسكن في الجبال الشمالية الشرقية ٠ وقد زحفت على السهول الخصبة وفتحت بلاد أكد وسومر وخربت المدن ٠ هكذا انتهت الامبراطورية الأكدية حوالى عام ٢١٥٠ بعد أن استمرت نحو قرنين من الزمان ٠ وقد دام حكم الجوتيين زهاء ستين عاما ٠ وتقابل هذه الفترة في مصر نهاية الأسرة السادسة وبداية العهد المسمى بعهد الفوضى الأول ٠

---

( ١ ) عصر السومريين الأوائل هو عصر دويلات المدن (٣٠٠٠—٢٣٥٠) ٠ ويقابل عصر الأسرات الخمس الأولى في مصر على وجه التقريب ٠ وأول أسرة تاريخية هى أسرة أور ( تل المقير ) ثم أوروك (الوركاء) ثم الجش ( تل اللوح ) ٠ قام بتوحيد هذه الدويلات أى القسم الجنوبى من العراق لوجال زاجيزى ( Lugalzaggisi ) ملك مدينة أوما ( Umma ) ٠ ربطها بقانون موحد وترك لنا كتابات دينية كثيرة ٠

وتسمى الفترة التالية في تاريخ بلاد الرافدين بالعهد السومري الأخير الذي قام فيه من جديد حكم دويلات المدن في الجنوب . وكان من أشهر ملوك هذا العهد الملك جوديا ( كوديا ) من أسرة لجش Lagash ( تل اللوح الحالية ) التي تعتبر من أقدم المدن السومرية . وكان عصره عصر عمران . وحكم حوالي ٤٠ عاما . وكذلك يجدر التنويه بملك آخر سعى الى توحيد البلاد من جديد . كان هذا الملك هو أور نمو ( Ur- Nammu ) أول ملوك الأسرة الثالثة في أور Ur ( تل المقير ) في الجنوب . واستطاع أور نمو الاستيلاء على أكثر دويلات المدن السومرية والأكدية . وأعاد حفر شبكة القنوات ، وأصلح ما تهدم من المعابد . ومن أهم آثاره معبد الاله نانار Nannar اله القمر ( بمعنى المنير ) عند السومريين (١) . وتعتبر الشرائع التي وضعها الملك أور نمو ليحكم بها البلاد من أقدم القوانين ( السومرية - السامية ) التي وصلتنا حتى الآن (اكتشفت عام ١٩٥٢ ) ، اذ ترجع الى حوالي عام ٢٠٥٠ ق.م. فهي أقدم من قوانين لبيت عشتار ( lipit- Istar ) ملك ايسين Isin في جنوب بابل ( ١٨٧٥ - ١٨٦٥ ) . وكلا المدونتين اللتين سنهما وجمعهما هذان الملكان مهدت لظهور أشهر المدونات القانونية في العالم القديم ألا وهي مدونة في عالم الشرق الأدنى القديم ألا وهي مدونة حمورابي سادس ملوك الأسرة الأمورية في بابل ( حوالي ١٧٩٢ ق.م. )

وقد خلف أور نمو ابنه شلجي ( دنجي ) الذي لقب نفسه " ملك أقطار العالم الأربعة " مما يشير الى محاولة اعادة توحيد البلاد واحياء امبراطورية نرام سن وسرجون الأكدي. وقد اتخذ من السومرية لغة رسمية للدولة . وأنشأ نظاما دائما للمراسلات بين أطراف المملكة . وتميز حكمه بحسن التنظيم والادارة في الداخل والخارج . وتدعّم الحكم المركزي . وركز في يده أمر تعيين حكام الأقاليم بدلا من اسنادها الى الأمراء بالوراثة .

---

(١) هو عضو ثالوث الكون (للأجرام السماوية) التي تسيطر على الحياة في الارض وتتحكم فيها . وكان هذا الثالوث يتألف من نانار Nannar (اله القمر) وأوتو ( Utu ) اله الشمس، وانانا ( Inanna ) نجمة الصباح . وكانت انانا ربة الأرض بمعنى " الأرض الأم " كمصدر للخصب . وكانت عبادتها قديمة وأصلها ساميا . وغالبا ما كانت تقترن بوصفها " ربة الأرض " أو " الارض الأم " في الشعر والاساطير باله شاب هو دموزي ( تموز ) الذي يموت ويولد من جديد كرمز على موت النبات وحياته في الطبيعة كل عام. وكان تموز يلقب بأدوني ( أي ياسيدي ) ومن ثم فقد أطلق عليه الاغريق فيما بعد اسم أدونيس (Adonis ) عشيق أفروديتي ( فينوس ) .

ولم تطل فترة " العهد السومري الأخير" اذ أدى ضعف الملوك الأواخر من اسرة أور ( أى الحاكمة في أور) الى عودة البلاد الى نظام دويلات المدن ، ذلك النظام الذى بدأ به العراق القديم فجر تاريخه على يد السومريين . وقد تعرض جنوب البلاد لهجوم من جانب شعب غير سامى وهم العيلاميون الذين هبطوا من عيلام ( شرقى الدجلة في جنوب غرب ايران ) وخربوا أور تخريبا . واستغل بعض الأمراء الفوضى واستقلوا بمدنهم . كما أثبت شعب سامى آخر وجوده في فلسطين وسوريا وأرض الرافدين في الوقت ذاته ونعنى به الأموريين .

٢ - __الهجرة الثانية__ : قبل ٢٥٠٠ ق.م.

أتت هذه الهجرة بالكنعانيين الى السهول المنخفضة على ساحل الشام ( سوريا ولبنان وفلسطين ) . ويبدو من دراسة المصادر أن لفظى كنعان والكنعانيين كانا يعنيان قبل كل شيء فينيقيا والفينيقيين . ولم يستعمل اللفظان الا في عصر متأخر للدلالة على مفهومين أوسع نطاقا ، أحدهما جغرافى والآخر جنسى ، فأصبح اللفظان يطلقان على المنطقة السورية - الفلسطينية بأسرها وعلى سكانها . لكن بعد مجىء الآراميين ( في الهجرة السامية الثالثة ) اتضحت حدود تلك التسمية فسميت المنطقة المكونة من فينيقيا وفلسطين بكنعان ، وسكانها بالكنعانيين (١). ومن ثم اصطلح العلماء على اطلاق اسم الكنعانيين على الرواد الأوائل من أسلاف العبريين وجيرانهم الساميين المستوطنين في ظهير سوريا مع استثناء الآراميين (٢).

والكنعانيون اسم جامع يشمل عدة عناصر مستقلة يمكن وصفها بأنها غير الآرامية كالأموريين ( Amorites ) والمؤابيين ( Moabites ) والادوميين ( Edomites )

---

(١) كما ورد في التوراة .

(٢) هذه التسمية غير مرضية تماما لأن الكنعانية من حيث هى مجموعة لغوية لا تشكل وحدة حقيقية ، فلفظ كنعانى يطلق على أى عنصر لغوى سورى- فلسطينى لا ينتمى الى الآرامية . وهذه السلبية في الدلالة تتفق مع ما ذكرناه عن المعنى الجنسى ( العرقى ) للكلمة .

والعمونيين ( Ammonites ) وغيرهم [١]. وكان اسم كنعان يعتبر الى وقت قريب اسما سامّيا بمعنى الأرض المنخفضة تمييزا لها عن مرتفعات لبنان . لكن الاسم أصبح الآن مشكوكا في أصله السامى ويظن أنه من أصل غير سامى . والاشتقاق الجديد يجعله من كلمة كناجى أو كناعى knaggi وهى كلمة حورية الأصل [٢] بمعنى الصبغة الأرجوانية ( وترد الكلمة في صور لغوية مشابهة في الاكدية ( وثائق نوزى قرب كركوك وتل العمارنة في مصر الوسطى ) وفي الفينيقية ( أوجاريت ) ، وفي العبرية بمعنى بلاد الأرجوان . ويبدو أنه في العصر الذى احتك فيه الحوريون ( الميتانى ) احتكاكا وثيقا بساحل البحر المتوسط في القرن الـ ١٨ أو ١٧ ق.م. كانت صناعة الأرجوان هى الصناعة السائدة في البلاد . وكان يصنع من الأصداف والمحار ( murex ) وفي الحق ان اسم فينيقيا المشتق من الكلمة اليونانية فوينكس phoenix بمعنى أحمر أرجوانى انما يشير الى الصناعة نفسها . وقد أطلق الاغريق على الكنعانيين اسم الفينيقيين . ولم يأت القرن الثانى عشر ق.م. حتى أصبح لفظ فينيقى مرادفا لكنعانى .

ذكرنا ان الكنعانيين اسم جامع يدل على عدة عناصر عرقية مستقلة . وأهمها الأموريون والفينيقيون. وكان الأموريون هم الأسبق زمنيا في سوريا واسم الأموريين

---

( ١ ) وعن العبريين الذين كانوا يتكلمون أصلا صورة من الآرامية ثم اختلطوا بعد دخولهم الى المنطقة بالكنعانيين . وقد دخلوها مع الهجرة الثالثة التى أتت بالآراميين ومع الحركة التى أتت بالهكسوس (القرن الـ ١٨ ) والحوريين ( القرن الـ ١٥ ) وكذلك من مصر ( القرن الثالث عشر ق.م ) . وقد تعلم العبريون الزراعة من الكنعانيين وحياة الاستقرار وأخذوا عنهم ( وعن الأموريين الذين كانوا موجودين قبلهم ويقطنون المرتفعات ) بعض المعتقدات الدينية بل انهم هجروا لغتهم الأصلية واقتبسوا اللغة الكنعانية واعتبروها مع مرور الزمن لغة عبرية وتصوروا أنها كانت لغة موسى عليه السلام .

( ٢ ) حورّى نسبة الى الحوريين من شعوب الجبال في شمال أرض الرافدين ، والذين تدفقوا منذ القرن الخامس عشر ق.م. ( ١٥٠٠ ) على الجنوب وأسسوا دولة الميتانى Mitanni القوية التى بلغت سواحل البحر واصطدمت مع ملوك الأسرة الثامنة عشرة من مصر ( التى يبدأ تاريخها حوالى ١٥٨٠ ق.م ) . وقد ظلت دولة الميتانى قائمة حوالى قرن ونصف من الزمان . وكان قد سبقهم في الاغارة على الشرق الأدنى الهكسوس ( حوالى ١٧٣٠ ) . وأغار من بعدهم شعوب أخرى من الجبال مثل الكاشيون الذين وفدوا من المنطقة حول بحر قزوين واستقروا بجنوب العراق . ويمكن أن نضيف أيضا الحثيين الذين استقروا في الأناضول وكونوا دولة بل امبراطورية قوية . وهذه الشعوب شعوب الجبال ليست سامية بل تنتمى الى الشعوب الهندية الأوروبية . وتقارن حالة الشرق الأدنى في زمن سيطرتهم ( ١٥٠٠ - ١٢٠٠ ) بحالة أوروبا في اوائل العصور الوسطى .

معناه "الغربيون" . وكانوا بدوا ساميين يتجولون من قبل في المناطق والبقاع الشمالية وراء قطعانهم . ثم فرضوا أنفسهم على مجتمع سابق متمدن من سكان بلاد الرافدين. وتسميهم المصادر السومرية مارتو ( Martu ) ،والمصادر الأكدية أمورو ( Amurru ). ويرد ذكرهم أيضا في العهد القديم . ويبدو أن "أمورو" كلمة غير سامية . ولعل معناها - كما أشرنا - "بلاد الغرب" . وأما "مارتو" فهو اسم الههم القديم ،اله الحرب . وفي الحقيقة اننا لا نعرف الاسم الذى يطلقه الأموريون على أنفسهم ،لأن "الأموريين" هو الاسم الذى أطلقه عليهم السومريون . لكن البابليين وسعوا مع الزمن مفهوم هذا الاسم أى أصبح ذا مدلول أوسع وصار يعني أو يشمل سوريا كلها . وقد سمى البابليون البحر المتوسط باسم "بحر أمورو العظيم" .

في الحق ان أول شعب سامى بحث عن موطن دائم له في سوريا هم الأموريون. وليس بين الأموريين والكنعانيين ( المنتسبين جميعا الى هجرة سامية واحدة ) أى اختلاف جنسى (عرقى ) وان كان الأموريون قد اندمجوا بالتدريج في بعض العناصر السومرية والبابلية والحورية بينما اندمج الكنعانيون ( الفينيقيون ) في العناصر المحلية الأخرى . والاختلاف الحضارى نشأ بسبب الموضع اذ كان مركز الأموريين في شمال سوريا ولذلك تعرضوا لتأثيرات سومرية وبابلية بينما كان الفينيقيون يتجهون نحو مصر ويولون وجوههم شطرها . وأما الاختلاف الدينى فكان اختلافا في التطور والتكيف حسب البيئة المحلية . وأما الاختلاف اللغوى فكان اختلافا في اللهجة فقط باعتبار أن اللغتين كانتا من الفرع السامى الغربى الذى يضم العبرية . وهذا الفرع نفسه يمكن تسميته بالشمالى الغربى لتمييزه عن الجنوبى الغربى الذى يضم العربية .

وقد أسس الأموريون لهم ( قبل القرن الثامن عشر ق.م. ) دولة في منطقة الفرات الأوسط كانت عاصمتها مارى Mari ( تل الحريرى الحالية ) . وكانت مارى في الاصل عاصمة لدويلة سومرية ثم قضى عليها سرجون الأكدى . ولم يلبث الأموريون أن اجتاحوا بلاد الرافدين وحكموها . ثم اجتاحوا بالتدريج سوريا الوسطى ( منطقة دمشق ) وشمال شرقى لبنان . وأصبحت كلها أمورية في سكانها وحضارتها وحكوماتها.

وكان الأموريون الى جانب دولتهم في منطقة الفرات الأوسط (وعاصمتها مارى التى ازدهرت خلال القرن الثامن عشر م)قدأسسوا عدة دويلات أمورية انتشرت من شمال بلاد الرافدين الى جنوبها . وكانت أهم هذه الدويلات أو الممالك الصغرى.

١ - أشور ( قلعة شرقاط الحديثة ) على نهر الدجلة الأعلى . وكانت دويلة مستقلة .

٢ - اشنونا أو أشننا ( Eshnuna ) (تل الأسمر) في منطقة وادى ديالة شرقى بغداد . وتشمل أيضا شدبم Shaduppum ( تل أبو حرمل ) . وكان من أشهر ملوكها بيلالاما ( Bilalama ) الذى وضع مجموعة من الشرائع تشتهر الآن باسم " قانون بيلالاما " . فهى بذلك أقدم من مدونة حمورابى بحوالى قرنين من الزمان . و " قانون بيلالاما " مكتوب بالأكدية . وقد ازدهرت مملكة أو اشنونا في الفترة ما بين سقوط دولة أور الثالثة ( حوالى ٢٠٠٠ ق.م ) وبين قيام امبراطورية حمورابى سادس ملوك الأسرة الأمورية في بابل (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ) الذى غزاها وهدمها .

٣ - ايسين Isin ( تل ايشان البحيرات جنوبى بابل ) . ويبدو أنها كانت جزءا من مملكة اشنونا التى تقع في نفس المنطقة ( وادى ديالة ) . وكان من أبرز ملوكها الملك ليبيت عشتار Lipit- Istar ( ١٨٧٥ - ١٨٦٥ق.م ) الذى أصدر مجموعة من القوانين وصلتنا منها شذرات . وهى متأخرة زمنيا عن " قانون بيلالاما " ببضع عشرات من السنين .

٤ - لارسا Larsa ( سنكرة الحالية ) . وتقع على الفرات شمالى أور (تل المقير) ويبدو أن هذه الدويلة كانت واقعة تحت سيطرة العيلاميين الذين كانوا يقطنون في جنوب غرب ايران ( شرقى الدجلة ) . وكان من أشهر ملوكها ريم سن ( Rim- Sin ) .

٥ - بابل Babylon التى تقع على الفرات ( في المنطقة الواقعة جنوبى اقتراب النهرين . وسيكون لهذه الدولة شأن كبير .

٦ - مارى Mari ( تل الحريرى ) بمنطقة الفرات الأوسط .

وجميع هذه الدويلات أو الممالك كانت قائمة في وقت واحد . ويسمى هذا العهد " بالعهد البابلى القديم " وهذا العهد يقابل في مصر عهد الدولة الوسطى (٢٠٥٠ - ١٨٠٠ ق.م )على وجه التقريب .

ومعلوماتنا الآن أوفر عن دولة ماري الأمورية . تقع ماري الآن على بعد حوالى ميل غربي الفرات ( جنوب مصب نهر الخابور ) قرب بلدة " ابو كمال" . وتعرف ماري الآن باسم " تل الحريري" . لكنها كانت تقع في العصور القديمة تقع على ضفة الفرات . وقد اكتشفها الأستاذ الفرنسي أندريه بارو (A. Parrot) حيث عثر على حوالى ٢٠٠٠٠ لوح من الطين مدون بالخط المسماري (وهو عدد لم يكتشف مثله الا في نينوى = كينجك الحديثة) ومكتوب باللغة الأكدية أو بالأحرى باللغة السامية الشمالية الغربية ( أي الأمورية ) وهي مختلفة على الأقل في اللهجة عن الأكدية أو السامية الشمالية الشرقية . وقد نشر وثائق ماري الأستاذ دوسن ( G. Dossin ) . وكان هذا الكشف الهام في ماري هو والقائمة الجديدة لملوك أشور التي عثر عليها في خورسباد الحالية ( وهي دور شروكين أي سور سرجون القديمة شمال شرقي نينوى ) هي التي جعلت بعض المؤرخين يتجهون الى الأخذ بما يسمى " بالتأريخ القصير " ( short chronology ) ، ويؤرخون بالتالي عهد حمورابي مثلا بين ١٧٢٨ - ١٦٨٦ بدلا من ١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق٠م أي بتقريبه حوالى ٦٤ عاما .

وتمثل ألواح ماري سجلات أو محفوظات زمري ليم Zimri- Lim آخر ملوك ماري ( حوالى ١٧٣٠ - ١٧٠٠ ق٠م ) . الذي أطاح به حمورابي سادس ملوك الأسرة الأمورية التي أسست " الدولة البابلية الأولى " ( ١٨٣٠ - ١٥٣٠ ق٠م ) . والمحفوظات عبارة عن مراسلات سياسية وادارية ووثائق اقتصادية قيمة . ويلاحظ أن الحضارة الأمورية كانت بوجه عام مزيجا من عناصر أمورية وحورية وبابلية .

وقد نشب النزاع بين هذه الدويلات الأمورية حتى ظفرت بالسيادة احدى هذه الدويلات بالصدارة وهي التي تسمى " بالدولة البابلية الأولى " .

هذه " الدولة البابلية الأولى " ( حوالى ١٨٣٠ - ١٥٣٠ ق م ) حكمتها أسرة أمورية حوالى ثلاثة قرون توالى على الحكم فيها حوالى أحد عشر ملكا . وكان سادسهم هو حمورابي Hamurabi الذي حكم وفقا " للتأريخ الطويل " ما بين ١٧٩٢ - ١٧٥٠ ، وبين ١٧٢٨ - ١٦٨٦ ق٠م وفقا " للتأريخ القصير " على نحو ما رأينا . كانت بابل هي عاصمة دولة حمورابي وكان عهده بداية فترة أخرى من الازدهار العظيم . ففي الميدان السياسي قام بتوحيد البلاد وقضى على سلطة الأمراء المحليين . ودمر اشنونا تدميرا .

وامتدت سلطة دولة بابل الى أشور في الشمال الى جزء من سوريا . وفي المجـــال الديني يرجع الى حمورابي بوجه خاص الفضل في علو شأن الاله مردوك ( Marduk ) الذى أصبح زعيم الآلهة ، وأعظم اله عند البابليين . وكانت زوجته هي صربانيتـــوم Sarpanitum ( أى الفضية أو اللامعة كالفضة ) . وكانت تنادى بلقب بلتيــــا ( Beltiya ) أى " ياسيدتي " مثلما كان بعلها ينادى بلقب بعلى Bela أى ياسيدى وكان ابنهما هو نبو أو نابو Nabu والذى كان يعبد على الأخص في بورسيبا Borsippa ( برس نمرود غربي بابل ) . وقد اكتسب مردوك الصفات التـــي كانت حتى ذلــك الوقت خاصة بالآلهة السومرية القديمة . وفي ميدان الاقتصاد يتميز عهد حمــورابي بالتوسع الكبير في الزراعة وحفر الكثير من القنوات الجديدة . وقد ازدهر الأدب أيضا في هذه الفترة ازدهارا كبيرا .

لكن شهرة حمورابي ترجع قبل كل شيء الى أنه سن مجموعة من القوانيــن ( أو لعله دونها ونسقها ) حظيت بشهرة كبيرة في شتى أنحاء أرض الرافدين . وهذه المجموعة القانونية المعروفة باسم " مدونة حمورابي " هي في الحقيقة تصنيف وتنسيــق للقوانين التى كانت قائمة حتى عهده ، وهي تتضمن قوانين السومريين والساميين ، شأنها في ذلك شأن قوانين أورنمو Ur- Nammu ، مؤسس الأسرة الثالثة في أور - وهي - كما ذكرنا - أقدم قوانين وصلتنا من أرض الرافدين اذ يرجع تاريخها الى حوالى عام ٢٠٥٠ ق.م. ، وكذلك قوانين ليبيت عشتار ( Lipit - Istar ) ، ملــك ايسين ( ١٨٧٥ - ١٨٦٥ ) التى ألمعنا اليها من قبــل . وقد جمع حمورابي هــذه القوانين ونسقها في مجموعة تشريعية واحدة ودونها على لوحة كبيرة من حجر الديوريت الأسود . ويحمل الحجر صورة الملك وهو واقف أمام شمش ، اله الدولة . وقد كشفــت شذرات من " قانون حمورابي " في عام ١٨٩٠ ثم اكتشفت اللوحة التى تحتوى على النص كاملا سنة ١٩٠٢ في التل الذى شيد فوقه حصن مدينة سوسا Susa (شوشن فـــي التوراة ) عاصمة عيلام ( في جنوب غرب ايران ) شرقى الدجلة . ويحتوى " قانون حمورابي " على ٢٨٢ مادة تعالج عشرة موضوعات رئيسية كالجرائم ضد الدولة ، والتعدى علـــى أملاك الغير ( كالسرقة والاتجار في السلع المسروقة وخطف الأولاد وحرق البيـــوت ) ، وتشريعات خاصة بالأرض والبيوت والضرائب والديون والتجارة والقروض التجارية والأمانات ، والزواج والمهر والوراثة والتبني واغتصاب النساء ، وأخطاء أصحاب المهن كالأطبــاء والمهندسين والعقوبات التى توقع عليهم لاهمالهم ، وأجور الصناع وايجارات المراكــب والعبيد .

وقد أظهر حمورابى اهتماما عظيما بكل ما يجرى في دولته . وقد بقيت لنـــا رسائله الى ولاته . وتشهد كلها بكمال ادارته واشرافه شخصيا على شئون مملكته الواسعة. وقد بلغت الدولة البابلية الأولى ذروة توسعها وقوتها في عهد حمورابى ،أعظـــم مشرع في الشرق الأدنى القديم . وعاشت الدولة البابلية الأولى زهاء ثلاثة قرون انتهت حوالى عام ١٥٣٠ ق.م.

وخلفه خمسة ملوك ورثوا عنه امبراطورية مترامية الأطراف . وقد عملوا علـــى المحافظة عليها وحمايتها . لكن الأمور ساءت في أواخر أيامهم اذ قامت ثورات فـــي منطقة الخليج العربى وأسست دولة باسم " مملكة البحر " وهى التى اصطلح المؤرخون على اعتبارها " الدولة البابلية الثانية " . كما اشتدت اغارة شعب جديد بالمنطقـــة وهم العيثيون . وغارات شعوب أخرى تعرف باسم شعوب الجبال ( في شمال وشمـــال شرق العراق ) التى زحفت على منطقة الهلال الخصيب وسيطرت على مقاليد أموره من الفترة ما بين ١٥٠٠ ، ١٢٠٠ ق.م ، أى زهاء ثلاثة قرون ،تقارن أحيانا بأوائـــل العصور الوسطى في أوروبا . ولم تكن شعوب الجبال شعوبا سامية بل هندية- أوروبية. ومن أهم هذه الشعوب الحوريون والكاشيون والحثيـــون . وكان الكاشيون هم الذيـــن أسسوا الدولة المسماة بالدولة البابلية الثالثة التى ظلت قائمة حوالى أربعة قـــرون انتهت عند ١١٦٠ ق.م. على وجه التقريب .

كذلك ازدادت معلوماتنا عن الأموريين . بفضل اكتشاف وثائق سياسية في الالاخ Alalakh ( تل عطشانة في حوض نهر العاصى الأدنى بوادى العمق ) وأوجاريـــت Ugarit ( رأس شمرة ) وبفضل مجموعات رسائل " تل العمارنة " من مصر ( عصـــر أمنحتب الثالث وامنحتب الرابع في القرن الرابع عشر ق.م. ) ففي الحفائر التى أجراهـــا سير ليناردوولى (L. Woolley) بين سنتى ١٩٣٧ – ١٩٣٩ في تل عطشانة عثـــر على ٣٠٠ لوح مسمارى مكتوب باللغة الأكدية يتراوح تاريخها بين ١٩٠٠ – ١٢٠٠ ق.م وكانت الالاخ مملكة مستقلة في بعض الفترات وعاصمة لدولة الموكيش ( Mukishe ) وخاضعة في فترات أخرى لممالك مجاورة قوية كبابل ومصر ودولة الميتانى في شمال العراق ودولة الحيثيين في الأناضول .

وفي أوجاريت ( رأس شمرة ) كشـــفت الحفائر التى أجراها الأستـــاذ شيفر ( C. A. Schaeffer ) منذ عام ١٩٢٩ عن ألواح من الطين مكتوبة بالأوجاريتية ( وهى لهجة كنعانية ) وترجع الى حوالى القرن الرابع عشر ق.م. حين بلغت أوجاريت قمة ازدهارها . وهذه الوثائق الى جانب نصوص اللعنة من عصر الدولة الوسطى فـــي مصر والرسوم الجدرانية في مبانى بنى حسن ( حوالى عام ١٨٩٠ ق.م ) ، ورسائـل تـل العمارنة ( = أختاتن عاصمة أخناتون وهو أمنحتب أو أمينوفيس الرابع ) والمدونة أيضـا باللغة الأكدية من عهد أمنحتب الثالث ( ١٤٠٥ — ١٣٦٧ ) وأمنحتب الرابع الشهير باخناتون صاحب الثورة الدينية ( ١٣٦٧ — ١٣٥٠ ) تلقى أضواء جديدة علـــــى الأموريين . ويتضح منها أن الأموريين كانوا يلعبون الدور الرئيسى في الشمال عنـــد مطلع الألف الثانى ق.م. وكانت علاقة دولتهم في مارى وثيقة مع قرقميش ( جيرابلس الحالية ) وحلب ومع قطنـــة بوجه خاص .

لكن بعد منتصف الألف الثانى ( بعد ١٥٠٠ ق.م ) تحول مركز الثقل الـــى سوريا الوسطى حيث استمر الأموريون يلعبون الدور الرئيسى . وكانت مصر وقتئذ قـــد بدأت توسعها وأخضعت قسما كبيرا من سوريا تحت سيطرتها في عهد فرعونها القوى تحتمس الثالث ( ١٤٩٠ — ١٤٣٦ ) كما قامت هنالك دولة أخرى عظيمة ومنافسة لمصر في الشمال وهى دولة الحيثيين التى كان مركزها الأناضول وعاصمتها ختوشش ( بوغاز كوى ) . وبين هاتين الدولتين الكبيرتين أو بالأحرى الامبراطوريتيـــن ، انحصرت الدويلات الأمورية في سوريا الوسطى ، وكانت تشمل كل لبنان تقريبا وسهل البقاع ومنطقة دمشق ويتبين من رسائل تل العمارنة كيف كان بعض أمراء هذه الدويلات الأمورية يخادعـــون الدولتين الكبيرتين أو يتحولون بولائهم من جانب الى جانب حسب الظروف مثل " عبد عشرتا " الذى كان مركز امارته يقع — على ما يبدو — في منطقة العاصى العليا ، وابنه " أزيرو " . وكلاهما كانت له أطماع وكسبا مناطق جديدة لحسابه مثل ارقة ( عرقـة ) الفينيقية ( ١٢ ميلا شمال شرقى طرابلس (١) ) وقطنة ( مشرفة شمال حمص ) وأوبى Ubi ( وهى منطقة دمشق ) ، ودمشق نفسها ، وأرواد ، وشيجاتا ( شكا شمالى البتــــرون ) وأمبى Ambi ( بين شكا وطرابلس (٢) ) وبترونا Batruna (٣) ( البتـــرون حاليا ) وغيرها من مدن الساحل . ولم تبق من المدن في حوزة مصر سوى سيميــرا (٤)

---

( ١ ) وهى عند الصليبيين ( وآنفة الحالية ) .
( ٢ ) وهى Botrys عند اليونان .
( ٣ ) وهى Arka عند اليونـــان .
( ٤ ) سماها اليونان Simyros وكان المصريون القدماء يسمونها DMR أو Sumur

(لعلها شمرا الحالية جنوب طرطوس) مقر المندوب أو نائب الملك المصرى ،وكذلك جبلة ( وهى جبال Gebal في التوراة وحاليا جبيل ) (١) ، مركز الأمير الفينيقى "رب عدى" الموالى لمصر الذى كان يحكم قسما في الداخل ،ويدعى السلطة على الساحل حتى سيميرا .

وأخيرا سقطت سيميرا وفصلت جبيل عن مناطقها الداخلية ولم يعد باستطاعتها مواصلة تجارة الأخشاب مع مصر فتعذر عليها البقاء . وأرسل " رب عدى" الموالى لمصر الرسالة تلو الرسالة الى فرعون مصر أمنحتب الثالث ( ١٤٠٥ — ١٣٦٧ ) يشكو اليه الحال وتحرج الموقف بسبب خيانة عبد عشرتا " الكلب " وابنه أزيرو وتضرع اليه في حوالى خمسين رسالة ( مدونة بالخط المسمارى على ألواح من الطين ( cuneiform ) لكن يرسل اليه النجدات . ولكن دون جدوى . اذ لم تصله من امنحتب الثالث سوى فصيلة من الجنود أخمدت الثورة موقتا واسترجعت سيميرا لكنها لم تتمكن من وقف تيار الخطر المتزايد بسبب تقدم الحثيين من الشمال . وقد تابع أزيرو نفس السياسة الانتهازية بعد موت أبيه . ولم تتغير الاوضاع بارتقاء أمنحتب الرابع ( أخناتون ) عرش مصر (١٣٦٧ ق٠م ) بل ازدادت سوءا لأن الفرعون الجديد كان أكثر اهتماما باصلاحه الدينى الثورى منه بالدفاع عن الامبراطورية . فقد أسر " ازيرو " بعض المدنيين والضباط وسلمهم لبلاد سورى Suri ( أو سوبارى Subari ) (٢) كرهائن . واستولى على أولازا Ullaza ( ارتوزى الحديثة شمالى طرابلس تماما ) (٣) وأرداتا Ardata ( وهى أردة الحالية قرب زغرتا ) (٤) . ومع أن " أزيرو " ذهب فيما بعد الى مصر ليقدم حسابا عن أعماله بعد أن أخذ من المندوب المصرى عهدا بأنه لن يصاب بأذى الا أنه عاد وجدد ولاءه للفاتح الحيثى لشمال سوريا وهو الملك شوبيلوليوما Suppiluliumas (١٣٧٥ — ١٣٣٥ ) الذى استولى على منطقة تمتد الى جنوب جبيل وأقنع أمير أوجاريت

---

(١) سماها اليونان بيبلوس ( Byblos )

(٢) تتصل هذه البلاد اتصالا وثيقا بدولة الميتانى ( Mitanni ) ويقول بعض الباحثين أن من هذا الاسم " سورى" أو سوبارى اشتق اسم سوريا . وكان المصريون القدماء يسمون سوريا الشمالية رتنو ( Retenu = Rzanu ) أو خورو ( Khuru ) .وربما تكون رتنو تحريف لكلمة سامية وأما اسم خورو فمن الجائز انه تعريف للفظ حورى ( أى من الحوريين ) . وكانت المنطقة بين لبنان الغربى والشرقى تسمى أمورو .

(٣) وهى أرثوزيا Orthozia عند اليونان.

(٤) وهى سجاراتيم Sagaratim المذكورة في مراسلات مارى .

بالتخلى عن حليفه فرعون مصر . وفي تلك الأثناء نجد أن " رب عدى " الذى شعـــر بأنه " أصبح كعصفور في شبكة " قد أخذ يفقد أمله وأرسل أخته وأولادها للالتجاء في صور التى كان ملكها " أبى ملكى " لا يزال مواليا لمصر ، ويسترسل في توجيه الشكاوى الى فرعونها . وأما " رب عدى " نفسه فقد هرب فيما بعد من جبيل الى بيروت ، ووقعـــت أسرته في يد " أزيرو " . ولما أصبحت بيروت مهددة تابع هربه الى صيدا التى كانـــت بخلاف منافستها صور متحالفة مع الأموريين . وهنا أدركه أزيرو أخيرا وقضى عليه . وهكذا اضطرت مصر الى التخلى لا عن شمالى سوريا فحسب بل عن فينيقيا أيضا التى كـــان المصريون يسمون أهلها فنخو ( Fenkhu ) ، وكانت مصدرا هاما لموادها الخام .

ويسدل الستار بعد ذلك على الأموريين في سوريا الوسطى وينتقل مركـــز الحوادث الى الجنوب في فلسطين التى احتل الأموريون جزءا منها على الاقل . وليس من المؤكد أن الحركة الأمورية نحو الجنوب كانت حركة جماعية . واسم الامورييـــن كأســـم الحيثيين تغير معناه مع الزمن كما يبدو ، وصار يستعمل بمرونة أكثـــر . ربما كان الأموريون هم الطبقة الحاكمة في الجنوب . ويعطيهم أحد المصادر التـــى استخدمها " العهد القديم " مكانة ممتازة في فلسطين قبل الاسرائيليين ، ويجعـــل بجميع سكان الأراضى الجبلية وشرقى الأردن أموريين قبل قدوم العبريين . وهنالـــك مصدر رئيسى آخر يجعل سكان البوادى خاصة من الكنعانيين . ويتضح أن الأموريين كانوا في القرن الثالث عشر ق.م. يسيطرون على المواقع الاستراتيجية ورؤوس التـــلال في سوريا الجنوبية . وأسسوا بعض المراكز التى تطورت فيما بعد فأصبحت تلك المدن الكنعانية العتيدة التى توقف عند أسوارها وأبراجها الغزاة الاسرائيليون .

وبينما كان الحيثيون متمركزين في شمالى سوريا ووسطها ( ولم يقم خلفاء اخناتون المباشرون بحملات جدية ضدهم ) كانت جماعات جديدة تسمى الخابيرو ( Khabiru ) تغزو المنطقة الجنوبية ويرافقها — على ما يبدو — الآراميون وهم قبائل سامية جديدة أتت من البادية . ويرى بعض العلماء أن الخابيرو هم الساجاز Sa-Gaz أنفسهم ، وأنهم كانوا مرتزقة في الجيش الحيثى يتعاونون مع " عبد عشرتا " . وفي احدى رسائل " رب عدى " الأخيرة الى اخناتون يشير اليهم قائلا " منذ أن عاد أبوك من صيدا ، منذ ذلك الحيـــن سقطت الاراضى في يد الجاز ( Gaz ) " وعندما دخل الخابيرو فلسطين وجدوا أن

ساميين أقدم منهم ،وهم الأموريون ،يحتلون جزءا منها على الأقل على نحو ما ذكرنا . (١)

وبعد فترة تم للعبريين انتزاع السيادة من أيدي الأموريين والكنعانيين ، فقد استولوا على المناطق السورية الواقعة شرقي الأردن بعد أن اجتاحوا سيحون وجارتها الأمورية في الشمال وحتى أرض باشان . وبرغم ما كان يتصف به الأموريون من قامات فارعة وقوة خارقة الا أنهم غلبوا على أمرهم . ولعل القادمين الجدد كانوا يحملون أسلحة معظمها من البرونز .

ولم يترك الأموريون لنا كتابات بلغتهم ذات شأن وانما تركوا فقط أسماء أماكن وأمراء . ومع ذلك فمن المؤكد أن لغتهم كانت تختلف عن اللغة الكنعانية من حيث اللهجة . ويمكن اعتبار الأمورية لغة كنعانية شرقية تقابل اللغة الكنعانية الغربية أو الفينيقية .

---

(١) تختلف آراء العلماء في الخابيرو فالبعض لا يستبعد استنادا الى تشابه الاسم مع الهابيرو أو العابيرو بأنهم كانوا العبريين الأوائل الذين دخلوا بلاد الرافدين من الجزيرة العربية في وقت هجرة الحوريين الذين أسسوا فيما بعد دولة الميتاني في شمال العراق ( حوالي عام ١٥٠٠ ) . ويرى البعض الآخر من المؤرخين أن الخابيرو كانوا فئة خاصة ذات كفاية حربية ممتازة يعيشون تحت ادارة سلطان بعض المدن بينما يهاجمون حدود المدن الأخرى ويثيرون متاعب جمة . وفي رأيهم أن الخابيرو الذين تختلف اسماؤهم نوعا وجنسا من مكان الى آخر ،لم يكونوا عنصرا جنسيا انما كانوا طبقة اجتماعية خاصة . ويشبهون جماعة آرامية أخرى وهى جماعة "الأخلامو" ( A khlamu ) (أى الرفاق ) الذين كانوا يقيمون في أعالي الفرات بل على امتداده ويهاجمون المدن السورية كما يتبين من رسائل تل العمارنة والوثائق الأشورية والحيثية في القرنين ١٤ ، ١٣ ق.م .

ولا يبقى بعد ذلك سوى كلمة عن الديانة الأمورية . لم تخرج هذه الديانة في الغالب عن عبادة قوى الطبيعة عند الساميين . وكانت هذه الديانة شائعة بين القبائل الرحل في بادية الشام وبلاد العرب . وكان اله الأموريين هو "أمورو" ، اله الحرب ، الذى كان بوصفه الها رئيسيا في الغرب يعرف أيضا باسم "مارتو" . وكان يوجد الى جانبه عدد من الآلهه ليس من السهل التعرف على صفاتها . ويظهر كثير منها بين الآلهة الكنعانية ( الفينيقية ) فيما بعد . وأهم هذه الآلهة هدد ( Hadad ) اله العاصفة والمطر والصواعق (١) . لذلك كان يعرف أيضا باسم رمانو Rammanu (صانع الصواعق) . وكان للسماء ثم للشمس شبهه اليونان بزيوس والرومان بجوبيتر . كذلك كان هدد الها للخصب . وسيصبح "هدد" أهم اله عند الآراميين . وكان ينادى بلقب بعل ( Baal ) (٢) أى "السيد" . وكان يعبد في سمأل وحلب ودمشق ومنبج ( هيرابوليس ) . وكان للاله هدد شريكة أو زوجة هى عنت ( Anath ) ، التى كانت أخته في الوقت نفسه . وكانت صلوا لأترجاتيس/ (عترعته) وتشبه أحيانا بعاشرة أو عشيرات (٣) التى كانت صورة أخرى من عشتريت أو عشتروت ، وقد أدخل الأموريون الى جنوب سوريا عبادة "العمود المقدس" ، وكان يرمز — على ما يبدو — لاله القبيلة . وعادة ما كان ينصب في مكان طاهر أو مطهر . وغالبا ما كان ذلك في مغارة يقام بجانبها مذبح مقدس من الحجر لا يجوز تدنيسه . ولعل الأموريين قد أدخلوا أيضا في الطقوس عادة التضحية البشرية بأول مولود وتقديم القرابين عند بناء المعابد أو تأسيس المدن .

---

(١) ونظيره أدد أو آدو عند الأكديين ( البابليين والآشوريين )

(٢) أو بيلوس Belos أو Belu أو بعل شمين أى "سيد السموات"

(٣) الكلمة في العبرية معناها "عمود مقدس" .

واذا كان الأموريون الذين وفدوا مع الهجرة الكنعانية اسبق من غيرهم في الدخول الى سوريا ، فان الفينيقيين كانوا من الناحية التاريخية أهم شعب بين الكنعانيين . وفي الواقع أن الكنعانيين كانوا يعرفون عند الاغريق دائما باسم الفينيقيين الذين استقروا في السهل الساحلي الواقع بين جبال لبنان والبحر المتوسط ( من قيسارية جنوبا حتى اللاذقية شمالا ) . لكن الكنعانيين أو بالأحرى الفينيقيين لم ينجحوا قط في تأسيس دولة موحدة قوية ( كالاموريين ) بسبب طبيعة أرض كنعان وموقعها بين مراكز الدول الكبرى التي قامت في مصر وأرض الرافدين والأناضول . وانقسمت بلادهم الى ممالك مدن صغرى محصنة بأسوار وأبراج ( migdol ) ، وتفشت بينها المنازعات والحروب مما جعلها تقع تحت رحمة الدول القوية المجاورة . وقد انتشرت المدن الكنعانية الأولى على امتداد الساحل من جبل كاسيوس في الشمال ( قرب اللاذقية ) حتى جبل الكرمل Carmel ( = أرض البساتين ) في الجنوب ( قرب قيسارية Caesarea ) . غير أن جبال أمانوس Amanus ( حمان ) وكاسيوس في الشمال ، ومرتفعات فلسطين في الجنوب لم تشكل درعا واقيا من الهجمات الآتية من الظهير مثلما فعلت جبال لبنان المرتفعة . لذلك فان المدن العظيمة — وهي التي قدر لها البقاء — نشأت وازدهرت في سفوح جبال لبنان . ومن بينها كانت طرابلس Tripolis ( واسمها الفينيقي القديم غير معروف ، وبوتروس Botrys ( البترون ) وبيبلوس Byblos ( جبيل ) ، وبيروتا Beryta ( بمعنى آبار ) وهي بيروت ( Berytus ) ، وصيدا Sidon ( بمعنى مصيدة السمك وكان Si- du- Na هو رب الصيد ) ، وصور Tyros ( بمعنى صخر ) وفي الشمال عرقة Arka وسيميرا Simyros ( لعلها سمرا جنوبي طرطوس ) ، وأرواد Aradus ( وهو اسم غير سامي ) . وفي الجنوب غزة بمعنى القوة والثبات ) ، وعسقلان Ascalon ( من العبرية Ashqelon ) على الساحل .

وكان هناك أيضا عدد من المدن الكنعانية في الداخل مثل جزر Gezer ( جنوب اللد ) ، ولاكيش Lachish ( تل الدوير بين غزة والخليل ) وشكيم

---

( ١ ) في المصرية القديمة ترسم : KBN – KPNL – KPN أي جبلة . وفي التوراة ترد في صورة " جبال " ( Cebal )

Schechem ( تل بلاطه شرقى نابلس ) (١) ،ومجدو Megidds ( تـــــــل المتسلم والاشتقاق من gadad بمعنى قطع ) . (٢) وحاصور Hazor ( تـل القدح جنوب غربى بحيرة الحوله ) ،ويارو شالم ( Hierosolymna , ) وهـــــى أورشليم ( ومعنى الاسم : " دع شالم يوءسس " ،وشالم هو رب السلام عند الكنعانيين ويظهر اسمه في اسمى ابشالوم وسليمان ) .

وقد ذكرت هذه المدن وكثير غيرها مثل أريحا Jericho ( والاشتقـــــاق من Yereho أى " مدينة القمر " ) ،ومثل بيت شان ( وهى الآن بيسان ومعناها بيت الاله شان ) ،وعكو Akko وهى عكا ( ومعنى اللفظ رمل حار ) التى سماهـــا اليونان بطولمايس ( Ptalemais ) ،ومثل أرقـــة أو عرقه ( Irkat فـي الفينيقية وفي المصرية RQT ) التى تقع على بعد ١٢ ميلا شمال شرقى طرابلـــس. وقد ذكرت جميع هذه المدن في النصوص المصرية من عهد تحوتمس الثالث ( ١٤٩٠ — ١٤٣٦ ق٠م ) ورسائل تل العمارنة من عصر أمنحتب الرابع الشهير بأخناتون (١٣٦٧—

---

( ١ ) ظلت شكيم عامرة بالسكان حتى دمرها الامبراطور الرومانى فسبسيان عام ٦٧ م٠ وقد أسس على أنقاضها بعد سنوات قليلة ( حوالى عام ٧٥ م ) مدينة نابلـــس Neapolis ( أى المدينة الجديدة ) .

( ٢ ) مجدو Megiddo هو اسم المعركة الشهيرة التى جرت عام ١٤٦٨ ق٠م وانتصر فيها تحتمس الثالث،نابليون مصر الفرعونية ( ١٤٩٠ — ١٤٣٦ ق٠م ) علـــى حلف يتألف من ٣٥٠ أميرا تحت زعامة حليف للميتانى هو أمير قادش Kadesh ( وهى تل النبى مند على نهر العاصى جنوب بحيرة حمص حيث زعم رمسيـــس الثانى أنه انتصر على ملك الحيثيين في عام ١٢٩٦ أو ١٢٨٦ ق٠م ) ٠

وقد وضع الرومان فيما بعد فرقة عسكرية ( legio ) بالقرب من مجدو حيـث يوجد اليوم قرية تسمى اللجون ( مشتقة من لفظ لجيو اللاتينى بمعنى فرقـــة عسكرية ) .

وقد قرر سقوط مجدو في يد تحتمس الثالث مصير كل فلسطين .وتقدم الفرعـون المنتصر نحو الشمال مسافة ٧٥ ميلا حتى وصل الى لبنان ،واستولى على ثلاث مدن ،وبنى حصنا .

وفي خلال حملته الخامسة استولى تحتمس الثالث على أرواد . وبذلك أحكـم قبضته على الساحل الفينيقى . وكان المصريون يعرفون السهل الفينيقـــى وفلسطين باسم زاهى ( Djahi ) بينما كانوا يعرفون الفينيقيين باســم فنخو Fenkhu أى " بناة السفن " . ثم استولى في حملة تالية على سيمورا ( لعلها سمرا جنوبى طرطوس ) . ثم استولى على قادش ( تل النبى منـد جنوبى بحيرة حمص ) . وقد عاد اليها بعد ١٢ سنة واستولى عليها مـــن جديد .

==

١٣٥٠ ) . ويوجد وصف لها في سفرى يشوع والقضاة في العهد القديم " . ويلاحظ أن بعض هذه المدن الفينيقية كان يحتل موقعين أحدهما في البر والآخر في جزيرة متاخمة مثل أرواد وصيدا وصور . وبذلك صار لها خط دفاع مزدوج واستعصت أحيانا على الغزاة . ولعل مثل هذه الموانى الحصينة هى التى حالت دون بلوغ الأشوريين ساحل البحر فترة طويلة . لكن كثيرا من المدن الفينيقية كانت بمقتضى مركزها أو موقعها الجغرافي متجهة نحو مصر بل وقعت تحت السيطرة في بعض الفترات .

ومن المدن الكنعانية الهامة مدينة أوجاريت ( راس شمرة ) التى سبقت الاشارة اليها . وأوجاريت كلمة معناها " الحقل " ولعلها مستعارة من السومرية . وقد اكتشفتها — كما ذكرنا — بعثة فرنسية برئاسة الأستاذ شيفر . وقد تبين من دراسة آثار أوجاريت أن المدينة قديمة لكنها بلغت قمة الازدهار في القرن الرابع عشر ق . م ( حوالى ١٤٠٠ ق . م ) . وتقع أوجاريت في مواجهة قبرص . وقد اكتشفت فيها ألواح من الطين بالخط المسمارى ومكتوبة بلهجة كنعانية . وتشتمل الكتابة على ٣٠ حرفا من حروف الأبجدية . والنصوص معظمها دينية ومتصلة بطقوس العبادة .

ويعتبر ابتكار النظام الأبجدى ونشره في البلاد المجاورة من أعظم الخدمات التى أسداها الفينيقيون للانسانية . وقد نقلوا النظام الأبجدى عن الهيروغليفية المصرية . ويرجح أنه ذلك تم عن طريق شبه جزيرة سيناء . كان المصريون يستعملون حوالى ٤٠ حرفا ساكنا ( صامتا ) من حروف الهجاء . لكنهم كانوا يستخدمون الى جانبها علامات أو رموزا أخرى . لذلك ظلت بدون أهمية حتى نهاية القرن السابع عشر ق . م حيث اتفق لأحد الأسرى الكنعانيين أو أحد العمال في مناجم الفيروز في سيناء أن يرى الرموز الهيروغليفية المصرية ويبسّطها أو يكتفى بالعلامات .

---

= — وفي الحملة الثامنة غزا نهارين ( وهى شمال الرافدين أى بلاد الميتانى ) وهزم أعداءه عند قرقميش . ونصب لوحتين على ضفتي الفرات . وقد عبر النهر بسفنه التي نقل تخشابها برا من لبنان ( ٢٥٠ ميلا ) وكان أبوه تحتمس الاول قد وصل أيضا الى هذا الموقع من قبل . وقد سجل تحتمس الثالث انتصاراته هذه على جدران معبد الكرنك في طيبة ( الأقصر ) .

الساكنة ( الصامتة ) فيها . حدث ذلك على ما يرجح في مكان ما بشبه جزيــــرة سيناء ولا يستبعد أن هو يكون " سرابة الخادم " . ونقلت الرموز المصرية الـــى المدن الفينيقية . وقد أعطى الفينيقيون للعلامات الساكنة ( consonants ) أسماء سامّية وقيما صوتية سامّية . أخذوا علامة " رأس الثور " وسموها " ألف " بأسمهـــا السامي . وجعلوا هذه العلامة تمثل صوت " أ " . وفعلوا نفس الشيء في حالـــة العلامة الدالة على " بيت " فسموها " بيت " واستعملوها لتمثيل الصوت " ب " . وعلامة " اليد " سموها " يود " واستعملوها للصوت " ى " . وسموا علامة " الرأس " " ريـــش " وجعلوها تمثل الصوت " ر " . وأما علامة الماء فسموها " ميم " واستعملوهـــا للتعبير عن صوت " م " وهلم جرا .

وقد نقل الاغريق عن الفينيقيين الأبجدية بين سنتى ٨٥٠ ، ٧٥٠ ق.م . وأبقوا على أسمائها السامية وأشكالها بل وترتيبها ،وأضافوا اليها حروف الحركـــة ( الحروف اللينة vowels ) جاعلين لغتهم أكثر مرونة وأيسر نطقا وأسهل قـراءة من معظم اللغات السامية . وكانت اللغة اليونانية في أول الأمر تكتب كالفينيقيـــة من اليمين الى اليسار . وبعدئذ من اليمين الى اليسار وبالعكس وهي ما تسمـــى boustrophedon ( أى مثل الفلاح عندما يدور أو يلفت وهو يحرث الأرض بالثيـران ) . وأخيرا استقرت وأصبحت تكتب من اليسار اليمين . وبعدئذ انتقلت الابجدية الـــى الرومان في القرن السادس ق.م . ومن الأخيرة أى من الأبجدية اللاتينية تولـدت معظم الأبجديات الأوربية . ومن ناحية أخرى فان الآراميين ( الذين جاءوا فـي الهجرة الساميّة الثالثة ) استعاروا أيضا أبجديتهم من الفينيقيين ثم نقلوها الـــى العرب والهنود وسائر الشعوب الشرقية التى تكتب بالأبجدية . وقد صارت الأبجدية على يد هذه الشعوب تتألف من نحو ٢٢ حرفا ساكنا أو صامتـــا consonants ( بتأثير الهيروغليفية المصرية ) . وهكذا أصبحت بسيطة وجعل فن الكتابة بهـــا والقراءة ميسورا للفرد العادى . وقد تكون كتابة عـــرب جنوب الجزيرة العربيـــة مشتقة مباشرة من الكتابة المصرية السينائية التى كان لها على الفينيقيين فضـــل تحقيق المرحلة الأولية .

كان الفينيقيون أول أمة بحرية بل أول أمة اشتغلت بالتجارة برا وبحرا . وكان لهم محطات تجارية في الداخل مثل اديسا ( الرها ) ونصيبين (Nisibis) في شمال العراق . وكانت تقوم بربط موانيهم على البحر المتوسط بمراكزهم على الخليج العربي . واتسع نطاق نشاطهم التجارى فامتد الى الجزيرة العربية والى مصر ومعظم أنحاء البحر المتوسط . ويرد ذكر صيدا في الأوديسيا ، ملحمة هوميروس ( حوالى القرن التاسع ق.م ) حيث يتحدث الشاعر عن الصيداويين كملاحين ذوى جرأة شديدة وتجار وقراصنة . ولم يلبث أن نشطوا بدافع التجارة في تأسيس المستعمرات على سواحل البحر المتوسط البحر المتوسط وجزره القريبة والبعيدة . وكان لمدينة صور السبق في ذلك اذ أسست عدة مراكز تجارية تطورت الى مستعمرات مزدهرة . وبلغ هذا النشاط الفينيقى في تأسيس المستعمرات ذروته في القرنين العاشر والتاسع ( ١٠٠٠ — ٨٠٠ ق.م ) . فقامت لهم مستعمرات في قبرص وصقلية وسردينيا وكورسيكا وشمال افريقيا وأسبانيا . ففي أسبانيا البعيدة أسس الفينيقيون مدينة قادس Gades ( = جدار أو مكان مسوّر ) وترشيش Tartesseus ( بمعنى المنجم أو مكان صهر المعادن ).

وتحمل طرسوس في قيليقية ( بالأناضول ) — حيث ولد القديس بولس — نفس اسم المدينة الأسبانية المذكورة ، وكانت مثلها مستعمرة فينيقية . ومن المستعمرات الأخرى في أسبانيا مدينة ملقه Malaga والتى يؤدى اسمها معنى دكان أو معمل صغير ( من اللفظ الفينيقى ملاكة melakah ) .

وقد أدى ذلك الى دخول الفينيقيين في المحيط الأطلسى ، وهو الأوقيانوس في العالم القديم . ويعتبر هذا الاكتشاف من أجل ما قدمه الفينيقيون من خدمات للتقدم العالمي . وقد عرف هوميروس وهيسيود بوجود الأطلسى لأول مرة من الفينيقيين . ومن العسير معرفة مدى توغل السفن الفينيقية في هذا المحيط الذى سماه العرب فيما بعد " بحر الظلمات " . فهل بلغ الفينيقيون جزر كاسيتريديس Cassiterides ( أى جزر القصدير ) (١) قرب كورنول ( Cornuoll ) في انجلترا بحثا عن القصدير ؟ . ولعل أعظم عمل بحرى حققوه هو الدوران حول افريقيا وهو ما قام به البرتغاليون بعد ذلك بحوالى ألفى سنة . ويقال ان الفينيقيين قاموا بهذا العمل استجابة لطلب فرعون مصر " نخاو " من الأسرة السادسة والعشرين والذى أعاد حفر القناة القديمة التى كانت تربط الفرع الشرقى للدلتا بالطرف

---

(١) الاشتقاق من كلمة kassiteros اليونانية بمعنى قصدير . ومنها جاءت كلمة قصدير في اللغة العربية ، وهى في الأصل كلمة ساميّة ) .

الشمال للبحر الأحمر ( عن طريق وادى طميلات والبحيرات المرة ) حوالى عام ٦٠٩ ق٠م (١)

ومن أقدم المستعمرات الفينيقية في شمال افريقية مدينة أوتيكا Utica ( في منطقة تونس ) ٠ واسم هذه المدينة مشتق من عتق بمعنى المدينة العتيقة أو القديمة ،وكذلك مدينة هيبو ( Hiopo ) في الغرب التى كانت مقرا ملكيا ومن ثم تلقب بالملكية ( Regius ) ،وقد أصبحت فيما بعد مركز القديس أوغسطين ٠ وكلمة "هيبو" ليبية الأصل ٠ وكلتا المدينتين يرجع تأسيسها الى حوالى عام ١٠٠٠ ق٠م٠ وأما قرطاجة ( Carthaga ) (٢) فهى أعظم مستعمرة فينيقية أسستها مدينة صور اللبنانية في شمال افريقيا ٠ واسم قرطاجة مشتق من قرط حدشت qart hadasht أى القرية أو المدينة أو الحديثة ٠ وقد سماها اليونان كرخيدون ( Karchedon )٠ ويرجع تأسيسها الى حوالى عام ٨١٤ ق٠م٠ وتفيد الأساطير اليونانية أن ليبيا ( Libya ) -وهو الاسم الذى كان الاغريق يطلقونه على شمال افريقيا بل على القارة الافريقية كلها فيما بعد- كانت في الأصل اسم زوجة اله البحر بوسيدون ( Poseidon ) وأم أجينور ( Agenor ) أحد ملوك صور ٠ وأجينور هو أبو كادموس ( Cadmus ) وأوروبا ( Europa ) التى رآها الاله زيوس ذات مرة تسير على شاطئ صور وأغرم بها فتقمص شكل الثور وأغراها بحركاته اللطيفة على ركوبه ،ثم قذف في البحر حاملا حبيبته الى كريت التى كانت مركزا للحضارة المنيوية حتى قبل ظهور الحضارة في بلاد الاغريق نفسها ٠ وفي كريت استعاد زيوس شكله الأصلى وتزوج أوروبا وأنجب منها ثلاثة أبناء ذكور كان لهم فيما بعد شأن عظيم وهم مينوس ( Minos ) ملك كريت المشرع ،ورادامانثوس ( Radamanthus ) وسربيدون ( Sarpedon ) بينما سميت القارة كلها باسم "أوروبا" ،ابنة أجينور ،ملك صور (٣).

وتمضى الأسطورة قائلة بأن أجينور أرسل ابنه كادموس للبحث عن أخته "أوروبا" ولم يسفر بحثه عن شئ فاستقر أولا في طراقيا حيث يقال انه استثمر مناجم الذهب هناك٠ ثم اتجه بعد ذلك - بايعاز من نبوءة دلفى - الى بلاد اليونان حيث أسس في اقليم بويوتيا كادميا ( Cadmeia ) ،التى أصبحت فيما بعد قلعة مدينة طيبة ( Thebai )

---

( ١ ) هيرودوت ،الكتاب الرابع ، ٤٢ ٠

( ٢ ) تكتب أيضا في اللاتينية Karthago

( ٣ ) يسمى هو ميروس هذا الملك في الالياذة Phoinix ( أى فينيقس ) ،أنظر الالياذة النشيد الرابع عشر ، البيت رقم ٣٢١ ٠

اليونانية • وعينت الربة أثينة كادموس ملكا على طيبة ،وزوجه الاله زيوس من هرمونيـــا ( Harmonia ) ،وهى ابنة لأفروديتى ، ربة الخصب والحب والجمال من أريــس اله الحرب • وأهم من ذلك ما يقال عنه بأنه هو ( أى كادموس ) الذى أدخل الـى بلاد الاغريق أبجدية فينيقية تتألف من ١٦ حرفا أضاف اليها اليونان الحروف المتحركة أو الصائتة ( vowels ) (١).

ولنعد الى قرطاجة التى أصبحت بدورها دولة كبرى أو امبراطورية ذات سيادة تجارية وسياسية في غرب البحر المتوسط أثناء القرن السادس ق•م• اذ امتدت ممتلكاتها من حدود ليبيا في الشرق الى"عمودى هرقل" في الغرب ( وهما الرأسان الصخريان عند المضيق الذى عرف فيما بعد باسم مضيق جبل طارق ) • وضمت قرطاجة جــزر البليار ومالطة ( وهو لفظ سامى بمعنى هرب ) وسردينيا وبعض مواقع على ســاحل اسبانيا وغالة ( فرنسا ) • وفي الحقيقة ان مدينة ماسيليا ( مرسيليا الحالية ) قــد أسسها اغريق من الساحل الأيونى ( ساحل آسيا الصغرى الغربى ) مكان مستعمـرة فينيقية أقدم منها ) • وقد أمضى هذا النشاط كله الى اصطدام قرطاجة بروما وقيام الحروب المسماة في التاريخ بالحروب البونية ( Bella Punica ) أى الحــروب الفينيقية " الأولى منها في أيام القائد القرطاجى هاميلكار باركـــ Hanilcar Barcal ( مــن بـــارق بمعنى برق ) والثانية في أيام ابنه هانيبـــال Hannibal ( ومعنى اسمه هانى بعل أى " نعمة بعل " ) • وكاد الأخير يغير مجرى التاريــخ الأوروبى كله بانتصاراته على الرومان في ايطاليا ولا سيما في معركة كنّاى عام ٢١٦ ق•م• لكن القدر شاء غير ذلك وانزلت روما الهزيمة به في معركة زاما ( Zama ) من نوميديا ( الجزائر ) عام ٢٠٢ق•م• لكن قرطاجة سرعان ما نهضت من كبوتها وانتعشت تجارتها من جديد وازداد ثراؤها • وأثار ذلك من جديد مخاوف الرومان وحقدهم مما دفع

---

(١) كان لمدينة كورنثة اليونانية صلة وثيقة بفينيقيا • ويذهب البعض الى حد القول بأنها ربما كانت أصلا مستعمرة فينيقية • وقد انتشرت فيها عبادة الاله ملقــرت Melkart (ومعنى اسمه ملك المدينة ) • وكان ملقرت " سيد " مدينة صور • وانتشرت عبادته من صور الى قبرص وقرطاجة في الغرب • وقد جعله اليونان صنوا للبطل الالـــه هيراكليس Heracles ( هرقل ) • هل اسم جزيرة ساموس اليونانية ( قرب ساحل أيونيا ) مشتق من شمش ،اسم اله الشمس عند الساميين ؟

بعض ساستها المتعصبين ضيق الأفق ( مثل كاتو Cato الملقب بالأكبر أو " الرقيب " ) بالمناداة بضرورة تدمير قرطاجة . وكان يردد في السناتو ( مجلس الشيوخ الرومانى ) عبارة " لا بد من تدمير قرطاجة : " Carthago delenda est " . وانتحلت روما المعاذير لاعلان الحرب على قرطاجة فيما يسمى بالحرب البونية الثالثة عند منتصف القرن الثانى ق.م. ودمر الرومان قرطاجة تدميرا في عام ١٤٦ ق.م. وتركت المدينة بعد سقوطها طعمة للنيران لمدة ١٧ يوما ، وغطت موقعها كومة من الرماد . ثم أعمل فيها المحراث ولعنت أرضها الى الأبد . ولا شك ان مثل هذا الاجراء من جانب الرومان عمل طائش أخرق ولا يزيد الرومان شرفا . لقد دفعهم اليه عاملان الخوف والحقد . ولم ينس الرومان أبدا الهزائم التى أنزلها بهم القائد القرطاجى الفينيقى الأصل الذى مكث في أرض ايطاليا حوالى ١٥ عاما هزم أثناءها الرومان أربع مرات في معارك ضارية وخرب أرض شبه الجزيرة الايطالية ولا سيما الجنوب . وقيل ان الرومان لم يرهبوا في حياتهم الا شخصيتين احداهما هانيبال ، والأخرى امرأة وهى كليوبطرة السابعة ، آخر ملكات مصر البطلمية .

هكذا اختفت من الوجود قرطاجة التى يسميها فرجيل ( Vergilius ) أعظم شعراء الرومان ( ٧٠ — ١٩ ق.م ) في ملحمته ( الأينيادة ) " بمدينة أجينور " لأن موسستها ديدو ( Dido ) كانت من سلالة هذا الملك . كانت ديدو ابنة بعل ( Belus ) ملك مدينة صور ، وأخت بيجماليون ( Pygmalion ) الذى قتل زوجها أكرباس Acerbas ( وهو تحريف لاسم فينيقى معناه " بعل يذكر " ) طمعا في ثروته . ففرت ديدو هربا من وحشية أخيها الى شمال افريقيا حيث أسست مدينة قرطاجة ( قرب تونس الحالية ) . وأقسمت ديدو ألا تتزوج أبدا وفاء لذكرى زوجها الذى قتله أخوها غدرا . وعندما اضطرت الى ذلك ، آثرت أن تنتحر . اذ ألح أحد ملوك الدول المجاورة لقرطاجة في طلب يدها . وكان متبربرا ذا بأس وبطش . لذلك قتلت ديدو نفسها . لكن الشاعر الرومانى الكبير فرجيل يقحم قصتها في الأينيادة ويحرفها . فيقول بأن آينياس Aeneas البطل الطروادى استطاع أن يهرب مع فريق من بنى وطنه بعد سقوط طروادة الذى نعلم أنه حدث حوالى عام ١٢٠٠ ق.م. ثم ينزل أينياس — وفقا لرواية فرجيل — عند مكان قرطاجة ( التى لم تكن قد أسست بعد ) ويلتقى بالملكة ديدو التى تهيم به حبا وتعرض عليه الزواج منها . ويستجيب اليها فترة ولكنه لا يلبث أن يهجرها استجابة لنداء الهى بأن يرحل الى حيث

يؤسس واحد من ذريته ( روميلوس ) مدينة روما ( عام ٧٥٣ ق . م ) . ذلك بأن تأسيس روما كان رسالة أسمى من الحب . وتحزن ديدو لفراق آينياس وتلقى بنفسها في النار منتحرة لاعنة اياه وذريته من الرومان جميعا .

الهجرة الثالثة : حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م . وقد أتت هذه الهجرة بالآراميين الى المنطقة التى تقع بين جبال شرق لبنان ( Antilebanon ) ونهر الفرات . وقد سيطر الآراميون على شمال سوريا ، وأسسوا عدة ممالك أو امارات مثل صهوبة ( وهى صوبة بمعنى أحمر كالنحاس ) في جنوب زحلة بسهل البقاع ، ومثل دمشق وحماة . وقوضوا فيما بعد حكم الحيثيين هناك وورثوا ملكهم . وامتد نفوذهم أيضا الى شمال أرض الرافدين ( عند نهارين وهما الفرات والخابور ؟ ) وهددوا حكم شلمنصر الأشورى . وناصبوا العبريين الذين عاصروهم العداء زهاء قرنين ( منذ أيام داود حوالى عام ١٠٠٠ ق . م ) حتى أيام أحاب . وامتلكوا ناصية التجارة البرية التى كانت تعبر طريق سوريا الشمالى . ونشر الأراميون ثقافتهم ولغتهم في الهلال الخصيب من الفرات الى النيل . وبذلك حلت اللغة الآرامية محل الأكدية كلغة للتعامل والتجارة وأصبحت هى اللغة السائدة ( lingua franca ) أو اللغة الدولية في المنطقة . وسوف ترث اللغة اليونانية العامة أو المشتركة ( koinê ) مكانة الأرامية فيما بعد أى في العصر الهللينستى ( بعد الاسكندر الأكبر ٣٢٣ ق . م ) . وقد عرفت اللغة الآرامية في المرحلة المتأخرة باسم اللغة السريانية . وان شئت الدقة فان اللغة الآرامية تفرعت على مر الزمن الى مجموعتين (أ) المجموعة الشرقية في وادى الفرات وتمثلها المندعية والسريانية (ب) المجموعة الغربية وتمثلها الآرامية التوراتية ( نسبة الى التوراة ) والترجوم ولهجات سمال أو شمال ( زنجرلى القديمة ) وحماة أو التدمرية والنبطية . وكانت تتكلم المندعية طائفة غنوصية ( أى العارفين بالله ، وهو مذهب مسيحى هرطقى أو بدعى ) تسكن قرب الفرات بين القرنين السابع والتاسع بعد الميلاد . وأصبحت السريانية — وهى لغة اديسا Edessa (الرها) — لغة الكنائس في سوريا ولبنان وبلاد الرافدين مع بعض الاختلافات المحلية . واستعملت بين القرنين الثالث والثالث عشر بعد الميلاد .

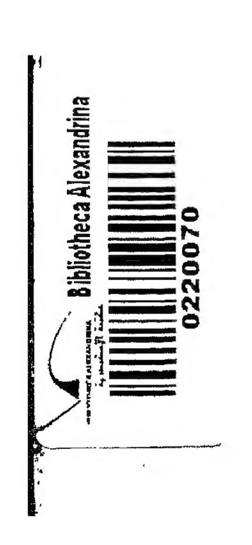
ويكتنف الغموض أصل العبريين ( Hebrewos ) وتاريخ مجيئهم الى هذه المنطقة . بل ان اسمهم نفسه يكتنفه الغموض . لعلهم وفدوا كموجة من موجات الهجرة الآرامية ثم تسللوا من جنوب أرض الرافدين الى سوريا ثم الى فلسطين فيما بعد ( حوالى ١٢٠٠ ق.م ) . لكن اذا كان العبريون هم " الخابيرو " أو " العابيرو " ( Habiru ) — وهو أمر غير محتمل (١) — فانهم يكونون قد دخلوا أرض الرافدين ( من الجزيرة العربية في وقت هجرة الحوريين الذين أسسوا فيما بعد دولة الميتانى في شمال العراق ( حوالى ١٥٠٠ ق.م ) . وفي رأي آخر أنهم لم يظهروا بالمنطقة الا بعد طردهم من مصر في عصر مرنبتاح ( ١٢٢٤ — ١٢١٤ ق.م . ) . ولم تكن أعداد العبريين في أول الأمر كبيرة بل كانوا يتسللون كأفراد أو جماعات صغيرة . ومن المحتمل أن جماعة منهم كانت ضمن الهكسوس الرعاة الذين غزوا مصر في آخر القرن الثامن عشر ق.م ( ١٧٣٠ — ١٥٨٠ ق.م ) . ويتردد صدى ذلك في قصة زيارة سيدنا ابراهيم لمصر الوارد ذكرها في سفر التكوين ، وقصة هجرة اسحق الى جرار ، وقصة اقامة يوسف بمصر وما بلغه فيها من مكانة ودعوته بقية اخوته للحضور اليها .

وأما عن الاسم فان لفظ " عبرى " مشتق من عبر أى عابر الطريق أو المتجول أو البدوى المرتحل . ويؤدى اللفظ في كل نصوص الألف الثانى ق.م معنى " الناهب " أو " قاطع الطريق " أو المرتزق أو الغريب الأجنبى فلفظ " عبرى " في الأصل نعت أو لقب مشين محط للسمعة ، وليس اسم جنس أو اسم قبلى . لكن هذا اللفظ يرد منذ القرن الثانى عشر والحادى عشر ق.م كاسم قبلى . وكذلك يرد في " العهد القديم " كاسم قبلى يطلق على طائفة معينة هم العبريين . وأول شخص وصف بأنه عبرى هو ابراهيم عليه السلام ( سفر التكوين ١٤ : ١٣ ) . وقد عاش — على ما يرجح — في القرن التاسع عشر ق.م أو كان معاصرا لحمورابى ملك بابل ( ١٧٩٢ — ١٧٥٠ ق.م ) .

---

(١) يبدو أن اسم خابيرو أو عابيرو كان اسم فئة أو طبقة اشتهرت بالجندية والكفاءة العسكرية . وكانت موجودة في كل مكان فهى ليست اسم عنصر أو جنس بل اسم فئة أو طبقة اجتماعية معينة . راجع ص ١٤٠ حاشية ١، ص ١٣١ حاشية ٢

# الفهـــــــرس


Bibliotheca Alexandrina
0220070